ويقال لهم: ويحكم! قال الله سبحانه: ؟وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم؟[الإسراء:31]، وذلك أن المشركين كانوا يقتلون أولادهم خشية الفاقة والعالة والفقر، فنهاهم الله عن ذلك، وأخبرهم أنه يرزقهم وإياهم كما خلقهم، فكيف نهاهم عن قتل من قد جاء أجله وحان موته؟ وكيف يرزقهم وقد أفنى بزعمكم أرزاقهم بما جعل من قتل آبائهم لهم من انقطاع آجالهم؟ وكيف نهاهم عن قتل من ليست له حياة ولا بد أن تحل به الوفاة؟ فلقد أمرهم إذا أن يحيوا من قد أمات وأفنى أجله ففات. فأي قول أشنع من هذا القول في الله الكريم؟! فسبحان الممهل الحكيم!

وقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ؟وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً؟[النساء:102]، أفتقولون إن الله سبحانه أمر نبيه أن يعبيء أصحابه فرقتين، فرقة تؤدي معه صلاة الفريضة، وفرقة تحرس النبي وأصحابه وتلقى الكريهة وليس في ذلك منفعة ولا خير، ولا دفع ما يخاف من التلف والضير من ميل العدو على المؤمنين ميلة واحدة، فيكون في ذلك ما يخاف من الواقعة، وأن ما أمر الله به من الاحتذار والحذر غير نافع له ولا لأصحابه، وأن آجالهم إن كانت قد جاءت قَتَلَهم أعداؤهم، احترسوا أم لا؛ وإن لم تكن جاءت لم يقدروا عليهم، ولو ألقوا بأيديهم إليهم. فهذا من قولكم أعظم التخطئة لربكم، وأجهل الجهل لنبيكم، لقد أبطلتم إذا كتاب الرحمن، وقلتم شططاً وبهتاناً.

ويقال للجهلة الضالين من المشبهين المجبرين: ما قولكم في قول ربكم، وما يخرج ذلك عندكم حين يقول سبحانه: ؟مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ؟[الأنفال:67]، ما أراد الله بهذا من قوله؟ أليس هذا عتاب منه لرسوله يخبره أنه لم يكن ينبغي له أن يأسرهم ولا يطيع أصحابه في التشاغل بأخذهم دون الإثخان لهم بقتلهم؟ ثم قال سبحانه وجل جلاله وعز سلطانه: ؟تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا؟[الأنفال:67]، يريد بذلك ما أخذوه منهم وفيهم من الفداء، ثم قال: ؟وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ؟[الأنفال:67]، يقول: والله يريد منكم الاجتهاد في أمر الآخرة، وما يقربكم إليه ويزيد

في كرامتكم لديه، ثم قال: ؟لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟[الأنفال:68]، يقول: لولا حكم من الله سبق بالعفو عنكم في وقت أسركم وترككم الاستقصاء في قتل عدوكم لمسكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم، فتبارك الله الحليم الكريم. وأخبر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد فعل ما كان غيره أحب إلى الله وأرضى. ولم يتعمد صلى الله عليه وآله وسلم لله في ذلك إسخاطاً بل لعله توهم أن الأسر في ذلك الوقت أنكأ للكافرين وأذل وأشقى حتى أعلمه الله أن القتل في وقت قيام الحرب كان أنفع، وعلى الإسلام وأهله بالخير أرجع.

(424/1)

أفيقول الحسن بن محمد وأشياعه، ومن كان على الجهل من أتباعه: إن آجالهم كانت قد جاءت فدفعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهم، فعاب الله عليه ما فعل من دفع وفاتهم وتأخير ما كان الله قد جاء به من حضور آجالهم؟ أم يقولون: إن آجالهم لم تأت ولم تحضر، وقد بقي لهم من الحياة زمان وأعصر، فإنه قد كانت لهم مدة باقية، وأرزاق دارة غير فانية، فلم يستطع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقطع ما لم يقدر على قطعه من آجالهم، وأن يبيد ما قد بقي من أعمارهم، فلامه الله إذ لم يفعل ما لم يستطع، ويبيد ويقطع من ذلك ما لم ينقطع؟ فلا بد أن يقولوا بأحد هذين المعنيين أو يتقلدوا وينتحلوا أحد هذين القولين، فيكونوا بانتحال أحدهما كافرين، وفي دين الله سبحانه فاجرين؛ أو يقولوا على الله ورسوله بالحق، فيقروا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن كان معه من الخلق كانوا يقدرون على قتلهم والإثخان لهم وترك أسرهم، ولامهم الله في ذلك إذ هفوا وولهوا ولم يفعلوا.
تم جواب مسألته

(425/1)

المسألة العاشرة: هل الأرزاق مقسومة من عند الله؟
ثم أتبع ذلك المسألة عن الأرزاق، فقال: أخبرونا عن الأرزاق، من قدرها؟ ومقدرة هي؟ أم غير مقدرة؟ ومقسومة هي؟ أم غير مقسومة؟
فإن قالوا: نعم، هي مقدرة ومقسومة؛ فقد انتقض قولهم. فقل لهم: فهل يستطيع أحد أن يأخذ إلا رزقه؟ أو يأخذ إلا ما قسم الله له؟ (فإن قالوا: لا، فقد انتقض قولهم، وإن قالوا: نعم، فقل: فكيف ذلك). فإن قالوا: إن الله خلق الأموال والأطعمة والأشربة فذلك رزقه، وبين لهم حلالها ومأخذها، فإن

أخذوها من باب الحلال كانت حلالاً، وإن أخذوها من باب الحرام كانت حراماً. فقل لهم: أفهم يأخذون لأنفسهم ما شاءوا؟ فأيهم شاء أن يكون غنياً مكثراً كان؟ وأيهم شاء أن يكون فقيراً معدماً كان؟ فإن قالوا: نعم؛ كذبوا لأن الناس كلهم حريص أن يكون غنياً وكاره أن يكون فقيراً، وقد قال الله سبحانه خلافاً لقولهم: ؟نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ؟[الزخرف:32]، وقال: ؟وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ؟[النحل:71]، في آي كثيرة من كتاب الله سبحانه.

تمت مسألته

[جوابها:]

(426/1)

وأما ما سأل عنه الجاهلون، وتوهم في الله المبطلون أن الله الواحد الخلاق حرم على عباده أرزاقاً رزقهم إياها، وتفضل عليهم بها، فرزقهم رزقاً وآتاهم ثم عاقبهم على ما أعطاهم، وأنه لا يأكل أحد ولا يلبس ولا ينتفع إلا بما رزقه الله وآتاه وصيَّر إليه بما قدره له وأعطاه، فقالوا في ذلك بتجوير الرحمن ونسبوه إلى الظلم والعدوان، فقالوا: إنه يطعم ويرزق عباده طعاماً، ثم يكتبه عليهم حراماً، فيوجب عليهم على قبول ما أعطاهم العقاب، ويحرمهم بأخذ ما صير إليهم الثواب.

وقد وجدناه سبحانه يكذبهم في قولهم، ويبين ذلك لنا ولهم بما قسم بين عباده من الأرزاق، ورفق عليهم من الأرفاق، من ذلك ما حكم به في الغنائم، والصدقات، وما جعل من ذلك لذوي المسكنة والفاقات، فقال سبحانه: ؟إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ؟... الآية [التوبة:60]، فحكم بذلك لمن سمى من أولئك، فحرمهم ذلك الفاسقون، وأكله دونهم الظالمون، فشربوا به الخمور، وركبوا به الذكور، وأظهروا به الفجور، وأصروا على معاصي الله إصراراً، وجاهروا الله بالمعصية في ذلك جهاراً، فأعد الله لهم على ذلك النيران، وحرمهم ثواب الجنان.

(427/1)

وكيف يقول الحسن بن محمد ذو الغفلات، ومن تبعه من ذوي الجهالات: إن الله سبحانه رزق هؤلاء الظالمين هذا، وقد حكم به في كتابه للفقراء والمساكين، وقال الله سبحانه: ؟وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن

شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ؟[الأنفال:41]، فحكم بذلك لنفسه، ولرسوله، وقرابة نبيه، ومن سمى من اليتامى والمساكين وابن السبيل في تنزيله، فاستأثر به الفاسقون عليهم، ولم ينفذوا ما جعل الله من ذلك لهم، بل دحروهم دحوراً، ونصبوا لهم دونه العداوة سراً وجهراً، وقد جعله الله لأوليائه رزقاً، وحكم لهم به حكماً حقاً، فغلب عليه الفاجرون، وظلموهم فيه ظلماً.

وقال سبحانه: ؟مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إن اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ؟[الحشر:7]. فكان الذي أتى به صلى الله عليه وآله وسلم ما أنزل الله في وحيه من فرائضه، وقسمه فيه في أوليائه من خلقه، فخالف على ذلك الفاجرون، ورفضوا ما جاء به خاتم النبيين من الله رب السماوات والأرض، فجعلوه دولة بين أغنيائهم، وحرموه من جعله الله له من فقرائهم، عماية وصمماً، ومجاهرة لله وظلماً، فأخذوا ما جعل الله لغيرهم، وتعدوا ما حكم الله به فيهم. ولا يشك من كان لبه سالماً، وكان بأمر الله عالماً أنهم على ذلك معذبون، وأنهم على مخالفته فيه مسؤلون.

(428/1)

فكيف يقول الحسن بن محمد: إن الله رزق هؤلاء الظالمين المعتدين الفاسقين رزقاً، ثم صيره لهم وسلمه في أيديهم، ثم يعذبهم عليه، ويحاسبهم فيه؟ أم كيف يجتريء ويقول: إن الله رب العالمين والسماوات والأرض، جعله لمن حكم له به من ضعفة المسلمين ثم انتزعه منهم فجعله رزقاً للأغنياء الفاسقين دونهم؟ فكيف يكون ذلك والله سبحانه يقول: ؟كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ؟؟ أو لم يسمع من ضل وغوى فقال على خالقه بالقول الردي اللهَ سبحانه كيف يقول في الوحي المذكور في كتابه المسطور: ؟إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا؟[النساء:10]، فعلم أن في خلقه من سيأكل أموال اليتامى عدواناً وظلماً فنهاهم عن ذلك، وحرمه عليهم، وحكم بعذاب السعير لمن استجاز ذلك فيهم. أفيقول المبطلون إن الله سبحانه جعل أموال اليتامى لمن نهاه عن أكلها رزقاً، ثم نهاهم عن أكل ما رزقهم وآتاهم؟ لقد قالوا على الله كذباً، وضلوا ضلالاً بعيداً.

(429/1)

ثم قال جل جلاله، وصدق في كل قول مقاله: ؟يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ؟[النساء:11]، فحكم للأنثى بجزء وحكم للذكر بجزئين، ثم قال: ؟فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ؟. فما يقول من ضل وعمي، وحار وشقي إن وصيٌّ تعدى، وفي المخالفة تردى، فحرم بتعديه الوالد، ومنع من ميراث أبيه الولد، وأخذ ذلك فأكل به واكتسى وشرب، وتزوج ولهى، هل يكون ذلك عندهم له من الله رزقاً رزقه إياه؟ وقد يسمعون حكم الله به للورثة دون من أخذه واصطفاه. فقد أبطلوا بذلك حكم الرحمن، ونقضوا ما نزل سبحانه في الفرقان. وإن قالوا: بل أخذ ما ليس له حقاً، وأكل من ذلك ما لم يجعله الله له رزقاً؛ كانوا في ذلك بالحق قائلين، وعن قول الباطل والمنكر راجعين.

(430/1)

ثم يقال لهم: ما تقولون فيمن غصب مالاً فأخذه، وتعدى فيه وسرقه، فأكله حراماً وشربه، أتوجبون عليه الزكاة فيه؟ أم توجبون رده إلى صاحبه عليه؟ فقد يجب عليكم في قياسكم وقولكم أن تقولوا: إنه رزق له، رزقه الله إياه وقدره له، ولولا ذلك لم يأخذه ولم يقدر على أكله وشربه، ولا على الانتفاع به. فإن كان كما تقولون وإليه تذهبون أن كل ما غصب غاصب أو أخذه من المال آخذ غصباً، فهو من الله له بتقدير وعطاء ورزق، فلن يجب عليه أبداً رده، ولا أن ينازعه فيه ضده، بل هو أحق به من كل مستحق، وهو له ملك بتمليك الله له إياه وحق، فأمروه فليؤد ما أوجب الله على أهل الأموال في الأموال من الزكاة والحج والإنفاق في سبيل الله والإفاضة على كل من سأله ورجاه. ألا تسمعون كيف يقول الله ذو الجلال وذو القوة والقدرة والمحال، حين يقول: ؟وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ؟[آل عمران:97] - والسبيل فهو الجدة مع صحة الأبدان من مانعات حوادث الأزمان - فعند المقدرة والسلامة والأمان يجب فرض الحج على كل إنسان، وهذا في أصل قولكم، وما تذكرونه من رأيكم بما قد حوى وأخذ من المال الحرام مستطيع لحج بيت الله الحرام، قادر على ذلك بما أخذ من أخيه وأخرجه بالغصب والغلبة له من يديه، إذ تزعمون أن كل ما أخذ وأكل وشرب ولبس فهو رزق مقسوم، ومن الله جل جلاله عطاء لعباده معلوم. وقال الله سبحانه: ؟وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ؟[البقرة:43]، فلا يشك أن الزكاة تجب فيما رزق الله العبيد من رزق إذا بلغ ما تجب فيه الزكاة وتقع، فليتصدق وليقرض الله قرضاً حسناً مما في يديه، فإن الله يقول: ؟إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ؟[الحديد:18] - ولن يقبل الله إلا الحلال، ولن يضاعف

إلا لمن أنفق مما ملك من الأموال – فإن كان هذا له من الله عطاء فأمُروه فلينفذ ما أمره الله به، وليؤد ما عليه فيه، وانهروا عنه المطالب له به، الذي أخذه غصباً من يديه، واستأثر به عليه.

وإن قلتم: لا يجب عليه فيما في يديه من هذا المال المغصوب حق، ولا يلزمه فرض؛ وأوجبتم على أنفسكم أخذه من يديه ورده على صاحبه؛ وقلتم: لا يكون إلا ذلك، والحق كذلك؛ فقد أزلتم عنه ملك ما غصب، وحرمتم عليه منه ما أكل، وأقررتم أن ما أخذ من ذلك فأكله وشربه ليس له من الله رزقاً، ولا نائلاً، ولا عطاء، وأن عليكم أن تأخذوا ما في يديه من المال فتردوه إلى من كان له من الرجال، وتضمنوه ما أتلف منه، وتوجبوا عليه إن كان أخذه من دار أو بيت أو حرز أو قرار ما أوجب عليه الواحد الجبار من القطع، فإنه يقول سبحانه: ؟وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا؟[المائدة:38]. فيا سبحان الله! ما أبين الحق وأنور الصدق! فلو كان الله رزقه ما أكل مما سرق وغصب لما أوجب عليه أن يقطع الحاكم يده في أن أخذ ما أعطاه ربه وآتاه، وأكل ما به غذاه. فسبحان البعيد من ذلك، الصادق في قوله، العدل في جميع أموره وفعله.

فإن هم من بعد ذلك سألونا فقالوا: هل يقدر أحد أن يأكل غير ما رزقه الله؟. قيل لهم: إن مسألتكم هذه تخرج على معنيين، وتتصرف في وجهين:

فإن أردتم أن كل شيء مما بث الله وأخرج رزق العباد، فكذلك لعمري هو؛ لأن الله قد سماه في الجملة بذلك، فقال: ؟وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ؟[ق:9-11]، يقول سبحانه: أخرجنا به ما لا يخرج من الحب والأكل إلا بالماء. وقال: ؟أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟[الواقعة:63]، وقال: ؟أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ؟[عبس:25-32]، فقال: ؟شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا؟، يريد شققناها عن النبات الذي يخرج منها من الحب والفواكه وغيره، وفلقناها فلقاً.

والأب: فهو الحشيش والعشب الذي تأكله الأنعام، وينبت في الأودية والجبال والآكام، ؟مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ؟، يقول: بلاغاً لكم ولأنعامكم إلى وقت انقضاء آجالها وآجالكم، فرزقناكم فواكه وحباً، ورزقنا أنعامكم عضاها وأباً. فكل ما أخرج قد سماه لأهله، ومن يملكه رزقاً. فهو رزق لمن أجاز الله له أكله وأحل له أخذه وأمره عليه بشكره، فقال: ؟كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ

مُفْسِدِينَ؟[البقرة:6]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ؟[البقرة:172]، وقال: ؟فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ؟[النحل:114]. فرَزَق ذو المن والسلطان والجبروت والبرهان كلَّ

(433/1)

عبد ما أحل له وأمره بأخذه؛ فأما ما نهاه عن أكله وعذبه في قبضه فليس ذلك لعمرهم من رزقه، وكيف يجوز على ذي الجلال والجبروت أن يجعل لعباده رزقاً وقوتاً به يعيشون وفيه يتقلبون، ثم ينهاهم عن أخذ ما أعطاهم وإليه ساقهم وهداهم.

فهذا، والحمد لله لا يغبى على من وهبه الله علماً وآتاه تمييزاً ولباً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين.

تم جواب مسألته

(434/1)

المسألة الحادية عشرة: تقسيم العقول بين الخلق

ثم أتبع ذلك المسألة عن العقول، فقال: خبرونا عن العقول أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فإن قالوا: مخلوقة. فقل: أمقسومة هي بين العباد أم غير مقسومة؟ فإن قالوا: بل هي مقسومة. فقل: فأخبرونا من أين عرف بعض الناس الهدى فأخذ به، وجهله بعضهم فتركه، وكلهم حريص على الهدى كاره للضلالة، راغب في العلم، مبغض للجهالة، وقد زعمتم أن الله قد جعل سبيلهم واحداً، وعقولهم واستطاعتهم واحدة، وهي حجة الله عليهم؟ فإن قالوا: بتوفيق من الله؛ فقد أجابوا. وإن قالوا: أخذ هداه منهم من أحب، وتركه منهم من اتبع هواه، وأطاع إبليس إلى دعائه. قيل لهم: فما صيَّر بعضهم تابعاً لهواه، والعقول فيهم كاملة مستوية؟ فإن قالوا: بتوفيق من الله وفَّق من شاء منهم؛ فقد أجابوا، وإن قالوا: فضل الله بعضهم على بعض؛ فقد صدقوا، وإن قالوا غير ذلك فقد كذبوا؛ لأنه لو كان الناس في العقول سواء، ما كان من الناس جاهل وعاقل، وأحمق وحليم، ولسمي الجاهل عاقلاً، والعاقل جاهلاً، ولكن الأمر في هذا أبين من ذلك، ولكنهم قوم يجهلون. وإن قالوا: ذلك من قِبَل الأدب والتعليم. فقل: لو كانت عقولهم مستوية، ما احتاج بعضهم إلى بعض في أدب ولا تعليم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما عنه سأل وقال مما ألحد فيه من المقال، فقال: أخبرونا عن العقول أمخلوقة هي أم مقسومة، أم غير مخلوقة ولا مقسومة؟ فنحن والحمدلله نقول: إن الله خلق العقول وأوجدها فيهم، وجعلها حجة له عليهم، وسببها لهم سبحانه وتعالى تسبيباً، وركبها فيهم احتجاجاً عليهم تركيباً، فهي حجة الله العظيمة، ونعمته على خلقه الكريمة، تدعو أبداً إلى الخير والهدى، وتنفي عن الخلق الضلالة والردى، تدل على الخالق ذي الجلال، وتنفي عمن أراد الحق التكمه والضلال، فهي أبداً لمن استعملها داعية إلى الإسلام، مخرجة له من حنادس دياجير الظلام.

ثم قسمها سبحانه بين خلقه ليدلهم على ما أوجب عليهم من حقه، فأعطى كل من أوجب عليه أداء فريضة منها أكثر مما يحتاج إليه في أداء ما افترض عليه، فليس منهي يجب عليه عقاب، ولا مأمور يجب له ثواب إلا وقد ركب الله فيه من العقل، وقسم له وعليه أكثر من الحاجة في أداء مفترضه وما يخرجه بحمد الله إن استعمله من جهالته.

ثم أمرهم باستعمال ما أعطاهم من الحجة المركبة فيهم، وأخبرهم أنهم إن لم يستعملوها لم يصلوا إلى علم ما لعلمه أعطوها. فأمرهم أن يستعملوها فيفكروا، وينظروا ويميزوا ويتدبروا. فإذا فكروا وميزوا بتلك الحجة التي لن يضل معها طول الأبد إن أنصفها – بحمدالله – من أحد، ولذلك ما قاله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ؟[الحشر:2]، يقول: انظروا بأبصاركم ثم دبروا فاعتبروا بعقولكم فيما ترون وتبصرون، هل له من خالق غير الله فيما تعلمون؟ كما قال سبحانه: ؟أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ؟ وقال: ؟وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ؟[الزخرف:9]، وقال: ؟قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ؟[القصص:73.71]. ثم قال تنبيهاً لهم وحثاً على استعمال العقول، ليصح لهم الحق من القول إذا نظروا وفيما ذكر الله مما أراهم وفطر لهم تفكروا، فقال الله سبحانه:

؟حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ؟[الجاثية:5.1]، فقال في أول السورة: ؟لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ؟ يقول: يصدقون بما يرون وينصفون العقل، فيقبلون منه ما عليه يدلهم حين يبصرون ويستبصرون في الحق، ويستدلون على الله بما ذرأ من الخلق فيكونون بذلك مؤمنين، ولله بالخلق والقدرة مقرين؛ ثم قال: ؟لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟، فأخبر أنه قد ذرأ وجعل لهم من الدلالة عليه في خلق أنفسهم ما بأقل قليله على خالقهم يستدلون، وبأنه الله الذي لا إله إلا هو يوقنون. ثم كرر الدلالة لهم والاحتجاج عليهم بذكر ما أنزل من السماء من رزق فأحيا لهم به الزروع، وفرع به في الأصول الفروع، ثم كرر الاحتجاج والتوقيف لهم والتعريف فذكر تصريف الرياح، وما يكون فيها وبها من الألقاح، فقال: ؟وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ؟، فتتابعت الآيات متناسقات بما فيهن من العبر والدلالات حتى وصل إلى قوم ؟يَعْقِلُونَ؟، فأخبر بذلك أن كل ما ذكر لا يعلم ولا يخبر ولا يفهم إلا بما ركب وجعل لهم فيه من حجة العقل، فقال سبحانه احتجاجاً عليهم، وتنبيهاً في ذلك كله لهم بما خلق لهم من الأبصار التي لا ينتفع بها في التذكرة إلا بالألباب، وحثاً على استعمال الألباب في كل الأسباب: ؟أَفَلَمْ يَنظُرُوا إلى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ

(437/1)

مُّنِيبٍ؟[ق:8.6]، يقول: توقيفاً لهم، وتعريفاً واحتجاجاً على ذوي العقول، وقال: ؟فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ؟[الحشر:2]، فحض بالأمر بالاعتبار ذوي الأبصار.

وقال سبحانه: ؟أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟[محمد:24]، فنظر قوم وفكروا، وعقولهم في ذلك أنصفوا، فأبصروا واهتدوا وعرفوا الحق فرشدوا، وأنكر قوم وخالفوا ما تفرع لهم من المعقول فجحدوا، فعاقبهم الله على ذلك من فعلهم، وأضلوا أنفسهم بمكابرة عقولهم، وأبطلوا النظر واتبعوا الجبر، فاتبعوا الهوى، وتركوا الهدى، وتعلقوا بالأخبار المنقولة الكاذبة، ورفضوا ما فيهم من حجة الله الصادقة، فبذلك عندوا، وأنفسهم بالتجبر منهم أهلكوا، فليس للعباد على الخالق من حجة يحتجون بها، ولا متعلق ولا طلبة في ذلك يطلبونها. بصرهم وهداهم، وركب فيهم ما كفاهم، وبعث إليهم المرسلين مبشرين لهم ومنذرين، فأمروهم ونهوهم، وعذابه حذروهم، وإلى ثوابه دعوهم، وأروهم عجائب الآيات، واحتجوا عليهم بالدلالات: ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال:42].

فهذا قولنا في ربنا، وشرحنا لما احتج به سبحانه علينا.

فإن قالوا وبما ندفعه – إن شاء الله بحقنا – تعلقوا: ألستم تزعمون، وبغير شك تقولون: إن الله قسم العقول بين خلقه، وجعلها لهم حجة فيهم، نعمة أنعم بها عليهم، وأيادي أكملها لديهم؛ ثم تقولون إنه افترض عليهم فروضاً فجعلها عليهم كلهم شرعاً سواء، إن أدوها أثيبوا، وإن تركوها عوقبوا؛ ثم تقولون ونقول: إن ذلك لا ينال إلا بالعقول، وقد نرى اختلاف العقول في الناس أجمعين، فنعلم أنهم فيها متفاضلون، وأن ليس هم فيها على القسمة متساوين، فأين ما تحوطون من عدل رب العالمين، وقد ساوى بين عباده فيما افترض عليهم، وجعل ذلك سبحانه سواء فيهم، ثم فضل بعضهم على بعض فيما لاينال أداء ما فرض من الطاعات، ولا يوصل إلى تمييز شيء من شيء إلا به من الآلات، من العقل الرصين، والفهم المبين؟

قلنا لهم: قد سألتم، فاسمعوا ما به أُجبتُم. فكذلك بالعدل على الله نقول، وفي كل أمرنا فيه سبحانه نحول، وسنبين لكم إن شاء الله الجواب، ونشرح لكل ما تتكمهون فيه من الارتياب، ونختصر ذلك لكم بما يقر في أفهامكم ويثبت، إن كنتم للحق طالبين مريدين في ألبابكم.

فنقول: إن الله تبارك وتعالى افترض على خلقه فروضاً، وأوجب عليهم سبحانه أموراً، ثم أعطاهم ما بأقل قليله ينال أداء ذلك من الآلات، ويقتدر على أدائه متى قصد من الساعات. فجعل في أقلهم عقلاً من العقل ما ينال بأقل قليله تمييز ما أوجب الله عليه تمييزه، والإحاطة بما أوجب عليه الإحاطة به من معرفته، والإقرار بوحدانيته، والأداء لكل فرائضه. فساوى بين عباده فيما إليه يحتاجون، وله في فرائضه يستعملون، ثم زاد بعد أن ساوى بينهم في الحجة من شاء فضاعف له العطاء والكرامة، وزاده في العقل والسلامة، كما زاد بعضهم بسطة في العلم والجسم، فليس لأحد على الله في ذلك حجة، إذ قد أنالهم من ذلك أكثر من البغية لئلا يكون للمخلوقين عليه حجة فيما فضل به بعضهم على بعض من الجلَد والطول والجمال والهيئة والكمال والبياض والفصاحة، فكل ما أدخلتم علينا فيما فضل الله به بعض الخلق من العقول، فواجب عليكم لنا أن تجيبونا به فيما بين البياض والسواد والقصر والطول حذو المثال بالمثال ليس لكم – والحمدلله – عنه تحرف ولا انتقال إلا بأن ترجعوا إلى الصدق؛ فقد بان لكم – والحمدلله – الحق، فاتقوا إملاء الشيطان وتسويله وإغوائه وتخييله، ولا تكونوا من الذين قال الله فيهم: ؟إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى

الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ؟[محمد:25]، وسنضرب لكم بقوة الله وحوله في ذلك مثلاً يبين لكم أموركم، ويخامر نور حقه ضميركم وصدوركم.

(440/1)

أرأيتم رجلاً له بيتان من حشيش، وله غلامان، فدفع إلى أحد غلاميه شمعة واحدة متوقدة، ودفع إلى الآخر ثلاث شمعات، ثم قال لهما: ليحرق كل واحد بما معه ما في أحد هذين البيتين من الحشيش، فهل ترون لصاحب الشمعة الواحدة المتوقدة الملتهبة على مولاه حجة في أن أعطى صاحبه ثلاثاً وأعطاه واحدة، فيقول: لا والله ما أقدر أن أحرق بيتاً من حشيش بهذه الشمعة الواحدة، فأعطني ثلاثاً مثل صاحبي، وإلا فلا حيلة لي في إحراقه؟

وقد يعلم كل ذي عقل سوي من رشيد أو غوي، أن الذي يكفي هذا الحشيش من هذه الشمعة لفحة واحدة، وأنه ومن معه ثلاث شمعات، وعشر واحد في القدرة على إحراق ما أُمِر بإحراقه، وإنفاذ أمر سيده فيه، فهل تقولون لسيده: كلفته وصاحبه إحراق بيتين من حشيش متساويين، ثم كلفته إحراقه بشمعة واحدة، وكلفت صاحبه إحراق بيته بثلاث، فأعطه ثلاثاً، وإلا فقد كلفته ما لا يناله بهذه الواحدة ولا يطيقه، فأنت له في ذلك ظالم، وعليه بفعلك هذا متحامل.

أم تقولون للعبد: أنت مخطيء في فعلك، جاهل في قولك، فأنت تنال بهذه الشمعة من حشيشك مثل ما ينال صاحبك بشمعاته في حشيشه، والأمر في قليل النار وكثيرها عند تأججها والتهابها سواء، لا حجة لك على مولاك فيما كلفك وأعطاك.

فكذلك – والحمد لله – الأمر فيما أعطى الله العباد من حجته فيما فضل به من شاء من بعد ذلك من خليقته. فأما من سلب عقله من المجانين والأطفال، فلم يوجب الله عليهم الأعمال، بل أزاح عنهم ذلك، ولم يوجبه عليهم، وحالهم في وقتهم ذلك عند الله فحال لا يسألهم فيها عما افترض من الأعمال حتى يفيقوا، ومما هم فيه يخرجوا، ويبلغ الأطفال من الفهم ما يصح لهم به التمييز ويخرجوا من حال الطفولية والصغر إلى حال القوة والكبر، وفي ذلك ما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يعقل.)).

(441/1)

والحمد لله العدل في فعله، الرحيم بخلقه، الذي كلف يسيراً، وأعطى عليه كثيراً.

تم جواب مسألته

(442/1)

المسألة الثانية عشرة: نفوذ إرادة الله

ثم أتبع ذلك المسألة عن الإرادة، فقال: أخبرونا عن الإرادة إذا أراد الله شيئاً، يكون أو لا يكون؟ فإنه قد قال: ؟فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ؟[البروج:16]، فإن قالوا: نعم، قيل لهم: وهل أراد الله أن يدخل خلقه كلهم في الهدى؟ فإن قالوا: نعم، قد أراد أن يدخلوا كلهم في الهدى على غير جبر منه ولا إكراه. فيقال لهم: فهل دخلوا في الهدى كما أراد على غير وجه الجبر منه لهم والإكراه؟

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من إرادة الله سبحانه، فقال: إذا أراد الله شيئاً يكون؟ أو لا؟ فإنه قد قال الله: ؟فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ؟، فكذلك قولنا في خالقنا ومصورنا وبارئنا ومميتنا ومحيينا، سبحانه وجل وتقدست أسماؤه كما قال في نفسه: ؟فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ؟، فكل ما شاء أن يفعله سبحانه فعله.

ثم نقول من بعد إثبات القدرة للرحمن ونفي التشبيه والتجوير عنه في كل ما شاء: إن الإرادة من الله على معنيين نيرين – عند من علمه الله وفهمه – بينين:

فإحداهما: إرادة حتم وجبر، والأخرى: إرادة أمر، معها تمكين وتفويض.

(443/1)

فأما إرادة الحتم فهي: ما أراد من خلق السماوات والأرض والجبال، وما أنبت من الأشجار: ؟وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟[النحل:8]، وما أراد سبحانه من قضاء الموت على خلقه من جميع أهل سماواته وأرضه، والذهاب والفوت، فقال سبحانه: ؟كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ؟[آل عمران:185]، وقال: ؟كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ؟[الرحمن:26]، فأخبر بما حكم به على خلقه، وبما ألزمهم في ذلك وأوجبه عليهم من حتمه، فقال: ؟قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكَثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ؟[الجاثية:26]، وقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم إخباراً منه بما حتم عليه: ؟إِنَّكَ مَيِّتٌ

وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ؟[الزمر:30].
ومن إرادة الحتم التي أراد الله فِعلها فَفَعلها قوله: ؟ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا؟[فصلت:11،12]، فكان قضاؤه فيهن خلقه سبحانه لهن حين أراد إيجادهن وصورهن، وأوحى ما شاء فيهن من أمرهن.

(444/1)

ومن ذلك ما يقول الواحد الجبار ذو الملكوت الغفار: ؟اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى؟[الزمر:42]، فذكر أن الموت منه، وأنه يقضي به وبيديه، فكان هذا منه إرادة حتم ليس لأحد فيها منهم فعل.
ومن ذلك ما قال الله سبحانه: ؟وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ؟[ق:16]، فأراد خلقه فخلقه، وقال: ؟يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ؟[الحجرات:13]، فأخبر عن نفسه بما أراد أن يجعله منهم، فجعله وصوره وأوجده كما قال: ؟إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ؟[يس:82].

(445/1)

وأما المعنى الآخر: فهو الإرادة التي معها تمكين، وهو قوله سبحانه: ؟وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا؟[الإسراء:23]، فكان قضاؤه في ذلك سبحانه ما أمر به من أن لا نعبد معه غيره، وما أمر به من البر والإحسان إلى الوالدين، فأراد الله سبحانه من العباد أن يطيعوه ويعملوا له بما ركب فيهم وأحسن به إليهم من الاستطاعات، وما أعطاهم من الآلات، بالاختيار منهم لطاعته، والإيثار منهم لمرضاته، ليثيبهم على فعلهم، ويعاقبهم على تركهم. ولو أراد منهم الطاعة جبراً، وصرفهم عن المعصية قسراً لكان كلهم جارياً في طاعته تابعاً لمرضاته، ولم يكن المذنب الشاسع أولى بالعقوبة من المهتدي الطائع، ولم يكن العامل بالطاعة أحق من عامل المعصية، إذ كانا كلاهما أدخلا في عملهما إدخالاً، واستعملا في إرادة الله استعمالاً، فتبارك الله عن ظلم العباد، وتقدس عن القضاء بالفساد، الذي لم يُطَع كرها، ولم يُعْص مغلوباً، بل أمر ونهى، وحذر وهدى، وعرَّف النجدين، وبين العملين، ثم أعطى كل شيء خلقه، وأعد للميطعين الثواب، وللعاصين

العقاب، ثم قال سبحانه: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ؟[آل عمران:102]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا؟[النساء:136]، فأمرهم سبحانه بالإيمان، وحضهم على التقى والإحسان، ونهاهم عن الكفر والطغيان، وعن جميع ما لم يرد من العصيان، فقال سبحانه: ؟وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى انه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً؟[الإسراء:32]، وقال: ؟وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي

(446/1)

حَرَّمَ اللّهُ إِلا بِالْحَقِّ؟[الأنعام:151،51]، ومثل هذا في القرآن كثير، وقال: ؟لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا؟[آل عمران:130]، وقال: ؟إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا؟[النساء:10]... الآية، ولله الحمد بأبين البيان، فأمرهم بما أراد من طاعته، ونهاهم سبحانه عن معصيته.

ثم قال سبحانه من بعد أن أعطاهم من الاستطاعة ما أعطاهم، ثم أمرهم ونهاهم، فقال: ؟فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ؟[الزلزلة:7]، وقال: ؟مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا؟[النساء:123]، ثم قال سبحانه: ؟فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ؟[الواقعة:88-95].

ثم قال من بعد إكمال الحجة عليهم وإثباتها فيهم: ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا؟[الكهف:29].

(447/1)

أفلا ترى كيف بيَّن ما كان منه فعلاً، وبيَّن ما أمر به العباد أمراً؟ فلم يقل فيما حتم به عليهم حتماً، وما كان منه عليهم قضاء وحكماً من الموت، ولا من الخلق: موتوا؛ ولا: لا تموتوا؛ ولا: اخلقوا؛ ولا: لا تخلقوا. ولم يقل فيما أراده منهم فعلاً بتخيير واختيار لعظيم المنة والاختيار: كل من قضينا عليه المعاصي عاص؛ كما قال: ؟كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ؟، ولم يقل: أمرنا وقضينا عليه بالعصيان؛ كما قال: ؟إنا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ؟[ق:43]، بل أخبر أنه من ذلك بريء، فقال: ؟إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟[الأعراف:28]، فتبارك الله الواحد الأعلى الذي إذا أراد أن

يفعل شيئاً كان بلا كلفة، ولا إضمار، ولا تفكر، ولا اضطراب، إذا أراده أوجده، وإذا أوجده فقد أراده، فقضاؤه كائن، وفعله من أفعال العباد بائن، ليس له مثل ينال، ولا شبه تضرب له فيه الأمثال، وهو الواحد المتعال، الصمد الواحد الأحد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:3-4].
تم جواب مسألته

(448/1)

المسألة الثالثة عشرة: الطبع والختم

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن الطبع والختم، فقال: أرأيتم من طبع الله على قلبه، وختم على سمعه وبصره، أهو ممن دُعي إلى الإيمان، فيثاب على أخذه ويعاقب على تركه؟ إن قالوا: نعم. فقل: وكيف يقبلون الإيمان وقد ختم على قلوبهم، والله يقول: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[يس:10]؟ هل ضرهم الطبع أو الختم؟ أم نفعهم؟ أم لم يضرهم ولم ينفعهم؟

فإن قالوا: إنما ختم على قلوبهم بكفرهم، فقل: هل ضرهم الطبع حين فعل بهم، وحال بينهم وبين التوبة، والدخول في الإيمان؟ فإن قالوا: لم يضرهم ولو ساءوا آمنوا فالله قد كذبهم واجترءوا على الرد على الله قوله، فقل: فتراهم حين طبع على قلوبهم حين لم يقبلوا الإيمان، فإن قالوا: فإنهم لا يقدرون على الإيمان حتى يفتح الله قلوبهم فقد أقروا لله بقدرته، وانتقض عليهم قولهم؛ إذ زعموا أن الختم قد ضرهم، وأنهم يعذبون على ما كان من تركهم الإيمان وأخذهم بالكفر بعد الختم وعملهم بما لا يستطيعون تركه.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من الطبع والختم من الله، فقال: أرأيتم من طبع الله على قلبه، وختم على سمعه وبصره، أهو ممن دُعي إلى الإيمان فيثاب على أخذه ويعاقب على تركه؟ فقولنا في ذلك على الله بالحق:

(449/1)

أن الله لم يرد بذلك إذ قاله أنه طبع (على قلوبهم [طبعاً] لا يقدرون على الفهم معه، ولا أنه ختم على سمعهم ختماً لا يقدرون على) السمع والاستماع، وعلى البصر فلا يقدرون على الإبصار والانطباع، وذلك فأبين الأمر ولا ينكره من عقل. ألم تر وتسمع أن الجاهلية كانوا أرصن عقولاً، وأعظم أحلاماً،

وأكثر أفهاماً من أهل هذا الدهر؟ ولذلك قالت قريش للرسول فيما كان يعيب من آلهتهم ويبين لهم في ذلك من جهالتهم، فكانوا يقولون لعمه أبي طالب، ومن قام معه دون رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته وقرابته: عاب آلهتنا، وسخف عقولنا، وأطاش أحلامنا؛ فكانوا ذوي أحلام وعقول جمة، وأفهام، فكيف يكون من طبع على قلبه على ما قد يسمعون عنه من فهمه؟ وكذلك كانوا يستمعون إلى الرسول إذا قرأ القرآن، ويقولون في قراءته كل قول، ويدبرون فيه التدبير، ويسطرون فيما جاء به الأساطير. من ذلك ما كان يقول ويتبعونه عليه من القول منهم الوليد بن المغيرة اللعين، وكانوا له على كفره تابعين، حين تلا عليهم قول رب العالمين، فقال ما حكى الله عنه في سورة (نون) حين يقول: ؟وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إذا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ؟[القلم:10-15]. كذلك كان يقول الوليد الملعون: ؟إِنْ هَذَا إلا قَوْلُ الْبَشَرِ؟، ويقولون: ؟مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ؟، كما حكى الله في الكتاب المكنون، وقال فيهم ربهم، وذكر عنهم ومنهم، فقال سبحانه: ؟أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ؟[الدخان:13]، ويسمعهم ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحاججهم به، ويقرأ القرآن عليهم، ويأمره الله سبحانه بذلك فيهم، فيقول: ؟وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

(450/1)

الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟[الشعراء:214]، وقال جل جلاله، وصدق في كل قول مقاله: ؟وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً؟[المزمل:10]، وقال: ؟فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا؟[طه:130].

فهل يقول أحد من ذوي العقول إن من كانت هذه حاله كان مختوماً على سمعه، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناجيه ويناديه؟ وهل يجوز على الرسول أن ينادي ويناجي من سمعه مختوم؟ وكذلك كان نظرهم وأبصارهم فيما يأمرهم الله أن يبصروه من السماوات والأرض إذ يقول: ؟أَفَلَمْ يَنظُرُوا إلى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ؟[ق:6]، فهل يجوز على الله أن يأمر بالإبصار من هو بالختم أعمى؟ فهذا لا يجوز على ديَّان الآخرة والدنيا، ولن يقدر أحد أن يقول إنهم كانوا عمياناً لا يبصرون، وإنهم كانوا صماً لا يسمعون، ومن ذلك ما قد بان منهم ما كانوا عليه من الكمال والمعرفة، والعقول والتمييز في كل حال.

(451/1)

فإن قالوا: إن الله طبع على قلوبهم، وختم على سمعهم وأبصارهم عما جاء به الرسول من الحكمة والقول فقط، وخُلوا وما سوى ذلك؛ فقد وقعوا في أعظم مما كرهوا من المهالك، إذ زعموا أن الله سبحانه ختم على سمعهم وأبصارهم، فلا يبصرون ولا يسمعونه، وطبع على قلوبهم فلا يفقهونه ولا يميزونه؛ ثم أرسل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم إلى مغالبته، ونفي ما فعل بهم ربهم وركَّب فيهم، وتغييره – تعالى الله عن ذلك – وإزاحته عن أنفسهم؛ إذ كان قد أرسله إليهم يدعوهم إلى الإيمان والاهتداء والخير والبر والإحسان، والطاعة له ولنبيه والاستماع لأمرهما، والعمل بالقول وباللسان والضمير بطاعتهما، وقد علم أنهم لا يقدرون على ذلك. فنسب، من قال بهذا، إلى الله العبث والاستهزاء بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاهم يدعوهم إلى المحال، ويأمرهم بالمغالبة والدفع لما فعل فيهم ذو الجلال.

(452/1)

ألا تسمع كيف قد أثبت لهم الفهم بما يقال لهم، والمعرفة بما يتلى عليهم في قوله سبحانه: ؟إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ؟[محمد:25]، فأخبر الله الواحد الجليل فيما أوحي ونزل من التنزيل أن الهدى قد تبين لهم وصح لديهم وثبت في قلوبهم، ولولا سلامة القلوب من الختم الذي يذهب إليه الجاهلون ويقول به على الله سبحانه الظالمون، لم يثبت أبداً في قلوبهم الهدى، ولو لم يثبت لم يبن. ثم أخبر الله ما سبب ارتدادهم في الطغيان ومعصيتهم من بعد أن بين لهم ذلك الرحمن، فقال: ؟الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ؟، ولم يقل: الرحمن ردهم وأضلهم. ثم أخبر بالسبب الذي كان عنهم، فتمكن إذ قالوه الشيطان منهم، فقال سبحانه: ؟ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ؟[محمد:26].

(453/1)

ثم أخبر بما يصيرون إليه عند موتهم من ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم، فقال: ؟فَكَيْفَ إذا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ؟[محمد:27]، ثم أخبر لِمَ فعل ذلك بهم، وحتم عليهم بضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم، فقال: ؟ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ؟[محمد:28]، ثم قال: ؟أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا؟[محمد:10]؛ أفيظن أحد ممن وهب لباً وتمييزاً وعلماً أن الله سبحانه أوجب ما أوجب عليهم، وذكر ما ذكره عنهم، وأمرهم بالسير في الأرضين، والنظر في آثار الأولين

ممن هلك بما هم عليه من الكفران، وبما يختارونه من الفجور والعصيان، ولم يجعل لهم إلى ذلك سبيلاً، ويركب إليهم فيه دليلاً، وهم لا يقدرون على ذلك لما قد فعله بهم من الختم على أسماعهم وأبصارهم والطبع على قلوبهم التي بها يعقلون، وبسلامتها يميزون ويفهمون؟ كذب العادلون بالله والقائلون الزور على الله؛ بل سلَّم ذلك لهم، ووفَّره لإكمال الحجة عليهم، ثم أمرهم بالتسديد، ؟وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ؟.

ثم نذكر من بعد دفع هذه المهالك، ونشرح الصدق بما علَّمنا الله من ذلك، فنقول:

(454/1)

إن معنى الختم والطبع من الله تبارك وتعالى، هو على معنى التمثيل لهم والتقريع، وإثبات الحجة عليهم، وتبيين ضلالتهم لهم. فيقول سبحانه: إن امتناعكم من فعل الرشد، وقلة قبولكم له كمن طُبع على قلبه – بما مُنِعَه من لُبِّه، وحُرِمَه من تمييزه ونظره وجودة فهمه، وبما عُدِمِ من النظر والغوصان في بحور الفكر – من البهائم التي قد منعها الله من ذلك كله، إذ لم يجعل لها عقولاً تميز بها. فلما أن لم يجعل لها سبيلاً إلى ما يناله البشر من العقل والفهم والتمييز والنظر، كان ذلك منه فيها فعلاً، وكان منه طبعاً على قلوبها عما فهمه من التمييز أربابها. فمَثَّلَهم في قلة تفهمهم وإنصافهم لمعقولهم، وتركهم لرشدهم، واتباعهم لغيهم بمن طُبع على قلبه وخُتم عن التمييز على سمعه وبصره، عن أن يعلم ما يعلمون، أو يفهم ما يفهمون من البهائم التي جعلت قلوبها على غير ما جعلت قلوبهم من ذلك، وختم عليها فكانت بهائم سوائم كذلك. ألم تر كيف يقول ذو العزة والإنعام: ؟أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ؟[الأعراف:179]، وقال: ؟إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً؟[الفرقان:44]، يقول: إذ أعطوا من الفهم والتمييز والنطق وجودة التحرف في غامض الفكر ما لم تعطه البهائم، وما قد حجبها عنه العزيز العالم، وخلقها على غيره من الخلق وصورها على ما قد يراه جميع الخلق، فأبوا استعمال ما ركب فيهم، وامتن الله به سبحانه عليهم، وتركوا النصفة، وأخذوا في المكابرة والمعاندة لربهم، الكفر لنعمة خالقهم، فكانوا لذلك وفيه أضل من الأنعام، إذ تركوا ما لو علمته الأنعام وعرفته وميزته وفهمته لقبلته وتسارعت إليه، ولدخلت بأجمعها فيه، ثم لثابرت إلى الممات عليه. فهذا والحمدلله قول لا ينكسر على من قال به، بل يصح وينير لذوي العقول، ويستبين ويصح.

(455/1)

وقد يخرج ذلك على معنى آخر، فيكون على قدر عِلْمه منهم بما سيكون من اختيارهم للضلال، وإيثارهم للسفال، وتركهم للهدى، وقلة رغبتهم في التقى، وأنهم لِعَنَتِهِم وحميتهم وشدة حسدهم لنبيهم، لا يختارون ما جاء به من الله برأيهم، وأنهم لا يطيعونه فيما دعاهم من حظهم إليه، وأنهم سيجاهرون بالجرأة عليه؛ فلما أن علم الله منهم أنهم يختارون - بما ركب فيهم من القدرة والاستطاعة وسلم لهم من الجوارح والآلة - معصيته على طاعته، ومخالفة مرضاته، وأنهم يلقونه يوم الحشر كفاراً كذلك، فختم لهم، إذ قد علم من غاية أمرهم بذلك، فختم عليها ولها بما علم أنه يكون آخر اختيارها وعملها. وكذلك قيل في محمد سيد المرسلين إنه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين فسمي خاتمهم إذ كان آخرهم، فلما أن علم الله آخر أعمالهم وما عليه يكون فناء آجالهم، ختم بذلك عليهم ودعاهم به، وذكره عنهم وفيهم، فكان ذلك العمل منهم اختياراً، وكان ما قال الله فيهم منه إخباراً.

(456/1)

وأما ما ذكر الله من الطبع على قلب من على قلبه طُبِع، فسنقول فيه بوجهٍ، من قال به إن شاء الله أصاب، ووجده بيناً نيراً في اللسان والإعراب، وهو ما تقول به العرب لمن ذكر في ملأ من الناس عن إنسان شيئاً مما يفعله ويكتسبه ويصنعه من الردى والخنا: يا فلان طبعت ويحك فلاناً وأفسدته وطرحته بما طبعته به من أعينهم. فعلى ذلك يُخرَّج الطبع من الله لقلوب الفاسقين عند ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين وعباده المؤمنين، فيكون طبعه لها عندهم هو ما ذكر وأخبر به عنها من باطن إسرارها، وفاحش إضمارها وفسادها، وقلة قبولها للحق واهتدائها، وكفرها لربها وحسدها لنبيها، وبما فيها من الدَّغَل والعداوة لخاتم النبيين والمشاقة لرب العالمين، والمنافقة للمؤمنين، والصد عن سبيل أحكم الحاكمين، كما قال أصدق الصادقين: ؟إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ؟[محمد:32]، فيكون ما قص عنهم من قصصهم وأخبر به من الضلالة عنهم ومن الحيرة والتكمه والجهالة والكفر والشقاق والسفالة، وما سماهم به من ذلك ودعاهم طبعاً طبعهم به. فهذه - والحمدلله - حجة فيما سأل عنه من الختم والطبع، شافيه مجزية لمن أراد الحق من جميع الناس كافية. والحمد لله على توفيقه، ونشكره على تسديده، وكذلك يقول المحقون، لا ما قال في الله المبطلون: إنه سبحانه ختم على الأسماع فلا تسمع، وعلى الأبصار فلا تنفع، وأنه على قلوب الكافرين طبع، ثم أمرهم بخلاف ما فعل بهم، وكلفهم فعل ما منه منعهم، وعنه سبحانه حجزهم، ثم عذبهم على ترك ما لا يقدرون على فعله لما قد حجزهم عنه به من طبعه وختمه، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وخسر المبطلون

خسراناً مبيناً.

تم جواب مسألته

(457/1)

المسألة الرابعة عشرة: معنى زيادة المرض من الله في قلب الإنسان

ثم أتبع ذلك المسألة عن الزيادة، فقال: خبرونا عن الزيادة، فإن الله يقول: ؟وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ؟[البقرة:9]، وقوله لقوم: ؟وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ؟[التوبة:76]، (ألستم تعلمون أن الله زادها مرضاً، ومد آخرين في طغيانهم يعمهون، وأعقب قوماً نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه؟) فإن قالوا: نعم، ولكنه صنع ذلك بهم عقوبة بذنوبهم. فيقال لهم: فنعم، أفليسوا معذورين بما عملوا من معصيته حين فعل بهم ذلك؟ فإن قالوا: لا. فقل: فقد دخلتم فيما عبتم إذ زعمتم أن الله يعذب قوماً على ما لم يستطيعوا تركه؛ لأنه فعل ذلك بهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

(458/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه وتوهم فيه من التجوير له في فعله، فقال: خبرونا عن الزيادة التي ذكرها الله سبحانه، وعظم عن كل شأن شأنه حين يقول سبحانه: ؟وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ؟، وعن قول الله سبحانه: ؟وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ؟، فسنجيب، إن شاء الله في ذلك من الجواب بما يقبله ذووا الإنصاف والألباب، فنقول في ذلك على الله سبحانه بالصواب:

(459/1)

فأما قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، فهم المنافقون الذين كانوا يحتجرون من الرسول ومن المؤمنين بانتحال الإيمان وتلاوة ما أنزل من القرآن، وقلوبهم لذلك منكرة، وفي دين الله فاجرة، وبه سبحانه كافرة. فهم يراءون بألسنتهم الرسول مخافة القتل والتنكيل، وهم عن الله بضمائرهم حائدون، وللحق بينهم وفي سرائرهم معاندون، ألا تسمع كيف يقول فيهم، ويدل بصفاتهم عليهم حين يقول: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[البقرة:14]، وقال سبحانه يخبر عنهم بما هم فيه وما يجتمعون في خلواتهم من المشاقة عليه: ﴿وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:76]، ومن ذلك ما قال سبحانه في الأعراب: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ وإن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات:13]، ومن قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ما يقول الله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[الفتح:11]، فأخبر الله عنهم بما كان من كذبهم فيما ذكروا أنه شغلهم، وأخبر بنفاقهم وتوهيمهم ما وهموا نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من إحقاقهم فيما طلبوا منه من الاستغفار لهم والصفح في ذلك عنهم، فأمره الله سبحانه أن يخبرهم أن استغفاره لهم غير دافع عقوبة الله عنهم إذا أراد الله

(460/1)

الانتقام في ذلك منهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من أمورهم بما كانوا يتوهمون أنه قد خفي عليه علمه مما كانوا ظنوه وأجنوه في صدورهم، فقال ذو المعارج والجلال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[الفتح:12]، فأخبرهم سبحانه بما ظنوا من الظن القبيح في الرسول والمؤمنين وتوهموا، وما زين في قلوبهم الشيطان من ذلك وأملى، وأنهم كانوا في ذلك قوماً بوراً.

وأما قوله جل جلاله، وتقدس عن أن يحويه قول ويشبهه شيء أو يناله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فقد تخرج على معنيين وكلاهما إن شاء الله للحق مضاف.

فأما أحدهما: فأن يكون المرض الذي في قلوبهم هو الشك الذي هم فيه يلعبون من جحدانهم لما

يرون من آيات ربهم، فقلوبهم لذلك مريضة، فلا يؤدون لله سبحانه من فرائضه فريضة، فهم في شكهم ولعبهم يترددون وفي خطيئاتهم وطغياء حيرتهم يعمهون، كما قال سبحانه: ؟بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ؟[الدخان:9]، فقد تكون زيادة الله لهم من المرض الذي ذكر أنه في قلوبهم لشكهم وضلالهم الذي به مرضت قلوبهم ومنه دويت صدورهم، فكلما زاد الله منه نبيه تبياناً وعلماً وفضلاً وحكماً ازداد لذلك مرض قلوبهم تراكماً، وزادهم الله بتنزيل الحق غيظاً وغماً.

(461/1)

وقد يكون ذلك المرض حل في قلوبهم لشدة الحسد منهم لنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم على ما جعل الله من البركات واليُمْن في كل الحالات لديه، ولما خصه الله به دونهم وآثره به سبحانه عليهم من هبوط الملائكة نحوه، وما عظَّم به الله له خطره وقدره، فجعله الله له صفياً يوحي إليه وينزل إليه وحيه بفرائضه عليه، وما خصه به من أن جعل طاعته له طاعة، ومعصيته له معصية، فقال: ؟مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ؟[النساء:8]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ؟[النساء:59]، وقال سبحانه: ؟مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا؟[الحشر:7]، وقال: ؟وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ؟[الفتح:17]. فلما أن رأت قريش هذه الكرامات البينات النيرات التي لا يقدرون على دفعها ولا يأتون أبداً بمثلها، اشتد لذلك حسدها لرسول رب العالمين، وعهدوا عليه وعلى من تبعه من المؤمنين؛ فمنعه الله منهم، ورد حسدهم وبغيهم في نحورهم، فنصبوا له المحاربة وطالبوه أشد المطالبة، فردهم الله بغيظهم، كما قال سبحانه: ؟وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا؟[الأحزاب:25]، وذلك حين تحزبت قريش والعرب وطلبوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غاية الطلب، فكفاه الله في ذلك اليوم والمسلمين القتال بأخيه ووصيه علي بن أبي طالب أفضل المستشهدين، فقتل عمرو بن عبد ود اللعين، وكان عماد المشركين، وفارس المتحزبين، فانهزم بقتله جميع الكافرين، وفل الله حد المبطلين، وأظهر دعوة المحقين، ونصر رسوله خاتم النبيين، وكبت أعداءه المحادين، قال سبحانه: ؟إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ

(462/1)

مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ؟[المجادلة:5]، فلما أن أذلهم وهزمهم، وكبتهم كما كبت الذين من قبلهم، تدارك الكبت في قلوبهم وترادفت الحسرات في صدورهم ومرضت لذلك

وبه منهم القلوب، وأحاطت به منهم الذنوب، فهم في كل يوم يرون مِن نَصْرِ الله لنبيه، ويسمعون عنه ما يزيدهم حسداً، ويُحدث لهم في قلوبهم مرضاً، حتى صدق الله رسوله الرؤيا بالحق التي كانت في غزوة الحديبية، أراه وأكمل له من دخول مكة آمناً لا يخاف رصاداً، فنزل بالمشركين من ذلك ما كانوا يخافون، وحقق الله لرسوله ما كانوا يحذرون ومن بغى عليه لينصرنه الله إن الله لقوي عزيز.

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ؟، فقد يمكن أن الله سبحانه لما أن كذبوه وأخلفوه خذلهم، ومن الإرشاد والتوفيق تركهم، فتكمهوا في ضلالهم، وارتكبوا من أعمالهم، فأعقبهم كثرة ضلالهم وعظيم اجترائهم على قول الزور والبهتان، وارتكاب الضلال والعصيان تمادياً في ذلك حتى مردوا على الكذب والفساد والنفاق، وقول المحال والإلحاد، فيجوز أن يقال: أعقبهم الله نفاقاً، إذ تركهم من التوفيق والتسديد والتحقيق، حتى غلب عليهم الهوى، ورفضوا الخير والهدى، واستعملوا بينهم النفاق في كل أمرهم، فعادوا منافقين وللرشد تاركين، ينافق بعضهم بعضاً، ويفرضه في الغيب له فرضاً.

(463/1)

وقد يكون الذي أعقبهم في قلوبهم النفاق هو فعلهم وكذبهم وغدرهم في موعدهم الذي أوجبوه لخالقهم، وذلك أن الكذب والردى يجر بعضه بعضاً، فلما أن كذبوا فيما قالوا ووعدوا خالقهم من أنفسهم فأخلفوا، كانوا لغيره فيما يعدون أخلف، ولسواه سبحانه أكذب، فكاذبوا بيناتهم وأبطلوا بالزور قالاتهم، فدعت حالة حالة، حتى تكمهوا في الغي والضلالة، ودعا ما كان منهم أولاً من الكذب والإخلاف إلى قلة الصدق والإنصاف، فحل بينهم التضاغن وذهب عنهم الائتلاف، فعاد كل منافق في قوله غير صادق. فكان الذي أعقبهم النفاق آخراً هو فعلهم للكذب والإخلاف أولاً، فجر فعل الصغائر إلى ارتكاب موبقات الكبائر حتى صار ذلك لهم عادات، وكان لهم وعليهم علامات يعرفون بها دون غيرهم ودلالات. فهذا أيضاً معنى يصح في اللسان، ويعرفه من كان ذا بيان، والحمد لله ذي الجلال والبرهان والجبروت والسلطان.

وأما ما سأل عنه من معنى قول الله سبحانه: ؟إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ؟: فقد يمكن أن يكون المعنيُّ باللقاء هو الله الرحمن الأعلى، يريد بقوله: ؟يَلْقَوْنَهُ؟: أي يلقون حكمه ويعاينوه. وقد يكون الذي يلقونه ما تقدم من عملهم ومضى، فيعاينوه في الآخرة يوم الحساب، ويجدونه عند الله مثبتاً في الكتاب، كما قال سبحانه: ؟إنا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إمام مُبِينٍ؟[يس:12]، وقال: ؟فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ؟[الزلزلة:7]،

يقول سبحانه: يرى جزاءه، ويعاين ما حكم عليه به من الخير والثواب والعذاب والعقاب، فيكون لقاؤهم لأعمالهم هو توقيف الله لهم على القليل والكثير من أفعالهم، وما يكون منه سبحانه على ذلك من جزائهم؛ فيلقى المحسنون ما وعدهم الله في إحسانهم من الثواب، ويلقى المجرمون ما وعدهم من العقاب.

تم جواب مسألته

(464/1)

المسألة الخامسة عشرة: هل يعذب الله عباده على ما صنعه فيهم؟

ثم أتبع ذلك (الحسن بن محمد) المسألة عن ما صنع الله بعباده، فقال: خبرونا عما صنع الله بالعباد، هل يعذبهم عليه؟ فإن قالوا: لا. فقل: خبرونا عمن زاده الله كفراً، ومدَّه في طغيانه، وأعقبه النفاق في قلبه هل يعذبه عليه؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد دخلوا فيما كانوا يعيبون، وإن قالوا: لا. فقل: فقد زعمتم أن الله لا يعذب من كان على الكفر، ولا يضر من كان عليه، وأنتم تزعمون أن الله إنما صنع ذلك عقوبة لهم. وسلهم: هل استطاع هؤلاء الترك لما صنع الله بهم، والخروج منه؟ فإن قالوا: لا؛ فقد أجابوا، وإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا بكتاب الله، وخالفوا قول الله إذ يقول: ؟فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ؟، (فإن كانوا يقدرون على أن يصرفوا من النفاق قلوبهم قبل أن يلقوه)، فقول الله بزعمهم باطل في قوله: ؟خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ؟[البقرة:7].

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه مما التبس عليه، فتعسف بقول الزور فيه، فقال: أخبرونا وبما عندكم نبئونا عن قول الله سبحانه: ؟وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ؟[الأنعام:110]، وفيما صنع الله بالعباد، تقولون: هل يعذبهم على ما فيه أدخلهم، وعليه جبرهم؟

فلعمري، لقد تقدم في ذلك الجواب، وقلنا فيه إن شاء الله بالصواب، ولا بد أن نقول فيما سأل عنه في هذا الجواب، نأتي على شرحه إن شاء الله بشرح شافٍ فنقول:

(465/1)

إن معنى قوله سبحانه: ؟وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ؟: هو تركه (لهم من) توفيقه وتسديده وعونه ولطفه وتأييده، لما خرجوا من طاعته وارتكبوا بطغيانهم من معصيته، فولى بعضهم بعضاً، ولم يقم لهم سبحانه أمراً، كما قال سبحانه: ؟وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ؟[الأنعام:129]، فلم يبرأ سبحانه منهم ويكلهم إلى أنفسهم جل وعظم شأنه إلا من بعد أن تولوا وكفروا وتعدوا واستوجبوا منه الخذلان بما تمادوا فيه من الطغيان، كما يستوجب الرشد والتوفيق بالطاعة منه المؤمنون ويستأهل بالاهتداء منه والزيادة في الهدى المهتدون، كما قال أحكم الحاكمين، وأصدق القائلين: ؟وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ؟[محمد:17]، فأخبرنا سبحانه أنه ولي المتقين، مجانب خاذل للفاسقين، وكذلك قال سبحانه رب العالمين: ؟ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ؟[محمد:11]، يريد سبحانه أنه ولي الذين آمنوا والمتولي في كل الأسباب لهم، وأنه الخاذل للكافرين والتارك لتأييدهم، الرافض لتوفيقهم وتسديدهم. ألا ترى كيف يقول ويخبر بتأييده وصنعه، وتسديده ولطفه للمؤمنين، وتخليته بين المؤمنين والكافرين، وممن أطغاهم من الطاغوت والطواغيت، فهم الذين أجابوهم إلى دعائهم واتبعوهم في أهوائهم من مستجيبي الشيطان، وأبالسة الإنس الملاعين، الذين أطغوهم واستهووهم في الردى والطغيان، ومنوهم مع الإقامة على ذلك من الله الغفران، قال الله سبحانه: ؟اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ؟[البقرة:257].

وأما ما قال وعنه سأل فقال: هل يعذب الله أحداً على فعله به؟ أم يقدر الخلق على الخروج مما أدخلهم جل جلاله فيه؟

(466/1)

فقولنا في ذلك على الله بما تقدم من شرحنا له، من أن الله جلا جلاله أعز وأكرم وأرأف وأرحم وأحلم من أن يُدخل عباده في سبب من الأسباب أراده، ثم يعذبهم عليه ويعاقبهم فيه، إن هذا إلا جور من الفعل، وإنه من فاعله لأجهل الجهل. فلو كانت أفعاله لا تتم إلا بأفعالهم لكانت حاله في العجز كحالهم، ولكان مضطراً إلى خلقهم وإيجادهم، إذ لا يتم له فعل إلا بأعمالهم، فلقد آتاهم إذا نظراً منه لنفسه لا لهم، وضرورة الخالق إلى الخلق في فعله كضرورة الخلق إلى الخالق في أمره، فكلٌّ إلى غيره محتاج. وذلك فبيِّن على قياسهم في المنهاج، ولو اشتبهت الحالات لاشتبهت بلا شك الذات، فسبحان من بان عن خلقه فليس له حد ينال، ولا مثل يضرب له به الأمثال، الذي بان من كل فعل فِعْلُه، وجل عن كل قول قولُه.

وأما ما قال من قوله: هل يقدر الخلق على أن يخرجوا مما أدخلهم الله فيه وصنعه بهم؟

فإن إدخال الله وصنعه بالعباد يكون على معنيين كليهما متضادين:

أحدهما: إدخال حكم وأمر وافتراض منه، معه تمكين واختيار، لم يرد الله أن يدخلهم فيه جبراً، بل أراد أن يدخلوا اختياراً بما ركب فيهم وأعطاهم من الآلات والاستطاعات ليكمل لهم الثواب على الطاعات، ولو أدخل قوماً في الطاعة، وأدخل آخرين في المعصية ثم أثاب وعاقب لكان على غير فعلهم عاقب وأثاب، جل الله عن ذلك رب الأرباب، فهم قادرون على الخروج من هذا الفعل على ما ذكرنا من تمكين الله الواحد الأعلى.

(467/1)

وأما المعنى الثاني الذي أدخلهم فيه وصنعه بهم: فهو ما خلقهم عليه وصورهم من الخلقة، وقومهم عليه من الفطرة من الأجسام والعروق والعصب والعظام والأسماع والأبصار، وما عليه الجن من السرعة والذهاب في الهواء، وما خلق عليه الآدميين من الثقل والخفاء، فلا يقدر جني يزيح ما فيه من الخفة فيثقل، ولا آدمي عن الثقل إلى الخفة يرحل، وكذلك لا يقدرون على الخروج من سواد إلى بياض، ولا من بياض إلى سواد، ولا من قصر إلى طول، ولا من طول إلى قصر. فهذا ما لا يقدر عليه الخلق ولا ينالونه، وذلك أن الله خلقهم وجبلهم عليه، فلم يزدادوا من محبوبه، ولم ينقصوا من مكروهه.

تم جواب مسألته

(468/1)

المسألة السادسة عشرة: معنى قول الله تعالى: ؟وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ؟

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قوله الله سبحانه: ؟وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ؟[الأنفال:7]، أليس إنما يريد العير والغنيمة أو المشركين، وغلبتهم النصر؟ فإن قالوا: نعم. فقل: هل كانوا يقدرون على أن لا يقاتلوا ولا يخرجوا إلى القتال؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد زعموا أنهم كانوا يقدرون على أن يخلف الله وعده الذي وعده رسوله، وهذا قول عظيم يدخلهم في أعظم مما كرهوا. (وإن زعموا أنهم لم يكونوا يقدرون على أن يخرجوا للقتال، لا المؤمنون ولا الكافرون؛ أقروا بما كرهوا)، فإن الله قد أراد أن يقاتل المؤمنون الكافرين، وأن يقاتل الكافرون المؤمنين، وأن الفريقين لم يكونوا يستطيعون التخلف ولا الترك للقتال حتى ينجز الله وعده، ويعز المؤمنين، ويذل الكافرين، ويوهن كيدهم، وكذلك أراد بالفريقين جميعاً، وقد كان فيما صنع الله بالفريقين يوم بدر بينة لنبيه وبرهان، وذلك أن الله سبحانه لم يكل المؤمنين إلى ما زعم الجهال المكذبون أن الله جعل في العباد

استطاعة ثم وكلهم إليها، فلم يرض حتى أيَّدهم بنصره وأمدهم بملائكته ثم آجرهم على صبرهم على البأس، وهو صبَّرهم؛ وآجرهم على الثبات، وهو ثبتهم؛ وآجرهم على ائتلافهم، وهو ألَّف بينهم؛ وآجرهم على صرامتهم وهو ربط على قلوبهم؛ وآجرهم على ظفرهم، وهو ألقى الرعب في قلوب عدوهم؛ وهذا كله خلاف لقولهم، وردٌّ عليهم. فجعل غلبة المؤمنين الكافرين نصراً وعزاً وتأييداً، وجعل غلبة الكافرين دولة بلاء وإملاء، فأنزل في قتال المؤمنين الكافرين بأحد: ؟فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ؟، أما الغم الأول: فالهزيمة والقتل؛ وأما الغم الآخر: (فإشراف خيل الكفار على الجبل حتى أشرفوا عليهم فظنوا أنها الهلكة)؛ قال الله تعالى: ؟لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ؟، من الغنيمة

(469/1)

؟وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ؟ يعني من قتل من إخوانكم، قال: ؟وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ؟[آل عمران:153]. فإن قالوا: إن الله إنما فعل بذنوبهم ومعصيتهم. قيل: فإنه إنما عصى منهم نفر يسير وهم الرماة، نحو من خمسين رجلاً، فقد عم ذلك البلاء جميع المؤمنين حتى وصل إلى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فشج في وجهه، وكسرت رباعيته، وقد كان المسلمون يوم أحد سبعمائة أو يزيدون. فأخبر الله أنه صنع ذلك بهم فأثابهم غماً بغم، أفليس الله قد أراد أن يصيبهم ذلك بأيدي الكافرين، ولأن ينهزموا، وأن يقتل من قتل منهم، ثم أخبر أيضاً بما صنع بهم بعد الذي كان منه إليهم من الغم، فقال: ؟ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ؟[آل عمران:154]، قال الله لنبيه: ؟قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ؟[آل عمران:154]، ثم قال: ؟يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ؟، فأخبر عما أخفوا في أنفسهم، فقال: ؟يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا؟، يقولون: لو كنا في بيوتنا ما أصابنا القتل، قال الله تكذيباً لهم: ؟قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ؟، فأخبر أنه قد كتب القتل على قوم قبل أن يقتلوا، وجعل لهم مضاجع إليها يصيرون، ثم نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأن يظنوا بالله كظنهم، فقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي

(470/1)

قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ؟[آل عمران:155]، وقال في غلبة الكافرين المؤمنين وهزيمة المؤمنين، فقال: ؟وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ؟[آل عمران:140]، وقال: ؟وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ؟[آل عمران:166]، في آي كثيرة يخبر أن الأمر كله منه، وهو يدبر أمر خلقه، ويصرفهم كيف يشاء، وأخبر أن الذي أصاب المؤمنين يوم أحد إنما كان بإذن الله من قتل الكافرين إياهم وهزيمتهم لهم، حتى قتل منهم سبعون رجلاً، وأنتم تزعمون أنه لم يأذن في المعاصي، وأنها لا تكون بإذنه، ولكن الإذن قد يكون على معنيين: أما أحدهما: فيكون أمراً منه يأمر به، والآخر: يكون إذناً على وجه الإرادة، أنه أراد أن يكون؛ لأنه فعال لما يريد. ثم قد عير الذين قالوا لإخوانهم: ؟إذا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ؟، وكذبهم وأخبر بما قد سبق منه لهم وما قد كتب عليهم، وعير الذين قالوا: ؟لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا؟(فكذبهم الله لما قالوا من ذلك).

فلو تدبرتم كتاب الله وآمنتم بما فيه ما عارضتم أمور الله تعالى ولا عبتم، ولفهمتم قضاءه، تردون عليهم برأيكم أمره، وتعقبون حكمه، وتظلمون عدله، وتقولون إنه فعل بخلقه شيئاً، ثم عذبهم عليه بما صنع بهم، فقد ظلمهم، فسبحان الله ما أعظم قولكم وأضعف رأيكم.

تمت مسألته

[جوابها:]

(471/1)

وأما ما سأل عنه من القتال، فقال: هل أراد الله من المؤمنين أن يقاتلوا الكافرين؟ ومن الكافرين أن يقاتلوا المؤمنين؟ أم أراده من المؤمنين دون الكافرين؟ فبذلك ولله الشكر نقول، وإليه أمورنا تؤول فنقول:

إن الله شرع حقاً، (وأوجب صدقاً، فدعا إليه الناس، وكشف عنهم به الالتباس، ثم أوجب) على الخلق كلهم الدخول فيه والمقاتلة عليه، فكل من كان على ما شرعه الله تعالى من الحق، فقد أراد الله منه مقاتلة من خالف عنه من الخلق. وإنما أراد سبحانه من عباده أن يقاتلوا على ما رضيه من دينه، فأما ما لم يرده من أفعال الكافرين، ولم يشرعه ولم يرضه من عبادة أصنام المشركين فكيف يريد من أصحابه القتال عليه؟ وقد كرهه منهم، وذمهم على المقام فيه، ودعاهم إلى الخروج منه. وقد علم كل من كان له علم، وآتاه الله شيئاً من فهم الحكمة، أن المشركين عن آلهتهم كانوا يدافعون، وعن دينهم يقاتلون، وعلى ما كان آباؤهم من القتال يثابرون، فإن كان الله أراد منهم ذلك وجعلهم فيه كذلك، فقد ارتضاه، وعلى الأديان كلها اصطفاه، كما ارتضى الذي بعث به خاتم النبيين وأراده، وأمر

بالقتال عليه المؤمنين. فإن قالوا: ارتضاه وأراده وأمر بالقتال عليه عباده؛ كفروا بالرحمن وتابعوا قول الشيطان. وإن قالوا: بل سخطه وشنيئه، وأمرهم لإشقائهم بالمقاتلة عليه؛ فقد سووا عنده بين ما ارتضاه وبين ما سخطه وأباه. وهل يأمر بحياطة ما لا يريد إلا الجاهل غير الرشيد؟ فإن كان حكم عليهم بعمل الردى لما أراد بهم بزعمهم من الشقاء، فعلى ماذا يعذبهم ويشقيهم وفي الحميم يصليهم، وهم له طائعون، وفي إرادته منهم متصرفون؟ أهذا عندهم من صواب الحكيم، العدل في فعله الرحيم؟ بل هذا من فعال الجائرين، وأعظم ما عاب سبحانه من اعتداء الظالمين. فلا يجدون بدأ من أن ينسبوا إلى الله التجهيل، والظلم والتعدي، والجور الجليل، أو يدخلوا في الحق ويرجعوا إلى الصدق، فيقولوا: إن الله أمر وأراد حياطة ما

(472/1)

ارتضى، وكره ونهى عن حياطة ما لم يشأ.

وأما ما ذكر من قول الله عز وجل: ؟إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ انه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً؟[الأنفال:43]، فقال وتوهم أن هذا الأمر المفعول الذي يقضيه الله هو قضاؤه على الفريقين بالقتال والمزاحفة والاقتتال. وليس ذلك - ولله الحمد - على ما قال، ولا على ما توهم من المحال، أن الله يقضي على الكافرين بقتال المؤمنين، ولا أنه يقلل المؤمنين في أعين الكافرين تشجيعاً منه لهم على قتال المؤمنين وتأييداً بذلك لهم على المهتدين، ولكن قللهم في أعينهم لكيلا يروهم بحالة الكثرة مع ما في قلوبهم من هيبة الروعة فيهزموا ويذهبوا ويرجعوا ولا يقاتلوا، فكان ذلك خذلاناً لهم وحرباً عليهم، وقللهم في أعين المؤمنين لكيلا يروهم على الكثرة التي كانوا عليها فيهابوا ويخافوا، فقللهم في أعينهم تأييداً منه لهم، ومعونة وإحساناً إليهم.

(473/1)

فأما قوله: ؟لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً؟ فمعناه: ليقضي الله وعداً كان منجزاً، وهو ما وعد رسوله والمؤمنين من النصر إذا نصروه، والتسديد لهم إذا قصدوه. ألا تسمع كيف يقول: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ؟[محمد:7]، ويقول: ؟وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ؟[الحج:40]، فقضى تبارك وتعالى لرسوله وللمؤمنين عند الالتقاء بما وعدهم من النصر، وفَعَل لهم بما ضمن فعله من الأمر، وتغنيمهم ما وعدهم من إحدى الطائفتين: طائفة الجيش، وطائفة العير؛ فغنمهم الله

طائفة الجيش كما وعدهم من الأمر، واتخاذ ما وعد المؤمنين من النصر على الكافرين، فهو الأمر الذي ذكر الله أنه كان مفعولاً، لا ما يتوهم أهل هذا القول الفاسد المخذول.

(474/1)

وأما قوله: ؟هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ؟[الأنفال:62]، فنصر الله رسوله كما قال سبحانه: ؟إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا؟[الفتح:26]، فألف الله على ذلك بين المؤمنين، لا كما ظن الحسن بن محمد وأصحابه أهل العمى والقول بالردى: أن التأليف من الله كان بين الكافرين والمؤمنين في القتال، وأنه ساق بعضهم إلى بعض جبراً حتى ألف بينهم للقتال، وهذا فأحول المحال، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ألا ترون كيف قال: ؟أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ؟، و ؟أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ؟، فرد اسم المضمر في الهاء والميم من (قلوبهم) على الاسم الظاهر من (المؤمنين)؟ فسبحان أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

وأما ما سأل عنه من قول الله تبارك وتعالى: ؟وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ؟[الأنفال:7]، وقال: لو لم يخرج المشركون، أليس كان يبطل وعد الله لنبيه وللمؤمنين؟

(475/1)

فقولنا في ذلك: أن الله سبحانه وعد نبيه كما قال إحدى الطائفتين: طائفة العير وطائفة الجيش المستعير؛ وأن الله لم يجبر الفاسقين على الخروج إلى قتال المؤمنين، بل عن ذلك نهاهم، وإلى طاعته وطاعة رسوله دعاهم، فقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ؟[الأنفال:20]، ويقول: لو أطاعوا الله فيما أمرهم لم يخرجوا لمحاربة الحق ولم ينصبوا.

فأما ما قال من أن ذلك لو كان لبطل وعد الله أهل الإيمان، الذي وعدهم من الغنيمة والإحسان، فليس ذلك كما قال أهل الجهالة والعمى والضلال، ولكن الله سبحانه علم أنهم سيخرجون، وعلى الحق والمحقين سيبغون، فلما أن علم ما يكون من اختيارهم، حكم بما علم منهم عليهم، وبشَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما سيسوق من الغنيمة والنصر إليه. ولو علم منهم اختيار المقام لما وعد غنائمهم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أن خرجوا وعلى الله ورسوله أجلبوا خذلهم سبحانه

وأخزاهم وأذلهم وأرداهم، وألقى الرعب في قلوبهم كما قال سبحانه: ؟سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا؟[آل عمران:151]، فأرداهم ونصر المؤمنين، وأعز بتأييده الدين، وكبت الكافرين، فأبادهم بالسيف قتلاً، وشتت أمرهم وجمعهم هزيمة وأسراً، وأنزل الملائكة المقربين مدداً للمؤمنين، وإعزازاً للحق والمحقين، فزادهم قوة إلى قوتهم المركبة الثابتة فيهم.

(476/1)

وأما ما سأل عنه وقال وتوهم من المحال في قول الله تبارك وتعالى: ؟فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ؟، وذلك الغم هو غمهم (يوم حنين) حين أدال المشركين على النبي والمؤمنين؛ فغلط وأخطأ في ذلك، ولم يكن ولله الحمد كذلك، ولم يدل الله الكافرين على المؤمنين؛ لأن الإدالة هي معونة وتأييد ونصر وتسديد، ولم يقل مؤمن بالله: إن الله نصر في ذلك اليوم أعداءه على أوليائه، ولا نصر جيش أبي سفيان اللعين على جيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولكن الله أراد بالمؤمنين المحنة والبلاء حتى يعلم الله أهل الصبر والاحتساب والتقى، ألا تسمع كيف قال الله: ؟وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ؟[محمد:31]. فنصرهم في أول الأمر وأراهم ما يحبون، فخالفوا نبيه وعصوه في تنحيهم عن باب الشعب الذي أوقفهم عليه، وأمرهم أن يرموا من صار من المشركين إليه، فلما رأوا الهزيمة على المشركين قد أقبلت، وتيقنوا أنها بهم قد حلت، طمعوا فيما يطمع فيه مثلهم من الغنائم، ورجوا أن يكون شدهم على الكفار مع أصحابهم أصلح، وفي الأمر الذي يراودون أنجح؛ فزلَّوا وعصوا الرسول فيما أمرهم من الثبوت على باب الشعب، وكان ثباتهم عليه على المشركين أصعب. فلما أن تنحوا أمكن للكافرين ما أرادوا، فظفروا من المسلمين ببعض ما أحبوا، ثم لاقوا من بعد ذلك من نصر الله للحق ما كرهوا، فثبت الله من بعد ذلك المؤمنين، وغفر لأهل الخطيئة المذنبين، وأنزل عليهم السكينة، وغشاهم النعاس أمنة منه، كما قال الله سبحانه: ؟ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ؟، قال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ؟قُلْ إِنَّ

(477/1)

الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ؟، ثم قال سبحانه لنبيه: ؟يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ؟، ثم أخبر عما أخفوا، وما من المنكر أجنوا، فقال: ؟يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا؟.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أتته قريش، ونزلوا بأحد شاور أصحابه فأشاروا عليه بأن يثبت في المدينة، فإن أقاموا أضر بهم المقام حتى ينصرفوا، وإن صاروا إلى المدينة فدخلوا، قاتلهم بها الصغير والكبير والنساء من فوق البيوت. فأراد ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أشاروا عليه من بعد بالخروج إليهم، فنهض فلبس لامته، ثم خرج عليهم، فقالوا: يا رسول الله، قد رأينا رأياً، إنا لم نقاتل ببلدنا وبين دورنا أحداً إلا أظهرنا الله عليه وبلغنا فيه ما نريد، فأقم بنا مكاننا على رأينا الأول. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كان هذا أولاً، إنه ليس لنبي إذا لبس لامته أن ينزعها حتى يقاتل عدوه.)). فخرج وخرج معه ألف من الناس، فلما فصل من المدينة رجع عنه عبدالله بن أبي سلول رأس المنافقين، في ثلثمائة من الفاسقين، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى لقي القوم، فكان من أمرهم ما ذكرنا، ومن حالهم ما شرحنا، فذلك قولهم: ؟لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا؟، يقولون: لو أطاعنا أو كان الرأي إلينا لكنا قد ثبتنا في بلدنا حتى يدخلوا علينا فنقاتلهم أو يرجعوا عنا فنتبعهم، فقال سبحانه: ؟قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ؟، أي الأمر أمر نبيه الذي افترض عليكم طاعته، فليس لأحد منكم سبيل إلى مخالفته إلا بالكفر والعصيان للواحد العزيز الرحمن، ثم أعلاهم من بعد تلك السقطة، وأنزل عليهم الأمنة، ورد إليهم النصر، وشد لهم ما أضعفوه من الأمر، وصرف عنهم أعداءهم لأنْ يدركوا كل ما طلبوا أو طمعوا به فيهم من القوة والظهور عليهم.

(478/1)

وأما ما ضل فيه من قوله: ؟قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ؟، فقال: إن الله كتب على الكافرين قتل المؤمنين، وكتب على المؤمنين ظهور الكافرين، وقتلهم إياهم؛ فتوهم أن الكتاب من الله هو حتمٌ، وفعلٌ فيهم وقضاءٌ كائن قضى به عليهم. ولو كان ذلك كما ظن الحسن بن محمد لكان المشركون لله مطيعين، ولأمره وقضائه منفذين، ولم يكن عليهم في ذلك إثم، ولا عند الله جرم، بل كانوا في ذلك مثابين وعليه غير معاقبين، ولم يكن المؤمنون بمثابين إذ الله فعل بهم ذلك من القتل وقضاه عليهم، وكل في الطاعة له سواء، تبارك عن ذلك العلي الأعلى.
فأما وجه الحق في ذلك، ومعنى قول الله سبحانه: ؟كُتِبَ عَلَيْهِمُ؟، هو عَلِم منهم لا أنه أكرههم ولا قضى عليهم، ولكن علم من يختار الخروج ولقاء الأعداء، ومن يقتل عند التنازل واللقاء، فعِلْمه وقع على اختيارهم، فخروجهم فعلهم لا فعله، وقتلهم فعل الكفار لا قضاؤه، فهم على خروجهم وقتالهم واجتهادهم مأجورون، وعند الله مستشهدون، والفسقة المشركون على قتلهم معاقبون، وعند الله في الآخرة معذبون، فكلٌ نال بفعله من الله ما أوجبه عليه من الثواب والعقاب، والحمدلله رب الأرباب، والمجازي للخلق يوم الحساب.

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ؟، فقال بزعمه، وتوهم بجهله: أن الله يديل أهل الكفر والعصيان على أهل الطاعة والإيمان، وأنه أدال يوم أحد المشركين على النبي ومن كان معه من المؤمنين؛ فليس ذلك كما ذهب إليه، وسنشرح ذلك إن شاء الله تعالى، ونرد بالحق قوله عليه.

(479/1)

فنقول: إن الله جل جلاله يديل المؤمنين على الكافرين، ولا يديل الكافرين على المهتدين، كذلك قال في يوم حنين: ؟ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ؟[الإسراء:6]، فكان برده الكرة للموحدين هو المديل لهم على الكافرين، ولم يقل في شيء من كتابه وما نزله من آياته إنه أدال أهل الشرك والنفاق على أهل الدين والإحقاق.

فأما ما ذكر الله من المداولة بالأيام بين جميع الأنام، فإن مداولته للأيام هو إتيانه بالليل تارة وتارة بالنهار، وأما ما يأتي ويداول بين عباده وأرضه فيهما من الأمطار التي يحيي بها الأرضين ويعيش بها جميع العالمين، قال سبحانه: ؟وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ؟[ق:9-11]، فسقى اليوم قوماً هم إلى السقي محتاجون، وسقى غداً آخرين، وما يحدث في الأيام من الأرزاق للعباد وإحياء ما شاء من البلاد، وبالمداولة بالأيام بين الأنام ما نزل بهم من المصائب الهائلات، وما يمن به عليهم من الآلاء والنعم السابغات، من ذلك ما يأخذ من الأقارب والآباء والإخوة والأبناء وجماعة القربى، وما يهب عز وجل لمن يشاء من الأولاد الذكور، وما يصرف ويدفع من الشرور، فهذه الأشياء كلها التي تكون في لياليه سبحانه وأيامه مداولة منه لا شك بين عباده. فأما ما يظن الجهال، وأهل التكمه في الضلال من أن معنى هذه الآية هو إدالة الفاسقين على الحق والمحقين، وأنه يمكن في الأرض للفاجرين، ويمهد للفسقة العاصين بما قد حرم عليهم، ولم يجعله – بحمدالله – لهم، بل شدده عليهم غاية التشديد في ترك مشاقة أهل الحق والتسديد، وأمر في ذلك بالاتباع لهم، وترك الخلاف في جميع الأسباب عليهم، (فهذا كذب منهم على رب العالمين، وكيف يجوز أن يديل ويمهد للعاصين)، بل كيف يتوهم على

(480/1)

الرحمن الكريم الواحد ذي الجلال العظيم أن يكون أدالهم وأعطاهم ما عنه زجرهم ونهاهم؟ فتبارك ذو السلطان المبين عن مقالة أهل الضلال الجاهلين. (والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم).

تم جواب مسألته

(481/1)

المسألة السابعة عشرة: معنى قول الله: ؟وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ؟، ومعنى الإذن فيها

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله عز وجل: ؟وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ؟[آل عمران:166]، فقال: خبرونا عن الإذن وإنكاركم أن يكون الله أذن في المعاصي. فقل: الإذن من الله على وجهين: فإذن أذن فيه أمر يأمر به؛ وإذن أذن فيه إرادة منه أن يكون لما يشاء من أمره. وما كان من معصية فلا تكون إلا بإذنه - وكذلك أظنه - وذلك إرادة منه. فإن قالوا: نعم؛ فقد أقروا بنفاذ أمره وإرادته، وإن جحدوا وأنكروا، فإن الله قد أكذبهم في كتابه، فقال للمؤمنين: ؟وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ؟، يعني بذلك ما أصابهم من القتل والهزيمة. وإنما كان ذلك تأييداً للكافرين، فقد أذن الله للكافرين أن ينالوهم بما أصابوهم من القتل والجراح والهزيمة. فإن زعموا أن إذن الله أمره، فقد زعموا أن الله أمر بالمعاصي، وأمر المشركين أن يقتلوا المؤمنين، وكل مأمور إذا فعل ما أمر به فهو مطيع وله عليه أجر، والكتاب يكذبهم، وإن زعموا أن إرادته على وجهين: على وجه الأمر، والآخر على وجه الإرادة، فقد أقروا بالحق، وفي ذلك نقض لقولهم ورد عليهم، فقد زعموا أن الله يريد أن يكون ما لا يأمر به ولا يرضاه.

تمت مسألته

[جوابها:]

(482/1)

وأما ما قال، وعنه بجهالته سأل، من قول الله تبارك وتعالى: ؟وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ؟، فقال: إن ذلك عنده من الله إذنٌ للكافرين فيما نالوه من الرسول والمؤمنين في يوم أحدٌ من القتل، وما نالوا به حمزة رحمه الله من المثل، وما نالوا به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الجراح، وما اجترؤا على الله فيه وعليه من هشم وجنته وكسر رباعيته؛ فكيف يتوهم من كان له عقل

وفهم يبين به عن الجهل أن الله أذن لأعدائه في فعل ذلك بأوليائه؟ كذب من ظن ذلك وقال على الله بهتاناً وزوراً، وكانوا عنده سبحانه قوماً بوراً، وكيف يأذن للفاسقين في القتل والسواية إلى المؤمنين وهم الخيرة عنده من عباده أجمعين، بل الإذن منه للمؤمنين في قتل المشركين وقتالهم حتى يسلموا أو يفيئوا عن جهلهم وضلالهم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه للمؤمنين: ؟فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إذا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا؟[محمد:4]، ويقول: ؟قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً؟[التوبة:123]، ويقول سبحانه: ؟فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ؟[التوبة:5]، ففي كل ذلك يأمر المهتدين بقتال الضالين المضلين وبقتل المحادين المشركين. فهل سمع الحسن بن محمد بشيء من كتاب الله سبحانه وأمره وإذنه للمؤمنين؟ وزجره أمراً منه للكافرين بقتال المؤمنين أو حضاً لهم على المسلمين؟ بل في كل كتابه يأمر بقتال الكافرين ويحض على محاربة الفاسقين، ومن ذلك قوله: ؟قَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً؟[التوبة:36]، وقال ترغيباً في قتال الناكثين، (وتفضيلاً للمؤمنين المجاهدين على جميع العالمين): ؟إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ

(483/1)

لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ؟[التوبة:111]، فدل بما جعل لهم من الجزاء، وأعد لهم على ذلك من كريم العطاء أن ذلك من فعلهم له رضى.

ثم قال فيمن تعدى على المؤمنين، وخالف فيهم حكم رب العالمين: ؟إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ؟[البروج:10]، فأخبر أنهم على ذلك عنده معذبون، فدل ذلك من فعل العدل الرحيم على أنهم كانوا له مخالفين، وفي تعديهم وقتلهم له عاصين، وعلى فعلهم لا فعله أوجب عليهم العذاب، ولو كان أذن لهم في ذلك لأجزل لهم عليه الثواب، فسبحان الرؤوف الجواد، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن الإذن بالفساد.

فليعلم من سمع قولنا من العالم أن الإذن من الله على معنيين:

فأما أحدهما: فإذن أمر وإرادة وحكم ومشيئة، وذلك قوله سبحانه: ؟وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ؟[إبراهيم:7]، فهذا معناه معنى حكم بالزيادة للشاكرين، وبالعذاب للكافرين، وكذلك قوله: ؟أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإن اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ؟[الحج:39].

(484/1)

وأما المعنى الآخر: فإذن تخلية وإمهال للعصاة فيما يكون منهم من العصيان، فعلى ذلك يخرج معنى قول الله سبحانه: ؟وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ؟ يعني تعالى بتخلية الله لهم، وكذلك قال سبحانه في هاروت وماروت، ومن يتعلم منهما: ؟وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللّهِ؟[البقرة:102]، يريد سبحانه بتخلية الله لهم لإثبات الحجة عليهم، إذ قد مكنهم من العمل والفعل، ثم أمرهم بتقواهم وبصرهم عنهم وهداهم، وعن تعليم السحر وتعلمه نهاهم، فإن ائتمروا، وتعليم السحر وتعلمه تركوا، أنيلوا الثواب، وإن أبوا، وما نهوا عنه تخيروا، أوجب عليهم بفعلهم العقاب، وحرموا بذلك من الله الثواب.

تم جواب مسألته

(485/1)

المسألة الثامنة عشرة: تزيين الله لعباده

ثم أتبع ذلك المسألة عن التزيين، فقال: خبرونا عن التزيين بالإرادة دون الأمر، فإن أنكروا أن الله يزين لعباده دون أن يكون أمراً منه، فقد رد الله عليهم قولهم، فقال في الأنعام: ؟وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ؟[الأنعام:108]، وقال في آخر السجدة: ؟وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ؟[فصلت:25]، وقال في النمل: ؟إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ؟[النمل:4]، هذا كله تزيين إرادة؟ أو ليس إرادة ؟

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه وقال، وتوهم من زور المحال، من أن الله تباركت أسماؤه، وعزت بكريم ولايته أولياؤه، زين للكافرين أعمالهم تزييناً، وحسنها في قلوبهم تحسيناً، وأنه أراد بذلك منهم إقامتهم فيها، ومثابرتهم عليها، جل الله عن ذلك وتقدس عن أن يكون كذلك، واحتج في مقاله، وفيما ارتكب من ضلاله بقول الله سبحانه: ؟وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ؟، فصدق الله تبارك وتعالى فيما قال، وتقدس ذو الجبروت والجلال.

(486/1)

فأما قوله تبارك وتعالى: ؟وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ؟، فإن هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام المخزومي لعنه الله؛ وذلك أنه لقي أبا طالب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا أبا طالب إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويقع في أدياننا. واللات والعزى لئن لم يكف عن شتمه آلهتنا لنشتمن إلهه. فأنزل الله في ذلك ما ذكر في أول هذه الآية، تأديباً للمؤمنين، فأمرهم بالكف عن شتم أصنام المشركين لكيلا يجترئوا بغير علم على شتم رب العالمين.

(487/1)

وأما ما احتج به الحسن بن محمد في الآيات المنزلات آية النمل، وآية الأنعام، وآية حم السجدة، وما ذكر فيهن ذو الجلال والإكرام من قوله: ؟زَيَّنَّا؟، و؟قَيَّضْنَا؟، فإن ذلك من الله هو الإمهال، وترك المغافصة لهم بقطع الآجال، وما كان في ذلك منه لأهل الجهل من التبري منهم والخذل منه سبحانه لمن عشا عن ذكر ربه منهم. فلما أن أُمهلوا، وعلى ما هم عليه من الشرك والكفر تُركوا، وبالعقوبات لم يُعاجلوا، وأملى لهم ليرجعوا، فتمادوا، ولم ينيبوا، ورأوا من إمهال الله وتأخيره لهم، وصرف ما عاجل به غيرهم من القرون الماضية والأمم الخالية من ثمود وعاد وفرعون ذي الأوتاد، وقوم نوح، وقوم لوط، وأصحاب الرس، والأيكة، وقوم تبع، والمؤتفكة، وغير ذلك من القرون المهلكة؛ فزادهم تأخير ذلك عنهم – اجتراء وتكذيباً، ومجانة وافتراء وترتيباً بصرف ذلك عنهم – ما هم عليه من أعمالهم وفاحش قولهم وأفعالهم. فكان إملاء الله لهم، وتركهم ليرجعوا أو لتثبت الحجة عليهم، وتنقطع المعذرة إليهم، هو الذي أطعمهم وزين عملهم لهم فجاز أن يقول: ؟زَيَّنَّا لَهُمْ؟، إذ قد تفضلنا وأمهلنا وأحسنا في التأني بكم ورحمنا، وكذلك تقول العرب لعبيدها، يقول الرجل لمملوكه إذا تركه من العقوبة على ذنب من بعد ذنب، وتأنى به وعفا عنه وصفح ليرجع ويصلح فتمادى في العصيان، ولم يشكر من سيده الإحسان، فيقول له سيده: أنا زينت لك وأطمعتك فيما أنت فيه إذ تركتك وتأنيت بك، ولم آخذك ولم أعاجلك. فهذا على مجاز الكلام المعروف عند أهل الفصاحة والتمام.

(488/1)

وأما الآية التي في حم السجدة، فكذلك، الله أوجد القرناء وخلقهم، ولم يجمع بينهم وبين من أطاعهم، ولم يأمرهم بطاعتهم، ولا اتباعهم، بل حضهم على مخالفتهم، وأخبر بعداوتهم، ونهاهم عن اتباع الهوى، فقال: ؟وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا؟[الكهف:28]، ؟وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ؟[القلم:10]، وقال فيمن يأمر ويوسوس بالسوء

من الشياطين: ؟إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا؟[فاطر:6]، فبين كل ما افترض وأمر به، فلم يترك لذي علة قِبَلَهُ متعلقاً، فكان تقييضه لهم ما ذكر من القرناء هو تخليته لهم وتبرئه منهم، وترك الدفع لنوازل الأسواء عنهم، وذلك فيما تقدم عنهم من الكفر بربهم والشرك بخالقهم.

تم جواب مسألته

وبتمامها تم الجزء الأول؛ والحمد لله كثيراً، وصلواته على خير خلقه محمد النبي وآله الطيبين وسلامه، (وحسبنا الله وحده وكفى). ويتلوه الجزء الثاني من مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية، في تثبيت الجبر والتشبيه، ورد الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام في نفي ذلك عن الله سبحانه، وإثبات العدل والتوحيد، وتصديق الوعد والوعيد.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين)

(489/1)

المسألة التاسعة عشرة: الفرق بين الجعل التشريعي والجعل التكويني

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: ؟وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ؟... إلى آخر الآية، فقال: أخبرونا عن الجعل بالإرادة دون الأمر؛ فإن أنكروا، فأخبرهم أن الله يقول: ؟وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إنا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وإن تَدْعُهُمْ إلى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إذا أَبَدًا؟[الكهف:57]، وقال سبحانه: ؟عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ؟[الممتحنة]، وفي آيات كثيرة من الكتاب، فيقال لهم: ما ذلك الذي جعل الله، وهو كائن كما جعل؟ فإن قالوا: إنما ذلك الدعاء. فقلنا: إن الدعاء قبل ذلك، فقد دعا العباد جميعاً، وهذا شيء قد خص به من يشاء من خلقه، ولم يعمهم؛ لأنه إنما يهتدي من جعل الله في قلبه الهدى ولم يعمهم بالهدى. فإن قالوا: قد نعلم أن الله قد جعل الناس كلهم مهتدين، ولا نقول إن الله قد جعلهم كفاراً. فقل: إن الله يرد عليكم قولكم في كتابه، فإنه قد قال: ؟قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ؟[المائدة:60]، ألا ترى أن الله قد جعل منهم القردة والخنازير؟ فإن زعموا أن الله إنما سماهم بذلك ونسبهم إليه، وإن أقروا أن الله جعلهم عبدة الطاغوت؛ فذلك نقض قولهم. وإن قالوا: إن الله لم يجعلهم عبدة الطاغوت؛ كان ذلك تكذيباً منهم، فقل: فإن الله قد قال أيضاً:

(490/1)

؟وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إلا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ؟[الأنعام:123]، ألا يرون أن الله يخبر أنه قد جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها؟ فإن قالوا: إنه لم يجعلهم فيها ليمكروا فيها؛ كان ذلك تكذيباً منهم، وإن أقروا كان ذلك نقضاً لقولهم.

وقد قال الله لقوم فرعون: ؟وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إلى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ؟[القصص:41]، فإن قالوا: نعم؛ كان ذلك نقضاً لقولهم، وإن قالوا: لا؛ فقد كذبوا، والله يقول: ؟وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إلى حِينٍ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ؟[النحل:80-81]، ألا ترى أن الناس هم غزلوا ونسجوا، وعملوا الدروع واتخذوا المساكن والبيوت، ثم نسب ذلك منه وإليه، وأخبر أنه خلقه، فمنَّ به عليهم، وذلك أنه أراده، فكان ما أراده ولم يأمر به.

تمت مسألته

[جوابها:]

(491/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل: ؟إنا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وإن تَدْعُهُمْ إلى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إذا أَبَدًا؟، فتوهم وظن، فقال: إن الله جعل على قلوبهم أكنة حتى لا يفقهوه، وفي آذانهم وقراً، وأن ذلك من الله فعل بهم ليشقيهم؛ وليس ذلك - لعمره - كذلك، ولو كان الله عز وجل الذي حجب قلوبهم وآذانهم عن ذلك لم يبعث الرسل إليهم، ولم يحتج ببرهانه عليهم، وكانوا عنده في تركهم لذلك معذورين، وكانوا على ذلك مثابين، إذ هم لما أرسل إليهم به غير مستطيعين، وقد قال الله سبحانه: ؟لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا؟[البقرة:233]، وقال: ؟لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا مَا آتَاهَا؟[الطلاق:7]، فكيف يكلفهم الائتمار وقد حجب قلوبهم عن الاعتبار؟ فتبارك الله العزيز الجبار.

(492/1)

بل معنى قوله جل جلاله ذلك: هو إنكار لقولهم الذي قالوا حين دعاهم الرسول إلى الحق وبين ما هم عليه من الباطل والفسق، فقالوا له استهزاء وعبثاً: ؟قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ؟[فصلت:5]، فقال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم يحكي قولهم، ويرد كذبهم عليهم، فقال: ؟إنا جَعَلْنَا؟، يريد سبحانه: إنا جعلنا على قلوبهم أكنة كما قالوا، وفي آذانهم وقراً كما ذكروا، بل الزور في ذلك قالوا، وبالباطل تكلموا؛ فأراد بذلك معنى الإنكار عليهم والتكذيب لهم والتقريع بكذبهم، وتوقيف نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على باطل قولهم، وجليل ما أتوا به من محالهم، فقال: ؟إنا؟، وهو يريد: أئنا؛ فطرح الألف استخفافاً لها. والقرآن فعربي – إلى النور والحق يهدي – والعرب تطرح الألف من كلامها وهي تريدها، فيخرج لفظ الكلام إخبار ونفي، وهو تقريع وإيجاب واستفهام؛ وتثبتها وهي لا تريدها، فيخرج لفظ الكلام لفظ شك، ومعناه معنى خبر وإيجاب في كل ما جاءت به من الأسباب. من ذلك قول الله سبحانه: ؟لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ؟[البلد:1،2]، فقال: ؟لا أُقْسِمُ؟، وإنما أراد: ألا أقسم؛ فطرح الألف منها، فخرج لفظها لفظ نفي، وهي قسم وإيجاب. وقال في عبده ونبيه يونس صلى الله عليه: ؟وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ؟[الصافات:147]، فقال: أو يزيدون؛ فأثبت الألف وهو لا يريدها، فخرج لفظ الكلام لفظ شك، ومعناه معنى إيجاب وخبر، أراد سبحانه: وأرسلناه إلى مائة ألف، ويزيدون على مائة ألف.

(493/1)

فأراد بقوله: ؟إنا جَعَلْنَا؟ التقريع لهم، والتوقيف لنبيه على كذبهم، لا ما يقول الجاهلون إنه أخبر عن فعله بهم. ألا ترى كيف يدل آخر الآية على أولها، من قوله: ؟وإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إذا أَبَدًا؟، يقول: فإن كان الأمر على ما يقولون وكنا قد فعلنا بهم ما قد يذكرون فَلِمَ أرسلناك تدعوهم إلى الهدى (وتزحزحهم عن الردى، وهم لو كانوا كذلك، وكنا فعلنا بهم شيئاً من ذلك، ثم دعوتهم إلى الهداية) لم يطيقوا أن يهتدوا إذا أبداً. ألا تسمع قوله: ؟وإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إذا أَبَدًا؟ فقال: ؟إذا؟ يريد: إن كان ما يقولون علينا مما ذكروا أنه على أبصارهم وأسماعهم وقلوبهم فعلاً منا بهم، فلن يهتدوا إذا أبداً إن كنا منعناهم بذلك عن الاهتداء، فكيف نرسلك إلى من لا يستطيع أن يهتدي، ولا يفلح ولا يقتدي؟ فهذا ما لا نفعله بك ولا بهم، ولا نجيزه فيك ولا فيهم، ولا نراه حسناً من فاعل لو فعله من البشر.

وقد يمكن أن يكون الجعل من الله عز وجل للأكنة والوقر الذي ذكر هو الخذلان لهم وتركهم من التوفيق والتسديد، فلما تركوا من عون الله وتسديده تكمهوا وغووا وهلكوا، ومالت قلوبهم في أكنة الهوى، فأعقبهم ذلك شقاء ووقراً، فالوقر هاهنا هو ترك الاستماع للحق وما يركبون من الفسق.

وأما ما قال وعنه سأل من قول الله عز وجل: ؟عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ؟، فتوهم أن الله جعل فيهم مودة قسرهم عليها، وأدخلهم جبراً فيها، وليس ذلك بحمدالله كذلك. وتفسير هذه الآية فهو يخرج على معنيين، وكلاهما شافٍ، ومن التطويل كاف:

(494/1)

فأولهما: ما جعل الله للمؤمنين من الإذن وأطلق لهم من البر والإقساط والإحسان إلى من كان على غير الإيمان من المشركين، الذين لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا على إخراجهم، فقال: ؟عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً؟، ثم قال: ؟لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ؟[الممتحنة:8]، فكان ما أطلق لهم من البر والإقساط أول الرحمة منه لهم، وجَعْل المودة بينهم؛ إذ قد أطلق لهم من الفعل ما يجلب المودة ويزرع المحبة، من اللطف والبر، في العلانية والسر. فلما أن تباروا وتنافعوا، جرت المحبة والمودة للمؤمنين في قلوب الكافرين لما ينفعونهم به ويحسنون إليهم فيه، فكان الإذن من الله عز وجل للمؤمنين بما يجتلب المودة في الإقساط إلى الكافرين أفضل المنة منه على المحسنين.

(495/1)

وقد تكون تلك المودة هي ما في الإيمان من البركة واليمن، وما جعل الله بين المؤمنين من المحبة وافترض عليهم من التواد على الدين وحكم به من الإخوة بين المؤمنين حيث يقول: ؟إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ؟[الحجرات:10]، فكان كل من دخل فيما أمر بالدخول فيه من الإيمان إذا دخل وإلى الله سبحانه أقبل سدده الله سبحانه ووفقه وحببه إليه من بعد إقباله إليه، وبغض إليه الكفر كما قال الرحمن: ؟وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ؟[الحجرات:7]، فكان كل من دخل في الإسلام من جميع الأنام أخرجته بركة الإيمان من الحق والدغل والحسد حتى يعود إلى المؤاخاة على الحق، والقول في ذلك على الله بالصدق، فهذا ما لا ينكره ذو عقل وتمييز. ألا تسمع كيف حكى الله عز وجل لك عنهم، وذكر لك قولهم، حين كانوا يدخلون في الدين، ويتابعون المسلمين على اليقين، حين يقول: ؟وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ

يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمان وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ؟[الحشر:10]، فلما أن دخلوا في الإيمان صاروا عليه وفيه نعم الإخوان، متحابين متواصلين متواخين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فكانوا كما قال الله جل جلاله: ؟الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ؟[الحج:41].

(496/1)

وأما ما نسب الحسن بن محمد إلى الله جل ثناؤه من فاحش المقال، فزعم أن الله جعل عبَدَة الطاغوت للطاغوت عابدين، وفيما أسخطه من ذلك أدخلهم مجبورين، واحتج بما لم يعلم معناه من تفسير القرآن ومنزل الفرقان الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، فقال: قال الله في ذلك: ؟قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ؟، فقال الحسن بن محمد: الا ترى أنه قد جعل منهم القردة والخنازير ومن يعبد الطاغوت؟ وقال: إن أنكروا أن الله جعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، فقد كذبوا الله؛ وإن أقروا، فقد رجعوا عن قولهم. ولِمَ يا ويحه وويله إن لم يتب من الله وغوله؟ ألا تسمع كيف فرق الله عز وجل بين فعله وفعل عبيده؟ ألا ترى أن مسخه لمن مسخ لم يكن لهم فيه فعل بل نزل بهم وهم له كارهون، وحل بهم وهم عليه مكرهون، وأن عبادة الطاغوت كانت منهم، وأنها بلا شك مقالتهم؟ فبين ما دخلوا فيه طائعين وله متخيرين، وبين ما فعل بهم مجبورين وبه معاقبين فرق عند ذي العلم من أهل المعرفة والحكم.

فنقول في ذلك: إن الله لم يأخذهم ولم يجعل منهم ما جعل من القردة والخنازير، ومسخ منهم من مسخ من المذنبين إلا بعد الإعذار والإنذار مراراً بعد مرار، فلما أبوا وعموا عن أمره سبحانه، وخالفوا أخذوا بذنوبهم، فلم يجدوا من دون الله ولياً ولا نصيراً.

(497/1)

وأما قوله: ؟وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ؟، فإن ذلك مردود على أول الآية، وهو مُقدَّم في المعنى، وكثير مثل ذلك على ما يكون على التقديم والتأخير، يعلمه من عباده العالم الخبير، فمعناه: أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وعبد الطاغوت، وجعل منهم القردة والخنازير؛ أراد أن من عبد الطاغوت فهو شر من ذلك، فهذا موضع ما ظن من ؟عَبَدَ الطَّاغُوتَ؟، ألا ترى كيف أهلك من

كان كذلك؟ ومن اجترأ من الخلق كاجتراء أولئك.

وكذلك قولنا فيما توهم وذهب إليه، فأهلك وهلك، ولله الحمد فيه، فقال: إن الله جعل في المجرمين ذلك وابتلاهم به وحملهم عليه؛ ثم احتج في ذلك من قول الله عز وجل – بما عليه لا له – فقال: قد قال الله فيما قلنا وبه تكلمنا: ؟وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ؟، فقال: ألا ترون أن الله قد جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، فقد جعلهم مكارين، وقضى به عليهم، وركبه فيهم.

(498/1)

فقولنا في ذلك: أنَّ جَعْلَ الله لهم هو خلقه لهم، وتصويرهم في كل قرية كما صور غيرهم. وأما قوله: ؟لِيَمْكُرُواْ؟، فإنما أراد الله سبحانه: لأنْ لا يمكروا؛ فطرح (لا) وهو يريدها استخفافاً لها، والقرآن فبلسان العرب نزل، وهذا تفعله العرب تطرح (لا) وهي تريدها، وتأتي بها وهي لا تريدها، فيخرج اللفظ بخلاف المعنى؛ يخرج اللفظ لفظ نفي وهو إيجاب، ويخرج لفظ إيجاب وهو معنى نفي، قال الله عز وجل: ؟لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؟[الحديد:29]، فقال: ؟لِئَلاَّ؟، فخرج لفظها لفظ نفي ومعناها معنى إيجاب، فأتى بـ(لا) وهو لا يريدها، وإنما معناها: ليعلم أهل الكتاب. وقال: ؟إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ؟[آل عمران: 178]، فخرج اللفظ لفظ إيجاب ومعناها نفي، يريد سبحانه: لئلا يزدادوا إثماً.

وقال الشاعر:

ما زال ذو الخيرات لا يقول .... ويصدق القول ولا يحول

فقال: لا يقول؛ وإنما يريد: يقول؛ فأدخلها وهو لا يريدها، ووصل بها كلامه ليتم له بيته استخفافاً لها. وقال آخر:

بيوم جدود لا فضحتم أباكم .... وسالمتموا والخيل يدمى شكيمها

فقال: لا فضحتم أباكم؛ وإنما يريد: فضحتم؛ فأدخلها وهو لا يريدها. وقال آخر:

نزلتم منزل الأضياف منا .... فعجلنا القِرَى أن تشتمونا

فقال: أن تشتمونا؛ فخرج لفظها لفظ إيجاب في قوله: أن تشتمونا؛ ومعناها معنى نفي، أراد: لأن لا تشتمونا.

(499/1)

وأما ما قال وذكر، واحتج به مما لا يعرفه وسطر، فقال: قال الله في قوم فرعون: ؟وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إلى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ؟، وادعى على الله سبحانه أنه جعل من كان كذلك منهم كافراً، ومن كان منهم كافراً فاجراً، وأنه طبعهم على ذلك، وفيه ركبهم وخلقهم، وليس ذلك والحمد لله على ما ذكر، ولا على ما قال وخبر، وهذا يخرج من الله على معنيين عدلين محققين:

أحدهما: أن يكون جَعْله لهم هو ما أوجده منهم وخلقه من أجسامهم، لا ما ذهب إليه من فعل أفعالهم.

والمعنى الآخر: أن يكون ذو الجلال والإكرام حكم عليهم بما يكون منهم من أعمالهم ودعائهم إلى خلاف طاعته من الكفر به والصد عن سبيله، وما كانوا يفعلون ويجترئون به على الله، فكانت حال من يطيعهم على كفرهم ويشركهم في فعلهم، ويدعوهم إلى غيهم عند الله كحالهم. فلما أن دعوا إلى ما يقرب إلى النار مما كان يفعله الفجار، كانوا أئمة يدعون إلى الجحيم، فحكم عليهم بفعلهم العليم، ودعاهم وسماهم به الرحمن الرحيم، فكان دعاؤه إياهم بذلك من فعلهم، وتسمية لهم بما دعوا إليه إخوانهم من النار، جعلاً في مجاز كلام العرب، كما يجوز أن يقال لمن قال لصاحبه يا حمار: جعلته ويحك حماراً؛ وإنما يراد بذلك تسميته لا خلقه، وكذلك إذا دعاه بالضلال، قيل: جعلته ضالاً، إذ قد سميته به.

(500/1)

فأما ما قال وتوهم أنه إذا خرج في اللفظ شيء كان كذلك في المعنى، فقال: وقد قال الله سبحانه: ؟وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إلى حِينٍ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ؟، فتوهم الحسن بن محمد على الله تبارك وتعالى أنه الفاعل لكل ذلك، وليس ذلك والحمد لله كذلك، وسنفسره إن شاء الله ونبينه وبالحق نميزه. فنقول: إن معنى قوله جل جلاله: ؟جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا؟ هو كما قال سبحانه: هو الذي خلق الخشب والحجر والماء والمدر، هو دلَّهم على ذلك، وهم بنوا وعملوا المساكن وكل ما صنعوه من الأماكن؛ وهو جعل وخلق الأنعام وجلودها، وهم عملوها بيوتاً. ولو لم يخلق الجلود لم يقدروا على عمل ما ذكر من البيوت؛ وكذلك لو لم يخلق الحجر والخشب والمدر لم يبنوا بيوتاً يسكنونها ولا دوراً يأوونها. وكذلك السرابيل التي تقي الحر وقت الحر، وتقي القر وقت القر، وكذلك السرابيل اللباس التي تقي وتحرس من البأس، فالله عز وجل أوجد حديدها ودلَّهم على عملها، وهم يتولون فعلها وسردها وتأليفها ونسجها.

(501/1)

وأما ما ذكر من قول الله جل ثناؤه: ؟وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا؟، فكذلك فعل عز وجل، فهو المتولي لذلك، لم يفعله غيره، وهو جاعله، فجعل من الأكنان وقاء أوفى من البنيان؛ وجعل من الظلال لما خلق من الأشجار وغيرها من الجبال ما تبين فيه القدرة والمنة لذي الجلال. فما كان من فعل العباد فخلاف أفعال ذي المنة والأياد؛ وما كان من فعل الرحمن فخلاف فعل الإنسان، لا كما يقول المتكمهون الجهال: الله سبحانه والعبيد سواء في الأفعال، كذب المبطلون.

تم جواب مسألته

(502/1)

المسألة العشرون: معنى إغراء الله تعالى بين خلقه في قوله تعالى: ؟فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ؟

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة، فقال: خبرونا عن الإغراء بالإرادة دون الأمر، فإن الله يقول: ؟وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إنا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟[المائدة:14]، فسلهم: هل كان هؤلاء يستطيعون أن يخرجوا مما صنع الله بهم، وأن يتركوا العداوة بينهم؟ فإن قالوا: نعم، كذبوا كتاب الله؛ وإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

(503/1)

وأما ما سأل عنه من الإغراء بالإرادة دون الأمر، فزعم أن الله جل ثناؤه يأمر بما لا يريد، ويريد من الأشياء ما لا يشاء كينونته، فأخطأ في قوله وأمره، ونسب الجهالة في ذلك إلى ربه، ورضي فيه بما لا يرضاه في نفسه، ولا يراه حسناً من أمته وعبده، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ألا ترى أن الآمر بما لا يشاء من أجهل الجاهلين؟ وعن الحكمة من أبعد المبعدين؟ فكيف اجترأ الحسن بن محمد على رب العالمين، فنسب إليه أشد ما يعاب به المربوبون؟ ثم احتج في قوله، وسطر أفحش القول في ربه، فقال: قال الله: ؟وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إنا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا

بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟، فقال: إن الله تبارك وتعالى أغرى بينهم ولم يرد الإغراء، ولم يأمر بالإغراء، وأدخلهم من ذلك فيما لم يشأ. وليس ذلك كما قال، وأول الآية يدل على عدل الله في ذلك حين أخبر بما كان منهم، وذكر من الترك والرفض لما أمروا بأخذه، والأخذ لما أمروا بتركه، فلما أن فعلوا من ذلك ما عنه نهوا، استأهلوا من الله سبحانه الترك والخذلان بما كان منهم لله من العصيان، فترَكهم من الرشد والتوفيق فضلّوا، وعن الخير والصلاح في كل أمرهم عموا، والبر والتواصل تركوا، فغَرِيت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ونشأ على ذلك خلف من بعد خلف، فكان ذلك لسبب خذلان الله لهم وسخطه عليهم لذلك، فلما كان ذلك كذلك جاز أن يقال: إن الله أغرى بينهم العداوة، وبكل ضلال قالوا، فنسب المسيح منهم قوم إلى أنه رب، ونسبه قوم آخرون إلى أنه ابن للرب، وقال آخرون بما قال في نفسه إنه عبد الله حين أخبر عنه بقوله حين أشارت إليه أمه، قال الله جل ثناؤه: ؟فَأَشَارَتْ إليه قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي

(504/1)

نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا؟[مريم:29]، فلما أن اختلفوا وعلى الحق لم يأتلفوا، كفر بعضهم بعضاً، وبريء فاسق من منافق، ومنافق من فاسق، وخذلهم الله فيه، ولعنهم سبحانه عليه، غريت بينهم العداوة إلى يوم القيامة، فلما كان عز وجل الذي خذلهم فضلوا، وتركهم فهلكوا، قال: ؟فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟، وهذا ولله الحمد في اللسان معروف.

تم جواب مسألته

(505/1)

المسألة الحادية والعشرون: معنى قول الله تعالى: ؟وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...؟

ثم أتبع ذلك المسألة، فقال: خبرونا عن قول الله: ؟وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ؟[الفتح:24]، وذلك يوم الحديبية؛ فسلهم: هل كان واحد من الفريقين يستطيع أن يبسط يده إلى أخيه، والله عز وجل يخبر أنه قد كف بعضهم عن بعض بإرادة لا بأمر؟ فإن قالوا: نعم، قد كانوا يستطيعون أن يقاتل بعضهم بعضاً؛ كذبوا كتاب الله عز وجل. وإن قالوا: لا؛ فهذا نقض لقولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

(506/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ؟، فقال: هل كان يستطيع أحد أن يمد يده إلى عدوه، وقد كف الله سبحانه أيدي حزبه من رسوله والمؤمنين عن حزب الشيطان الفاسقين، وأذن لرسوله وأطلق له مهادنة قريش، ومن معهم من المشركين نظراً منه سبحانه للمؤمنين، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لما أن طلبته قريش منه، ولو لم يأذن الله له عز وجل في ذلك لم يفعله، ولم يك ليرجع يوم الحديبية حتى يقاتلهم، وعلى الحق وبالحق ينازلهم، ولقد أراد ذلك صلى الله عليه وآله وسلم، وبايع أصحابه على الموت فيه بيعة ثانية، وهي البيعة التي ذكر الله عن المؤمنين ورضي بها عنهم، وأنزل السكينة عليهم وصرف القتال وكف أيدي الكل من الرجال بما أطلق لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم من إجابته لهم إلى ما طلبوا من المهادنة في ذلك العام، والرجوع عنهم، والدخول في السنة المقبلة إلى البيت الحرام. فأطلق له الرجوع عنهم والترك لمقاتلتهم لما ذكر سبحانه، فمن كان بمكة ممن كان مكة من المؤمنين والمؤمنات لأنْ لا يطأوهم فيقتلوهم بغير علم فيصيبهم منهم معرة عند الله بالحكم، والمعرة هاهنا فهي الدية لا ما قال غيرنا به فيها من الإثم. وكيف يأثم من بر وكرم وقاتل على الحق – كما ذكر الله عز وجل – من خالفه من الخلق فقتل مؤمناً بغير علم ولا تعمد؟ وهو فإنما قتله وهو يحسبه كافراً، ويظنه في دين الله فاجراً؟ فهو والحمد لله في ذلك غير آثم ولا متعمد في فعله ولا ظالم، ولكنه مخطئ فعليه ما على مثله، وهو ما ذكر الله في قوله حين يقول: ؟وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ؟[النساء:92]، وإنما جعل عليه العتق والدية تعظيماً لقتل المؤمن وتشديداً على المؤمنين في التثبت والتبين عن قتال

(507/1)

الكافرين، كما قال سبحانه: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ؟[الحجرات:6].

وأما معنى قوله سبحانه: ؟مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ؟، فهو الحكم لهم من الله عز وجل بالنصر إذ نصروه. ومن ذلك ما قال ذو العز والجلال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ

أَقْدَامَكُمْ؟[محمد:7]، ولا نصر يكون أكبر من نصره لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن معه من المؤمنين، فحكم الله سبحانه لهم على أعدائه بالنصر إذا التقوا، وبالغلبة إن احتربوا، ألا تسمع كيف يقول: ؟وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً؟[الفتح:23]، يقول: حكم الله للمؤمنين بالنصر على الفاسقين، ولن تجد لما حكم به رب العالمين للمؤمنين تبديلاً، فهذا معنى الآية وتفسيرها لا كما قال من نسب إلى الله جل ثناؤه فاحش المقال من جبر العباد على الخير، وإدخالهم قسراً في كل شر وضير.

تم جواب مسألته

(508/1)

المسألة الثانية والعشرون: عن ما وعد الله تعالى من الغنائم

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عما وعد الله جل ثناؤه رسوله والمؤمنين من الغنائم الكثيرة التي قال: ؟تَأْخُذُونَهَا؟، هل كانت تلك الغنائم التي وعدهم إياها تكون إلا من الكافرين؟ فإن قالوا: لا.

فقل: فهل كان أولئك الكافرون يستطيعون أن يؤمنوا حتى لا تحل غنائمهم ولا دماؤهم ولا أموالهم؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا قول الله عز وجل. وإن قالوا: لا؛ فذلك نقض لقولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه، وفيه تكلم وقال في الغنائم التي وعدها الله المؤمنين، وأخبرهم أنهم يأخذونها من الكافرين، فقال الحسن بن محمد في ذلك: هل كان الكافرون يستطيعون الإيمان وهم لو آمنوا لم تحل غنائمهم؟ وهم لو لم تؤخذ غنائمهم (لم يتم) وعد الله لنبيه، فلا بد أن يثبتوا على كفرهم جبراً حتى تؤخذ منهم الغنائم قسراً.

فقولنا في ذلك الحق لا قول المبطل الهالك: إن الله سبحانه علم من أهل الغنائم قبل أن يَعِد نبيه غنائمهم أنهم لا يؤمنون، وأنهم سيثبتون على الكفر ويقاتلون، وأنهم لا يسمعون لله ورسوله ولا يطيعون، فوعده غنائمهم والنصر عليهم إذ علم أنهم لا يختارون الإيمان ولا يطيعون الرحمن، وأنهم يختارون الإقامة على الضلال والكفران، (والمحادة لله ورسوله والعصيان، فلذلك وعد المؤمنين غنائمهم، وأجاز لهم) سبيهم، وأحل مقاتلتهم واسترقاق ذراريهم، وذلك بما جنت أنفسهم عليهم.

تم جواب مسألته

(509/1)

المسألة الثالثة والعشرون: معنى قول الله تعالى: ؟فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله عز وجل: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ؟[المائدة:11]، وذلك أن ناساً من اليهود كانوا أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونفر معه من أصحابه، فأخبر الله عز وجل رسوله وكف أيديهم عنه وعن أصحابه، فسلهم: هل كانوا يستطيعون أن يبسطوا أيديهم عليهم، وقد كفها الله عنهم؟ أم لا؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا قول الله جل ثناؤه. وإن قالوا: لا؛ فذلك نقض لقولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه (مما تحير فيه) من قول الله عز وجل: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ؟، فتوهم الحسن بن محمد أن الله عز وجل كف أيديهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعن أصحابه المؤمنين غصباً، حتى لم يكن لهم في ذلك حيلة، ولم يبسط أيديهم بالسواية إليه، وأنه قبضها عنهم قبضاً، ومنعهم منعاً، وليس ذلك كما توهم ولا هو على ما به تكلم، وسنشرح ذلك إن شاء الله ونقول فيه بالحق على الله.

(510/1)

فنقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان خرج إلى يهود بني النضير في نفر من أصحابه – وكان بنو النضير ينزلون قريباً من المدينة – ليستعينهم في ديتين وقعتا خطأ على بعض المسلمين. فلما أن أتاهم رحبوا به وأدنوه، وكل ما طلب منهم وعدوه، ثم تآمروا به وبأصحابه، وعزموا على الغدر به وبمن معه من أعوانه، فأهبط الله عز وجل بذلك جبريل صلى الله عليه وعلى رسوله فأخبره به وأوقفه عليه، فنهض صلى الله عليه وآله وسلم مسرعاً هو ومن معه حتى رجعوا، ثم هيئوا وخرجوا إليهم يقاتلونهم، وأقاموا عشرين ليلة يحصرونهم في حصونهم، ثم نزلوا من بعد ذلك على حكم سعد بن معاذ، وكان من كبار الأنصار، وذوي القدر منهم والأخطار، وكانوا يتكلمون إليه، ويظنون لما كان بينه وبينهم في الجاهلية من المداناة والإحسان أنه سيحابيهم ويحكم بما ينجيهم كلهم، فحكم بأن تقتل رجالهم وتسبى ذراريهم وحرمهم وفي ذلك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.))، ففعل ذلك بهم، وأخزاهم الله وأهلكهم، وأبادهم وقتلهم، فكان إعلام الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بما اجتمعوا عليه وعزموا وصاروا فيه إليه كفاً لأيديهم ونقضاً لعزيمتهم وإبطالاً لتدبيرهم. فهذا معنى ما تحير فيه الحسن بن محمد من تفسير الآية، لا ما قال به على الله عز وجل من البهتان، وما حمل من محكم القرآن على

متشابه القرآن.

تم جواب مسألته

(511/1)

المسألة الرابعة والعشرون: معنى قوله تعالى: ؟وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله عز وجل لعيسى بن مريم، وهو يذكر نعمة الله عليه، فقال: ؟وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ؟[المائدة:110]، فهل كان لبني إسرائيل أن يبسطوا أيديهم على عيسى عليه السلام؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا قول الله، وإن قالوا: لا، فذلك نقض لقولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل لعيسى بن مريم المسيح العبد الكريم: ؟وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ؟، فقال: هل كانت بنو إسرائيل تقدر على أن تبسط أيديها إليه، وقد كفها الله عنه، وأنعم بذلك عليه؟

(512/1)

فقولنا في ذلك: إن الله لم يكف أيديهم عنه جبراً، ولكنه ألقى في قلوبهم الهيبة له ولمن معه من الحواريين، وأعلم نبيه صلى الله عليه بما يريدون منه وما يريدون فيه، فحذرهم واستعد بمن معه لهم، فخافوهم وحذروهم فلاشى عزيمتهم وأبطل في ذلك إرادتهم، ومنَّ على نبيه صلى الله عليه بما ألقى له ولِلْحقِّ في قلوبهم من الهيبة والمخافة، فرجعوا خائبين، ومما أرادوا مؤيسين، وأعز الله سبحانه المؤمنين، وكبت الفاسقين. فهذا إن شاء الله معنى ما ذكر الله من كف أيديهم عن عيسى بن مريم صلى الله عليه بينهم، والمظهر للحق فيهم، والمطلق لهم بعض الذي حرم عليهم، المبرئ لأكمههم وأبرصهم، الشافي لسقيمهم، والمحيي لميتهم، والمنبي لهم عما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، (وتلك فأعظم) آيات ربهم وبراهين خالقهم، فلما عتوا عن أمر خالقهم، قال حين ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم: ؟مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ؟، وأعوانك وأنصارك وخدامك، فآمن معه من بني إسرائيل الحواريون، وكفر سائر الإسرائيليين، فأيد الله المؤمنين فأصبحوا كما قال الله: ؟ظَاهِرِينَ؟، حين يقول عز وجل: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إلى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ؟[الصف:14]، فهذا قولنا في رب العالمين، لا كقول الجاهلين الذين نسبوا إلى الله عز وجل أفعال العباد، وقلدوه ما يكون في ذلك من الفساد، فتعالى الله الواحد الرحمن عن زخرف أقاويل الشيطان، المضاهين لمذاهب عبدة الأوثان، وما حكى فيهم الرحمن من قولهم: ؟لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ؟[النحل:35]...

(513/1)

الآية.

تم جواب مسألته

(514/1)

المسألة الخامسة والعشرون: معنى إلقاء الرعب وقذفه

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: ؟سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا؟[آل عمران:151]، وقال في سورة الحشر: ؟وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ؟[الحشر:2]، وقال: ؟وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا؟[الأحزاب:26]، فأخبرونا عن الرعب الذي قذف الله في قلوب الكافرين، هل كانوا يستطيعون أن يمتنعوا منه، وأن يصرفوه عن قلوبهم؟ فإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. وإن قالوا: نعم، فقد كذبوا كتاب الله، وزعموا أن العباد يمتنعون من الله. وإن قالوا: إنما صنع الله ذلك بهم بكفرهم. فقل: ألستم تعلمون أن الرعب شيء لطيف لا يراه الناس، ولا يردونه، ولا يمتنعون منه حين يدخل في قلوبهم، فيوهن الله بذلك كيدهم، وينقض قولهم؟ فإن قالوا: نعم. فقل: وكذلك أيضاً التوفيق، شيء لطيف لا يراه العباد، يلقيه الله في قلوب المؤمنين، وأمور الله كلها كذلك، من أراد به خيراً وفقه وسدده وأرشده، وكان ذلك عوناً من الله لهم، ومن أراد به سوءاً ثبطه وعوقه وخذله وتركه وهواه، ووكله إلى نفسه؛ فوكله إلى الضعف والهوان، والله غالب على أمره.

تمت مسألته

[جوابها:]

(515/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا؟، فإنا نقول: إن الرعب إنما ألقاه الله جل ثناؤه في قلوبهم نكالاً وانتقاماً منهم على كفرهم وإشراكهم، ألا تسمع كيف فسر آخر الآية أولها، فقال: ؟بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ؟، فكذلك الله سبحانه انتقم منهم بما أشركوا وكفروا وخذلهم وتركهم من التسديد والتوفيق، فهلكوا وتلاشوا؛ وعندوا فضلوا، وهانوا فتفرقوا، إذ وكلهم إلى الضعف من أنفسهم، وإلى حولهم وقُوَّتهم؛ فهانوا ورعبوا من القتال ولقاء المؤمنين في تلك الحال، فكان تركهم لهم بما قدموا من شركهم رعباً داخلاً في قلوبهم مخامراً لصدورهم.

(516/1)

وأما ما ذكر من قول الله سبحانه في بني النضير من اليهود: ؟وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ؟، فكذلك فعل الله بهم، وذلك أنهم كانوا قد هادنوا الرسول عليه السلام، وخضعوا لأهل دعوة الإيمان والإسلام، حتى كان يوم الأحزاب فجاءت قريش ومن تحزب معها من العرب من اليمن ومضر، وأمدهم في ذلك يهود خيبر يقاتلون الرسول والمؤمنين مع أعداء الله الفاسقين، فلما أتى يهود خيبر أرسلوا إلى يهود بني النضير فوعدوهم أن يقاتلوا الرسول من ورائه إذا حميت الحرب بينه وبينهم، فنزلت بنو عامر أُحد من فوق المؤمنين، ونزلت قريش بطن الوادي من أسفل منهم، وكانت اليهود – يهود خيبرر – قِبل المسلمين مما يلي الحرة، وبنو النضير من وراء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك ما يقول الله عز وجل: ؟إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا؟[الأحزاب:10]، فكان فيمن نزل أحد من العرب رجل أشجعي يحب الإيمان ويبغض أهل العدوان، فأفسد بين المشركين طراً، وذلك أنه أتى قريشاً فقال لها: إن العرب قد ظاهرت محمداً عليكم، ووعدته المحاربة معه لكم، وآية ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة، فخذوا حذركم ولا تبدأوه حتى يقاتلوه قبلكم. ثم أتى أصحابه وبني عمه وجماعة العرب، فقال: إن قريشاً قد عاقدت محمداً عليكم، وعلامة ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة قبلكم فاعملوا لأنفسكم ودبروا أموركم، ولا تقاتلوا حتى ترسلوا إليهم فيقاتلوا قبلكم، فإن فعلوا وإلا فاحذروا مكرهم والحقوا وشيكاً

(517/1)

ببلدكم. ثم أتى يهود خيب رر، فقال: إن قريشاً قد عاقدت محمداً عليكم، وآية ذلك أنها لا تبدأه بالمحاربة قبلكم، وأتى قريشاً، فقال لها: إن اليهود قد ظاهرت محمداً عليكم، وآية ذلك أنهم لا يبدأونه بالمنابذة قبلكم. فطرح في قلوب كل لكل بلاءً وحقداً ومخافة وشحناء، فأقام كل ينتظر أن يبدأ بالمحاربة غيره، فلما طال ذلك عليهم وتراسلوا بينهم يسأل كل كلاً أن ينصب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرباً، وكلهم يأمر صاحبه أن يبدأ، فصح لذلك عندهم قول الأشجعي، فتفرقوا، وفسدت قلوب بعضهم على بعض، فرحلت العرب طراً راجعة إلى بلدها، وأرسل الله سبحانه الريح على قريش واليهود، وأمد المؤمنين بالنصر منه، والجنود، فلم يقم لقريش خباء ولا ظل، ولا يستوقد لهم نار إلا أطفأتها الريح وفرقتها (وحرقتهم بها)، فأقاموا ثلاثاً لا يختبزون ولا يصطلون، فاشتد عليهم القر والجوع، ورماهم الله بالذل، فأزمعوا على الرجوع، ورحلوا راجعين وخاسرين خائبين نادمين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا؟[الأحزاب:9]، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقاتل بني النضير، إذ نقضوا عهده، وخالفوا أمره فحاصرهم حتى جهدوا، فقالوا: يا محمد، خلنا نخرج من البلد بما حملت إبلنا التي في الحضرة معنا من متاعنا ونخلي لك الباقي وما لنا من الضياع، وبشرط ألا نخرج بسلاح، ونترك الديار والنخل والقرى. فرضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، فخرجوا بإبلهم عليها جيد متاعهم وتحف أثوابهم، فلما قلعوا التحف تهدمت وجوه البيوت، وذلك تدبير منهم ليخربوها عليهم، فكان أحدهم إذا هدم لحاف بيته بطل البيت، ثم خرجوا على الإبل بالتحف، فذلك قول الله سبحانه: ؟هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ

(518/1)

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ؟، فخرجوا جالين، ولنعمهم تاركين، وذلك قول أصدق الصادقين: ؟وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ؟[الحشر:3]، والتعذيب فهو القتل. فكان الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو ما كان من خذلانه لهم حتى عمي عليهم رشدهم، وفاسدوا إخوانهم، ودخل الفزع عند ذلك من النبي والمؤمنين في قلوبهم، وأيقنوا أنه إذا علم بما كان من مظاهرتهم عليه وصاروا من الغدر به إليه أنه لا يتركهم وأنه

يقاتلهم على فعلهم حتى يظهر الله عز وجل الحق، ويزهق الباطل من الخلق، وهذا معنى إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين لما أرادوا من هلاك المؤمنين. وكذلك كان فعله بأهل خيبر حتى أخذوا وأسروا وقتلوا وسبوا، فهذا قولنا في إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين، لا ما ذهب إليه من خالف المحقين، وعند من قول الصدق في رب العالمين.

تم جواب مسألته

(519/1)

المسألة السادسة والعشرون: معنى قوله تعالى: ؟وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن الذرو بالإرادة، فقال: خبرونا عن الذرو بالإرادة، فإن الله يقول: ؟وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ؟[الأعراف:179]، فسلهم: هل يستطيع هؤلاء أن ينقلبوا عما ذرأهم الله له؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا، وزعموا أنهم يستطيعون أن يبدلوا خلقهم وإرادة الله فيهم. وإن قالوا: لا؛ كان نقضاً لقولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل: ؟وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ؟، فقال: هل يستطيع أحد أن يخرج أو ينتقل مما ذريء له وتوهم، بل قال: إن الله ذو الجلال والإكرام خلق لجهنم قوماً كافرين ذرأهم وأوجدهم ابتداء فاسقين، وخلقهم ضالين مضلين، لا ينفع فيهم دعاء، ولا يقدرون طول الزمان على الاهتداء؛ لما قد خلقوا له من الشقاء، فهم أبداً بفعل الفواحش مولعون، ولعمل الهدى غير مطيقين، وأنهم على ذلك مجبولون، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(520/1)

فنقول في ذلك على الله بالحق، والله الموفق لكل خير وصدق، فنقول: إن معنى الآية خلاف ما ذهب إليه الحسن بن محمد، وإن القول خلاف ما قال به فيه؛ بل معناه على الصدق والمعاد، لعلم الله بما يكون من العباد، فقال: ؟ذَرَأْنَا؟، فأخبر عما سيكون في آخر الأمر ويوم القيامة والحشر من

الذرو الثاني لا الذرو الأول الماضي، فكذلك الله رب العالمين يذرأ لجهنم في يوم الدين جميع من مات على كفره من الكافرين فيعذبهم على فعلهم ويعاقبهم على ما تقدم من كفرهم، كما قال الرحمن الرحيم الرؤوف الكريم: ؟كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ؟[المدثر:42].

فهذا معنى ما ذكر الله من الذرو في الكتاب، لا ما ذهب إليه الحسن بن محمد ذو الشك والارتياب، من أن الله سبحانه خلق للنار خلقاً تعمل بالمعاصي أبداً، لا يقدرون على هدى ولا طاعة في سنة ولا شهر ولا يوم ولا ساعة، وأن الله سبحانه خلق للجنة أصحاباً مجبولين لله على الطاعة في كل الأسباب.

(521/1)

فيا عجباً من قولهم المحال! وكذبهم على الله في المقال! فأين – ويحهم – المعاصي والطغيان ممن عمل بما ألزمه الله في كل شأن؟ بل كلٌ مطيع، وفي مراد الله سريع؟ فإن كان ذلك من الله كذلك، فَلِمَ بعث الأنبياء إليهم يدعونهم؟ وأوجب عليهم طاعتهم؟! وطاعة الأنبياء فهي العمل بطاعة الله، ومعصيتهم فهي المعصية لله، فقال الله سبحانه: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ؟[النساء:59]، وقال: ؟وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ؟[النساء:13]، وقال: ؟وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ؟[الجن:23]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ؟[النسا:1]، وقال: ؟فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ؟[الذاريات:50]، فأين الطاعة ممن جبل على المعصية؟ وأين الفرار ممن منعه منه الجبار؟ وكيف لا يعصى الرسول والرحمن الرحيم مَن قد حيل بينه وبين الإحسان !؟

(522/1)

ومن ذلك قول إبراهيم صلى الله عليه لأبيه: ؟يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا؟[مريم:43،42]، فماذا يقول الكافرون وينسب إلى الله وإلى نبيه الضالون في هذا العلم الذي جاء إبراهيم؟ أتراه أتاه من العلم – إن كان الله قد خلق أباه للنار – أن أباه يقدر أن يخرج إلى غير ما خلقه الله له من النار حتى يصير إلى الجنان؟ أم يقولون إن العلم الذي جاء إبراهيم هو أن أباه – إن كان الله جل ثناؤه خلقه

للشقاء، وحال بينه وبين الهدى – يقدر على مغالبة الرحيم، والخروج مما أعد له من الجحيم، والمصير إلى دار النعيم؟ والله سبحانه لم يخلقه لذلك، بل جبله على غيره ومنعه من رشده؟ أم تقولون في إبراهيم – الأواه الحليم الصديق الكريم – إنه دعا أباه إلى اتباعه وضمن له ما ضمن من إرشاده، ونهاه عن عبادة الشيطان الرجيم، وأمره بطاعة الرحمن الرحيم، وهو يعلم أن الله جل جلاله قد منعه من الخير، وأدخله إدخالاً في الشر والضير؟! فلقد إذا أمره بمغالبة ربه، وهجره واعتزله على غير ذنبه.

(523/1)

ثم يقال لهم: خبرونا، وعما نسألكم عنه أجيبونا: هل بعث الله جل ثناؤه نبيه إلى الخلق طراً – فإنه يقول: ؟وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا؟[سبأ:28] – يدعوهم إلى طاعته وينهاهم عن معصيته، أم بعثه إلى بعض ولم يبعثه إلى بعض؟ فإن قالوا: بعثه إلى الخلق طراً. فقل: فما دعاهم إليه؟ فإن قالوا: إلى الثبات على ما هم عليه من الكفر؛ كفروا. وإن قالوا: دعاهم إلى الإيمان. قيل لهم: فهل يقدرون على ذلك من الشأن؟ وقد جبلوا على قولكم على الكفران؟! فإن قالوا: نعم؛ تركوا قولهم. وإن قالوا: لا؛ جهلوا ربهم ونبيهم، إذ زعموا أن الله سبحانه بعث نبيه يدعو إلى الخير والهدى من لا يقدر على الاهتداء، ومن قد حال الله بينه وبين التقى، وهذا فأفحش أفعال الظلمة الجهال، وما لايجوز في الله ذي الجلال، أن يحول بين عبده وبين طاعته، ثم يرسل إليه ويأمره بمرضاته، وقد أخرجه منها وأدخله في ضدها، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلا.
تم جواب مسألته

(524/1)

المسألة السابعة والعشرون: معنى قوله تعالى: ؟وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله عز وجل: ؟وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟[هود:118]، فيقال لهم: خبرونا عن هؤلاء الذين قال الله: ؟وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟، هل يستطيعون أن يكونوا على غير ما وصفهم الله به؟ وأن يتركوا ما خلقهم له؟ فإن قالوا: لا يستطيعون؛ فقد أجابوا وصدقوا. وإن قالوا: نعم، هم يستطيعون أن يكونوا على غير ما خلقهم؛ فقد كذبوا وخالفوا. وإن زعموا أن الله جل ثناؤه إنما خلق

أهل الإيمان للرحمة، فنحن نقبل منكم ونصدقكم إن زعمتم أن الله جل ثناؤه خلق خلقاً من خلقه خصهم بالرحمة، فلا يستطيعون أن يكونوا على غير ما خلقهم؛ لأنه قد استثنى لهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

(525/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟ فإنا نقول: إن معنى قوله: ؟وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً؟ هو إخبار عن قدرته وإنفاذ ما شاء من إرادته. فأخبر سبحانه: أنه لو شاء أن يجعلهم أمة واحدة لجعلهم قسراً، ولأدخلهم في طاعته جبراً، ولكنه لم يرد قسرهم على ذلك، ولم يرد أن يدخلهم في الطاعة كذلك، للحكمة النيرة، والحجة الباهرة، ليثيب على عملهم المثابين، ويعاقب على اجترامهم المعاقبين، لا ما يقول به المبطلون ويذهب إليه الجاهلون من أنه لم يرد من العاصين الطاعة، ولم يكره من الفجرة المعصية، وأنه لو أراد ذلك منهم لفعلوه، ولو شاء أن يعبدوه لعبدوه، وقالوا على الله عز وجل الأقاويل الردية، و ضاهوا في ذلك قول الجاهلية حين قالوا: ؟لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم؟[الزخرف:20]، وقال سبحانه يكذبهم فيما وهموا من أنه يريد عبادة أحد دونه، أو أنه لا يشاء أن يعبدوه: ؟مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إلا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ؟[الزخرف:21]، ثم أخبر بما به عبدوا مَن يعبدون، ومَن به في ذلك يقتدون، فقال: ؟بَلْ قَالُوا إنا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ؟[الزخرف:22]، ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقول من كان قبلهم ممن أهلك بمثل قولهم، فقال: ؟وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إنا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ؟[الزخرف:23]، فكيف يقول الجهال، وأهل الغي والضلال إن الله سبحانه يشاء من عباده، أو لهم، الكفر، وقد يسمعون في ذلك قوله، ويرون ما نزل بإخوانهم

(526/1)

على قولهم من نكير قولهم؟ أو لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ؟إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ؟[الزمر:7]، فقال: ؟إِن تَكْفُرُوا؟، فأخبر بذلك أن الكفر فعل منهم ولهم، إذ نسبه سبحانه إليهم، وذكره عنهم، ثم قال: ؟لا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ؟ فأخبر أنه لا يرضى ما كان من

كفرهم. فكيف يقول الجاهلون في ربهم إنه قضى بما لم يرض لهم عليهم؟! فأكذبوا في ذلك رب الأرباب وعاندوه في كل الأسباب، فقالوا: إنه رضي بما قال سبحانه إنه لم يرضه، وقالوا: إنه سخط ما قال إنه رضيه فعاندوه في ذلك عناداً، وجاهروه بالمكابرة جهاراً ففي هذا والحمد لله من البيان ما يكفي عن ذكر غيره من الحجج والبرهان.

(527/1)

وأما قوله جل جلاله: ؟وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟، فإنا نقول في ذلك بالحق المبين على رب السماوات والأرضين، فنقول: إن معنى قوله: ؟وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ؟، أي لا يزال أهل الحق لأهل الباطل مخالفين وعليهم في باطلهم وفسقهم منكرين، ؟وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟ رب العالمين، وبه أمرهم سبحانه أكرم الأكرمين، فخلق جميع خلقه ليعبدوه لا ليعصوه، وأمرهم أن يطيعوه ولا يخالفوه، وأن يجاهدوا الكافرين كافة أجمعين حتى يفيئوا إلى طاعة رب العالمين، فخلقهم سبحانه لما شاء من ذلك وشاء ما أمرهم به، وأمرهم بما خلقهم له من طاعته ومجاهدة أعدائه والنصر لأوليائه، فقال سبحانه في ذلك: ؟وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً؟[التوبة:36]، وقال: ؟قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ؟[التوبة:123]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ؟[الممتحنة:1]، وقال: ؟لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ؟[المجادلة:22]، ففي كل ذلك يأمر المحقين بمخالفة المبطلين، وبالبراءة والعداوة للفاسقين الناكثين، وبالتحاب والتواصل والتبار والتواخي على الدين، ومن ذلك ما يقول جل جلاله أكرم الأكرمين: ؟إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

(528/1)

إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ؟[الحجرات:10]. وقد قيل في قوله: ؟وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟ إنه مردود على ما ذكر من الرحمة، وكل ذلك والحمد لله فجائز أن يقال به على ذي الجلال والقدرة، لا ما يقول الضالون: إن الله عز وجل خلقهم للضلال والاختلاف، وركب فيهم العداوة وقلة الائتلاف. وكيف يكون ذلك والله يأمر بقتال من بغى وظلم وتجاهل وأساء حتى يفيء إلى البر والتقوى، وذلك قوله تبارك وتعالى: ؟وإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ

إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ؟[الحجرات:9]، ففي هذا والحمد لله من الدلالة على ما قلنا ما أجزى وكفى.

تم جواب مسألته

(529/1)

المسألة الثامنة والعشرون: معنى قوله تعالى: ؟إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا؟

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله سبحانه: ؟إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا؟، فقال: خبرونا عن قول الله: ؟إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا؟، ثم استثنى أيضاً فقال: ؟إلا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ؟[المعارج:19]، فيقال لهم: ألا ترون أن الله عز وجل قد صنفهم صنفين، فمنهم من خلقه هلوعاً جزوعاً، ومنهم من لم يخلقه كذلك،

فأخبرونا: هل يستطيع هذا الذي خلقه هلوعاً جزوعاً منوعاً أن يكون على غير ما خلقه الله عليه؟

فإن قالوا: نعم؛ فقد زعموا أن الناس يقدرون على أن يبدلوا خلق الله الذي خلقهم عليه، وإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه، وتوهم أنه قد تعلق في شيء منه بحجة له من قول الله: ؟إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إلا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ؟، فقال: إن الله عز وجل قد صنفهم صنفين وخلقهم خلقين، فجعل منهم هلعين جزعين، وآخرين صابرين، ثم قال: هل يقدر من خلقه الله هلوعاً جزوعاً منوعاً أن يكون محسناً قوياً صبوراً؟ فقولنا في ذلك إن شاء الله بما هو الحق لا قول غيرنا.

(530/1)

فنقول: إن الله جل ثناؤه لم يخبر عن فعله، ولا أنه خلق هلعهم، ولا جعل في ذي الصبر والإحسان صبرهم، وإنما أخبر سبحانه عن ضعف بنية الإنسان، وأنه لا يحتمل ما اشتد وصعب من الشان، فدل بذلك من ضعف بنية الآدميين، ومن قوة غيرهم من المخلوقين واختلاف طبائع المربوبين من الجان والملائكة المقربين على قدرة رب العالمين، وخالق السماوات والأرضين، وأخبر سبحانه أنه

خلق خلقه أطواراً مختلفة، وجعل البنية فيهم غير مؤتلفة، فكلف كل صنف منهم دون ما يطيقه أضعفهم، فكلف الملائكة المقربين ما لم يكلف الجان أجمعين، (وكلف الإنسان دون) ما يطيق من الشأن. فكانت بنية الملائكة وطاقتهم خلاف بنية الجان وحالتهم، وكانت بنية الجان واقتدارهم خلاف بنية الإنس واستطاعتهم، وكذلك افتراق كل ما خلق رب العالمين، فكل ما خلقه فهو على تركيب رب العالمين ليس فيه تفاوت، كما قال تبارك وتعالى: ؟مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ؟[الملك:3،4]، وكذلك كل شيء خلقه سبحانه من الأشياء، وذلك كله فدليل على قدرة الرب الأعلى، وخالق الأرضين والسماوات العلى. فأخبر الله سبحانه عن بنية الإنسان بالضعف والسحاقة، ولم يكلفه في ذلك إلا دون الطاقة، فلذلك ما قال سبحانه: ؟إِنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا؟، يقول: جعل على بنية لا تطيق الأمر الشديد، فهو يهلع، ومن كل فادح يجزع، ثم قال: ؟إلا الْمُصَلِّينَ؟، وأخبر أن من كان لله مطيعاً من المؤمنين أصبر عند المحنة من الفاسقين، وأن المحنة لا يطيق لها ولا يقوم لها من الناس إلا ذوو الاصطبار من عباده الصالحين، وأمر سبحانه نبيه والمؤمنين بالصبر، فقال: ؟وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ

(531/1)

الأُمُورِ؟[لقمان:17]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ؟[آل عمران:200]، فأمرهم بالصبر وحضهم عليه في كل أمر، ونهى من يطيق ويحتمل عن الوهن والعجز، فقال: ؟وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا؟[آل عمران:139]، وقال: ؟فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ؟[محمد:35].

ولو كان خلق الوهن وما كان من أفعالهم لما كان جزع ولا هلع ولا صبر، ولا عدد من أعمالهم، بل كان عمله سبحانه، لا عملهم، وفعله كل ذلك لا فعلهم.

ولو كان ذلك فعل الرحمن لما أثاب على صبره الإنسان. ألا تسمع كيف يقول ذو الجلال والقدرة والطول: ؟بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ؟[آل عمران:125]، وقال سبحانه: ؟وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا؟[الأحزاب:35]، فضمن للصابرين على الجهاد النصر، وللعاملين المؤدين للفريضة المغفرة والأجر.

(532/1)

وقال سبحانه يحكي عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ما قال لأبي بكر إذ هما في الغار من المشركين مختفيان، إذ هلع أبو بكر وحزن وجزع، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ؟لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا؟[التوبة:40]، فنهاه عن الحزن. ولو كان الهلع والحزن والجزع تركيباً في الإنسان من الله الواحد ذي السلطان، لما أمره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتركه، ولما قدر على رفض ما كان فيه من ربه، ولكان من هلع وجزع عند الله كمن أطاع وصبر وسمع، إذ هما من الله فِعل في العالمين، وهم – إن كان ذلك – طراً مطيعون، إذ هم في كل ما صرفوا متصرفون.

ولو كان ذلك فعلاً من الله فيهم، وكان على ذلك خلقهم لم يلمهم ولم يعاقبهم على الجزع والجبن، والانهزام وتولية الأدبار، عند لقاء الفسقة الأشرار، وذلك قوله: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ؟[الأنفال:16]، فكيف يوجب الغضب عليهم ويجعل النار مأواهم على فعل ما عليه خلقهم وسواهم؟! تعالى الله عن ذلك وتقدس أن يكون كذلك، بل ذلك فعل منهم، ولذلك رجع وباله عليهم، فمن كان لله مريداً صبر عند المحنة، ومن كان عنه بعيداً هلع، وعند النوازل جزع، وإنما يكون ذلك على قدر اليقين والتسليم لله من المؤمنين.

(533/1)

ومن ذلك يوم حنين حين انهزم المسلمون وجزعوا، وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين ثبتوا، ثم ناداهم الرسول فرجعوا، أفيقول الحسن بن محمد: إن الله سبحانه خلقهم جزعاً، فانهزموا لما خلقهم عليه من الجزع، ثم ناداهم الرسول فاستحيوا منه، فكَرَّوا، وعن خلق الله الذي خلقهم عليه غيَّروا، فتركوا ما ركب الله فيهم من الجزع والجبن؟! أم يقول: إن الله عز وجل خلقهم في أول الأمر جزعاً هلعاً، ثم نقل خلقهم آخر، فجعلهم صبراً؟! لقد ضل إذا ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً، بل ذلك منهم كله أوله وآخره، ولذلك أثيبوا على الرجوع، ولو لم يرجعوا لعوقبوا على الذهاب والشسوع. فليفرق من عقل بين ما أخبر الله سبحانه عنه، وبين ما فعله وجعله، فبينهما ولله الحمد فرق عند ذوي العقول عظيم، وأمر واضح في اللسان بيِّن جسيم.

تم جواب مسألته

(534/1)

المسألة التاسعة والعشرون: معنى قوله تعالى: ؟وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه حين يقول للمؤمنين: ؟وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ؟[الأنفال:21]، هل كان هؤلاء الذين ذكر يستطيعون أن يقبلوا الهدى، وأن يسمعوا المنفعة في دينهم؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا وجحدوا. وإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

(535/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله: ؟وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ؟، فتوهم أنهم كانوا لا يسمعون لصمم جعله الله سبحانه في آذانهم، أو لسبب جعله حاجزاً بين الهدى وبينهم، وليس ذلك – والحمد لله – كذلك. ولو كان الله فعل ذلك بهم لما عاب صممهم، ولكان أعذر لهم من أنفسهم، ولما بعث إليهم المرسلين، ولا أمرهم باتباع المهتدين. وإنما أراد الله سبحانه بذلك حض المؤمنين على الطاعة لرب العالمين، والاستماع لسيد المرسلين، فقال للمؤمنين: ؟وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ؟، يقول: لا تكونوا كالذين قالوا: أطعنا بألسنتهم وهم كاذبون في قلوبهم، بل قلوبهم منكرة لذلك جاحدة له، يدارون بالقول خوفاً من المؤمنين والرسول، ويكفرون من ورائه بكل الدين والتنزيل، وهم الذين قال فيهم الرحمن الجليل: ؟وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إنا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ؟[البقرة:14]، وقال: ؟يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ؟[الفتح:11]، وهم الذين قال الله فيهم من منافقي قريش والأعراب وغيرهم: ؟إذا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ؟[المنافقون:1]، فنهى المؤمنين عن مشابهة المنافقين، ولم يكن قوله ما قال إخباراً منه بتركيب ما ذمه منهم فيهم. ولو كان الله سبحانه فعله فيهم لما نهى المؤمنين عن ذلك، إذ هو فعله لا فعلهم، فكيف ينهاهم عن أن يفعلوا فعله، ولو جاز أن ينهاهم عن فعل ما فعله فيهم لكانوا مقتدرين على أن يفعلوا كفعله، إذا لخلقوا كخلقه، ولو خلقوا كخلقه لامتنعوا بلا شك مما يكرهون من أفعاله، من موتهم وابتلائه إياهم بما يبتليهم به، وليزيدوا فيما

(536/1)

آتاهم مما يحبونه، فتعالى من هو على خلاف ذلك، والمتقدس عن أن يكون كذلك.
وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ؟، فقال: هل كان هؤلاء يقدرون على أن يقبلوا الهدى؟ أو أن يسمعوا ما يُدلون عليه منه؟ فصدق الله سبحانه: ؟إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ؟[الأنفال:22]، يقول: الذين لا يهتدون إن هُدوا، ولا يقبلون الحق إن دُعوا، ولا ينتهون إذا نهوا، فضرب الله لهم ذلك مثلاً إذ كانوا في الضلال على هذه الحال، وهم في ذلك لقبول الحق مطيعون، وعلى اتباع الصدق مقتدرون، فلما أن تركوا ذلك شبههم بالصم البكم الذين لا يعقلون إذ تركوا فعل ما كانوا يطيقون.
تم جواب مسألته

(537/1)

المسألة الثلاثون: معنى قوله تعالى: ؟صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ؟
ثم أتبع ذلك المسألة عما ضرب الله عز وجل للمنافقين من المثل في قوله: ؟مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ؟[البقرة:18]، فنقول: ألا يرن أن الله هو الذي ذهب بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون؟ فأخبرونا هل كان هؤلاء يستطيعون سماع الهدى، وقد وصفهم الله سبحانه بالصمم؟ وهل كان لهم أن يقبلوا الهدى وقد وصفهم الله سبحانه بالعمى؟ وهل كانوا ينتفعون بنور الهدى، وقد ذهب الله به؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا بكتاب الله وجحدوا بآياته. وإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم.
تمت مسألته
[جوابها:]
وأما ما سأل عنه من قول الله في المنافقين، وما ضرب لهم من المثل في قوله: ؟مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ؟، فقال: ضرب مثلهم؛ ثم جهل فقال: خلقهم وكُفْرهم؛ فرجع عن الحق الذي نطق به في أول كلامه حين يقول: ضرب مثلاً. ثم قال: هل يستطيعون سماع الهدى، وقد وصفهم الله جل ثناؤه بالصمم والعمى؟

(538/1)

فقولنا في ذلك: إن الله جل وعلا، لم يخلقهم كذلك، ولم يجعلهم عمياً، ولا عن سماع الخير والتقى صماً. وإن الله تبارك وتعالى ضرب لهم هذا مثلاً، فقال سبحانه: إن هؤلاء الذين أتاهم الهدى، وكشف لهم عن الحق الغطاء فأنار لديهم، وثبت في صدورهم، وأيقنوا أنه من عند خالقهم، فكفروا بربهم، وخالفوا أمر نبيهم، وآثروا ظلمتهم على ما أضاء من الحق لهم، فتركهم الله وخذلهم، ومثَّلهم إذ تركوا حظهم، وما أنار من الحق عندهم بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم. فكان الذي شبهه بضوء النار هو الهدى الذي أخرجه الله لهم، وامتن به عليهم، فتركوه ولم يتبعوه، ولم يستضيئوا بنوره وناصبوه وعاندوه، لا ما يقول الحسن بن محمد أن الله سبحانه فعل ذلك بهم، وجعلهم عن استماع الحق صماً وعمياً، وعن قبول الصدق حاجزاً، فجهل الفرق بين المثل والفعل. وكيف يجعلهم الله كذلك، ويخلقهم على ذلك، ثم يرسل إليهم نبيه يدعوهم إلى الهدى ويخرجهم من الحيرة والعمى، وهم عن الخروج ممنوعون، وعن الدخول في الحق مصروفون؟ فالله سبحانه إذا أرسله يدعوهم إلى الخروج عما فيه أدخلهم وعليه – جل وعز عن ذلك – جبلهم!! فنسبوا في ذلك إلى الله الاستهزاء واللعب والإعماء والجهالة والخطأ والظلم لعباده، والفساد في بلاده!، كذب القائلون على الله بذلك، وضلوا ضلالاً بعيداً.

تم جواب مسألته

(539/1)

المسألة الحادية والثلاثون: معنى قوله تعالى: ؟ إنما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا ؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله في الإملاء: ؟وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إنما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا؟[آل عمران:178]؛ فقال: خبرونا عن قول الله: ؟وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إنما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ؟، فقال: أخبرونا عن هؤلاء، أالله أراد بهم في إملائه لهم ليزدادوا إثماً، كما قال؟ فإن قالوا: نعم؛ نقض ذلك قولهم. وإن قالوا: لا؛ كذبوا.

تمت المسألة

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من قول الله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إنما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ؟، فقال: إن الله أملى لهم ليزدادوا في الكفر والاجتراء عليه، وليس ذلك كما قال، بل قوله أحول المحال، وسنشرح ذلك والقوة بالله ونفسره، ونذكر ما أراد الله إن شاء الله به.

فنقول: إن معنى إملائه لهم هو لأن لا يزدادوا إثماً وليتوبوا ويرجعوا، ومن وَسَن ضلالتهم ينتهوا، لا

ما يقول أهل الجهالة ممن تحير وتكمه في الضلالة: إن الله أملى لهم كي يزدادوا إثماً وضلالة واجتراء. وكيف يملي لهم كذلك، وقد نهاهم عن يسير ذلك، فقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ؟[الحجرات:12]، فنهاهم عن يسير الإثم وقليله، فكيف يملي لهم ليزدادوا من عظيمه وكثيره؟

(540/1)

فأما قوله: ؟لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا؟، فإنما أراد سبحانه: لأن لا يزدادوا إثماً؛ فطرح (لا) وهو يريدها، فخرج لفظ الكلام لفظ إخبار، ومعناه معنى نفي، والعرب تطرحها، وهي تريدها، وتثبتها وهي لا تريدها، قال الله سبحانه: ؟لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؟[الحديد:29]، فقال: ؟لِئَلاَّ؟، فأثبت (لا) وهو لا يريدها، فخرج لفظ الكلام لفظ إيجاب، ومعناه معنى نفي، أراد سبحانه: ليعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله. وهذا فموجود في أشعارهم مثبت في أخبارهم. قال الشاعر:

فعجلنا القِرَى أن تشتمونا

نزلتم منزل الأضياف منا

فقال: فعجلنا القرى أن تشتمونا، وإنما معناه: فعجلنا القرى لأن لا تشتمونا؛ فطرح (لا) وهو يريدها، فخرج لفظ الكلام بخلاف معناه، وقال آخر:

ويصدق القول ولا يحول

ما زال ذو الخيرات لا يقول

فقال: لا يقول؛ فأتى بـ(لا) وهو لا يريدها، ولأن معناها: ما زال ذو الخيرات يقول؛ فخرج اللفظ خلاف المعنى.

تم جواب مسألته

(541/1)

المسألة الثانية والثلاثون: معنى قوله تعالى ؟أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله عز وجل في الإغفال: ؟وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا؟[الكهف:28]، فقال: أخبرونا عن هذا الذي أغفل الله قلبه عن ذكره، هل أراد الله أن يطيعه؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا وجحدوا. وإن قالوا: لا؛ فقد نقض ذلك قولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا؟، فقال: خبرونا عن هذا الذي أغفل الله قلبه عن ذكره هل أراد الله أن يطيعه؟ فتوهم – ويله وغوله إن لم يتب من الله ويحه!! – أن الله تبارك وتعالى أدخله في الغفلة، وحال بينه بذلك وبين الطاعة، فليس كما توهم. ألا يسمع إلى قول الله عز وجل: ؟وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا؟، فأخبر سبحانه أنه متبع في ذلك لهواه ضال عن رشده، تارك لهداه، ولو كان ذلك من الله لم يكن العبد مُتبِعاً لنفسه هواه، بل كان داخلاً لله فيما شاء وارتضى، وسنفسر معنى الآية إن شاء الله، والقوة بالله وله. إن الله تبارك وتعالى نهى نبيه عن طاعة من أغفل قلبه ممن آثر هواه على هداه. وأما معنى ما ذكر الله سبحانه من الإغفال، فقد يخرج على معنيين، والحمد لله شافيين كافيين:

أحدهما: الخذلان من الله والترك لمن اتبع هواه وآثره على طاعة مولاه، فلما أن عصى وضل وغوى، وترك ما دل عليه من الهدى استوجب من الله الخذلان، لما كان فيه من الضلال والكفران، فغفل وضل وجهل إذ لم يكن معه من الله توفيق ولا إرشاد، فتسربل سربال الغي والفساد.

(542/1)

وأما المعنى الآخر: فبيِّن في لسان العرب موجود، معروف عن كلها محدود، وهو أن يكون معنى قوله: ؟أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا؟، أي تركناه من ذكرنا، والذكر فهو التذكرة من الله، والتنبيه والتسديد، والتعريف والهداية إلى الخير والتوفيق. فيقول سبحانه: تركنا قلبه من تذكيرنا وعوننا وهدايتنا بما أصر عليه من الإشراك بنا، واجترأ علينا. تقول العرب: يا فلان أغفلت فلاناً، ويقول القائل: لا تغفلني؛ أي تتركني. وتقول العرب: قم مني، أي قم عني، فتخلف بعض حروف الصفات ببعض، وتقيم بعضها مقام بعض.

قال الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت .... لدى لجج خضر لهن نئيج

فقال: لدى لجج؛ وإنما يريد: على لجج. فذكر السحاب وشربها من البحار واستقلالها بما فيها من الأمطار. وقال آخر:

أغفلت تغلب من معروفك الكاسي .... فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي

فقال: أغفلت تغلب من معروفك؛ أي تركتها من عطائك ونوالك ومنتك وأوصالك. ثم قال: فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي؛ فقال: منهم؛ وإنما يريد: عليهم مغضباً. فأقام حرف الصفة وهو (من) مقام أختها، وهي (على) ، فأقام (منهم) مقام (عليهم)، فهذا معنى الآية إن شاء الله ومخرجها، لا ما توهم

الجهال على ذي المعالي والجلال من الجبر لعباده والإضلال والظلم والتجبر بالإغفال.
تم جواب مسألته

(543/1)

المسألة الثالثة والثلاثون: معنى قوله تعالى: ؟أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله في الأز، فقال: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا؟[مريم:83]، فيقال لهم: هل أراد الله سبحانه أن يؤمن هؤلاء الذين أرسل عليهم الشياطين؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كفروا وجحدوا، وإن قالوا: لا؛ فقد نقض ذلك قولهم.
تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا؟، فقال: هل أراد الله من هؤلاء الذين أرسل عليهم الشياطين تأزُّهم أن يكونوا به من المؤمنين؟ وبما أنزل عز وجل من المصدقين؟ وقد أرسل عليهم مردة الشياطين؟! فتوهم بجهله أن الله أرسل الشياطين على الآدميين إرسالاً، وجبرهم على تحييرهم وتضليلهم جبراً، وأدخل الشياطين في إغوائهم قسراً، ليضلوهم عن الهدى، ويوقعوهم في الردى، وأن ذلك كان من الله للشياطين أمراً وقضاء قضى به عليهم قسراً. وليس ذلك كما قال، ولا على ما ذهب إليه من فاحش المقال. وكيف يرسل الشياطين على عباده إرسالاً، ويدخلها في الإغواء لهم إدخالاً، ثم يعذبها عليه، ويعاقبها فيه؟! ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ؟لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ؟[ص:85]، فلم إن كان أرسله عليهم إذا يعاقبه على ما صنع فيهم؟ بل هو على غير ما يقول في الرحمن أهل الضلالة والطغيان.

(544/1)

ثم نقول من بعد ذلك: إن معنى قوله سبحانه: ؟أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا؟، هو: خلينا ولم نحل بين أحد من بعد أن أمرنا ونهينا. وليس إرساله للشياطين إلا كإرساله للآدميين، فكل قد أمره بطاعته ونهاه عن معصيته، وجعل فيه ما يعبده به من استطاعته، ثم بصرهم وهداهم ولم يحل بين أحد وبين العمل، فمن عمل بالطاعة أثابه، ومن عمل بالمعصية عاقبه، ولم يخرج أحداً من معصيته جبراً، ولم يدخله في طاعته قسراً. فكان ما أعطى من الجن والإنس من الاستطاعات وترك قسرهم على الطاعات إرسالاً وتخلية منه لهم في الحالات، لا ما يقول به أهل الجهالات،

؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإِن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال:42]. فلما أخذل الكافرين بكفرهم، ولعنهم بجرائمهم، وتبرأ منهم بعصيانهم، غويت بهم الشياطين، وسولت لهم فأمْلت فاتبعوها، ولم يعصوها ويبعدوها، ولم يتذكروا عندما يطيف بهم طائف الشيطان، بل تكمهوا وغووا وعموا. ولم يكونوا في ذلك عنده كالذين اتقوا عند إلمام الشيطان بهم كما فعلوا، قال الله سبحانه: ؟إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ؟[الأعراف:201]، يقول سبحانه: ذكروا ما نهاهم الله عنه من طاعته، وأمرهم به من مخالفته، واتخاذه عدواً حين يقول: ؟إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ؟[فاطر:6]، فلما أن طاف بالمؤمنين ودعاهم إلى ما أجابه إليه من الكفر بالله الفاسقون، ذكروا الله وتذكروا أمره ونهيه، وما أمرهم به من طاعته وحذرهم من معصيته، فأبصروا الحق واجتنبوا اللعين وعصوه، وفيما دعاهم إليه من العصيان خالفوه. ألا تسمع كيف أثنى عليهم بذلك ربهم، وذكر عنهم سيدهم وخالقهم حين يقول:

(545/1)

؟إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ؟[الحجر:42]، يقول سبحانه: إن عبادي المؤمنين، وأوليائي المتقين لا يجعلون لك عليهم سلطاناً، ولا يطيعونك فيما تأمرهم به من العصيان، بل يحترسون منك بطاعة الرحمن، وتلاوة القرآن، ويُخلِّفونك صاغراً في كل شأن، فلا يجري ولا يجوز لك عليهم سلطان. وليس تخليته للشياطين إلا كإذنه للساحرين حين يقول: ؟وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللّهِ؟[البقرة:102]، فإذنه في ذلك تخليته وترك الصرف لهم جبراً عن معصيته، والإدخال لهم جبراً في طاعته.

تم جواب مسألته

(546/1)

المسألة الرابعة والثلاثون: هل كان فرعون يستطيع قتل موسى صلوات الله وسلامه عليه؟

ثم أتبع ذلك المسألة (عن قول الله سبحانه) في موسى، وما وعد أمه أن يرده إليها، ويجعله من المرسلين، فقال: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إنا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ؟[القصص:7]، هل كان فرعون يستطيع أن يقتل موسى حتى لا يرده الله إلى أمه ولا يجعله من المرسلين؟ فإن قالوا: نعم؛ كذبوا وجحدوا؛ وإن قالوا: لا؛ فقد نقض ذلك قولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل في موسى: ؟وَأَوْحَيْنَا إِلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إنا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ؟، فقال: هل كان يستطيع فرعون أن يقتل موسى حتى لا يرده إلى أمه ولا يجعله من المرسلين؟ فقال: إن الله أخرج فرعون من أكبر المعاصي بعد الشرك به من قتله نبيه إخراجاً، ومنعه من معصيته منعاً، وقسره على الخروج قسراً. ولو جاز أن يخرج عدوه من معاصيه قسراً، لكان قد أدخله في ضدها من الطاعة جبراً، ولو كان يخرج العاصين من معاصي رب العالمين لكان عباده المؤمنون أولى بذلك، ولو أخرج عباده ومنعهم من معاصيه قسراً لأدخلهم في طاعته جبراً، ولو فعل ذلك بهم لسقط معنى الأمر والنهي، ولكان العامل دونهم، الفاعل لأفعالهم، تعالى الله عن ذلك؛ ولم يُطَع سبحانه مُكرهاً، ولم يُعصَ جل جلاله مغلوباً، بل نقول في ذلك بالحق إن شاء الله.

(547/1)

فنقول: إن الله لما أن علم أنه إذ ألقى على موسى صلى الله عليه من المحبة التي ذكر أنه ألقاها عليه في قوله: ؟وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي؟[طه:39]، فلما ألقى عليه المحبة أحبته لذلك امرأة فرعون، فسألت فرعون تركه عندما همَّ به من قتله حين تبين له ما كان من فعله في صغره، فتركه لها، وصفح عنه بحب محبتها واتباع شأوها، فكان ذلك نجاة لموسى مما هم به فيه فرعون الكافر الملعون، فلما أن علم الله سبحانه أن ذلك سيكون من اختيار فرعون، وأنه سيختار إجابة امرأته إلى ما طلبت من ترك قتل نبي الله، حكم عليه بما علم من صيور أمره، فكان ما ألقى عليه من المحبة منه سبحانه سبباً لنجاته، فنجاه الله من فرعون ورده إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن. فأخبر الله في ذلك، ووعدها ما وعدها، لعلمه بما سيكون من امرأة فرعون وطلبها في موسى، وإجابة فرعون لها كما أخبر عما يكون يوم الدين، فهذا معنى ما ذكر الله من ذلك إن شاء الله، لا ما قاله الفاسقون، وذهب إليه الضالون.

تم جواب مسألته

(548/1)

المسألة الخامسة والثلاثون: معنى قوله تعالى: ؟وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ؟ وهل كان في قدرة جميع العباد أن يطيعوا الله ولا يعصوه؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: ؟وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ؟[غافر:6]، وقوله: ؟وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؟، وقوله: ؟وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا؟[السجدة:13]، فقال: أخبرونا عن بني آدم كلهم، هل كانوا يستطيعون أن يطيعوا الله جميعاً فلا يعصوه؟ ويعبده كلهم حتى لا يعبدوا غيره؟ فيوجب لهم الجنة، ويحرم عليهم النار، فلا يدخلها أحد منهم؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا بكتاب الله، وزعموا أنهم يقدرون على أن يبطلوا قول الله تبارك وتعالى عن ذلك. وإن قالوا: لا، لم يكونوا يستطيعون أن يطيعوا ولا يعبدوا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم، وإبطالاً لحجتهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ؟، فقال: خبرونا عن قول الله: ؟وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ؟، فقال: هل يستطيع هؤلاء أن يطيعوا، وقد حق عليهم من الله القول والأمر، ووقع الحكم والجبر؟ فتوهم الحسن بن محمد لقلة علمه وكثرة جهله أن الله تبارك وتعالى حكم عليهم بما أدخلهم فيه وجبلهم عليه، فظلَّم ربه وكفَّر نفسه، وليس ذلك على ما قال، ولا على ما ذهب إليه من المحال، وسنفسر ذلك من قول الله تبارك وتعالى.

(549/1)

فنقول: إن الكلمة التي حقت هي حكمه على من كفر من الخلق بالنيران، من الجنة والإنسان. فإن الله تبارك وتعالى، علم بما سيكون منهم من العصيان والإحسان، فأوجب للمحسنين الثواب، وعلى المذنبين العقاب.

فأما ما سأل عنه من قوله: هل كانوا يستطيعون أن يطيعوا الله جميعاً فلا يعصوه؟ فكذلك نقول: إنهم كانوا يستطيعون طاعته، كما يطيقون معصيته، ولكنهم افترقت بهم الأهواء، فمنهم من اختار الإيمان والتقوى، ومنهم من اختار الضلالة والعمى، والله تبارك وتعالى فإنما حكم بالنيران على من اختار من الثقلين العصيان، أو كره ما أنزل الرحمن، فعلم الله وقع على اختيارهم وما يكون من أفعالهم، ولم يدخلهم في صغيرة، ولم يخرجهم من كبيرة، ولو علم أنه إذا دعاهم وبصرهم وهداهم أجابوه باسرهم وأطاعوه في كل أمرهم، إذا لأخبر بذلك عنهم، كما أخبر به عن بعضهم، وكذلك لو علم أنهم يختارون بأجمعهم المعصية، لحكم عليهم بالنار كما حكم على الذين كفروا منهم.

وأما قوله سبحانه: ؟وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؟، فكذلك الله سبحانه لو شاء أن يجبر العباد على طاعته جبراً، ويخرجهم من معصيته قسراً؛ لفعل ذلك بهم، ولو فعل ذلك بهم، وحكم به عليهم لم يكن ليوجد ناراً، ولا ليخلق ثواباً، ولكان الناس كلهم مصروفين لا متصرفين، ومفعولاً بهم لا فاعلين، ولكنه سبحانه أراد أن لا يثيب ولا يعاقب إلا عاقلاً متخيراً مميزاً، فأمر العباد ونهاهم وبصرهم وهداهم، وجعل منهم استطاعات ينالون بها المعاصي والطاعات، ليطيع المطيع فيستأهل بعمله وتخيره الثواب، ويعصي العاصي فيستوجب باكتسابه العقاب.

(550/1)

فأما قوله: ؟وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؟، فهو: وجب وحق الحكم مني بما حكمت به ومضى ووقع عليه ما جعلته من عقاب المذنبين، وثواب المحسنين من الجِنة والناس أجمعين. فهذا معنى قوله سبحانه، لا ما قال المبطلون، ونسب إليه سبحانه الجاهلون، من ظلم العباد، والإدخال لهم في الفساد.

تم جواب مسألته

(551/1)

المسألة السادسة والثلاثون: في تفضيل بعض الخلق على بعض

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: ؟انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً؟[الإسراء:21]، فيقال لهم: ألستم تقرون أنه قد فضل بعض خلقه على بعض في الدنيا والآخرة وخصهم؟ وخص بذلك بعض خلقه دون بعض؟ فإن قالوا: نعم؛ انتقض قولهم، فإن الطاعة والإيمان مما فضل الله به عباده وخصهم به من رحمته. وإن قالوا: لا؛ فقد جحدوا بآيات الله وكذبوا كتابه.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من قول الله جل جلاله: ؟انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً؟، فقال: إن الله سبحانه فضل قوماً – بأن أدخلهم في الإيمان – على قوم أدخلهم في الكفر والعصيان؛ فضلَّ بذلك وغوي، وهلك عند الله وشقى، ونسب إلى الله سبحانه من

ذلك الجور والردى، فتعالى وتقدس عن ذلك ربنا. وليس كما قال الجهال من أهل السفاهة والضلال، بل هو كما قال ذو الجلال حين يقول: ؟يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ؟[الشورى:49]، وكما قال سبحانه لنبيه عليه السلام: ؟وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا؟[طه:131]، ففضل بعضهم على بعض بما وهب من الذكور، وبما يجعل ويوسع به من الأرزاق، ويمن به ويتفضل على من يشاء من الأرفاق، وما يرزق من يشاء من الحسن والجمال والمنطق والكمال، وكم قد رأينا وفهمنا وعاينا من مولود يولد أعمى، وآخر يكون ذا زيادة ونقصان، وآخر سوي غير زائد ولا ناقص، قد تمت عليه من الله النعماء، وصرفت عنه وعن والديه فيه البلوى. فهذا وما كان مثله مما فضل الله به بعضاً على بعض مما ليس لهم فيه على الله حجة يفعل من ذلك ما يشاء سبحانه ذو الجلال والحكمة، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

(552/1)

وأما قوله: ؟وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً؟، يقول: إن إعطاءنا وامتناننا ومجازاتنا لأهل طاعتنا في معادهم وآخرتهم على أعمالهم أكبر درجات وأكبر تفضيلا، على اجتهادهم في مرضاتنا، فمن كثر عمله بالخير كان عند الله في الآخرة أكبر درجات ممن نقص عمله، وذلك قوله سبحانه: ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إلا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ؟[الأنعام:160].
تم جواب مسألته

(553/1)

المسألة السابعة والثلاثون: في سلطان الشيطان

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله تبارك وتعالى لإبليس: ؟إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ؟[الحجرات:42]، وقال: ؟فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ؟[النحل:99]، وقال إبليس: ؟لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ؟[الحجر:39]، فقال: أخبرونا عن هذا السلطان، ما هو؟ فإن قالوا: هو التخييل؛ فقل: فما أكثر ما لقي منه المؤمنون وأطفالهم. وإن قالوا: هو الدعاء؛ فقل: فهذا ما (لا يدعوا) به المؤمن والكافر، والخلق كلهم حتى عرض للأنبياء فدعاهم، والتمس فتنتهم، فدعاهم كلهم إلى المعصية. وإن قالوا: هو التضليل، ولن يصل بذلك إلى عباد الله المؤمنين لأن الله عصمهم، وهو الوكيل عليهم؛ فقد أجابوا، ونقض ذلك

قولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

(554/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل لإبليس: ؟إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ؟، ومن قوله: ؟إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ؟، وعن قول إبليس حين قال: ؟فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ؟، فقال: ما هذا السلطان الذي ليس للشيطان على المؤمنين؟ فتوهم لجهله وسوء نظره وعلمه أن الله تبارك وتعالى، حال بين إبليس وبين بعض العباد حولاً، ومنعه من الوسوسة لهم منعاً، وقسرهم عنه قسراً، وليس ذلك كما قال. ألا تسمع ما ذكر الله عن آدم وزوجه، وكيف كانت وسوسته لهما حتى أوقعهما فيه، وكذلك (اعترض لعيسى بن مريم حتى دحره ولم يطمعه في شيء مما ذكره، ولغيرهما من الأنبياء) والمؤمنين. فلو منعه الله من أحد من المؤمنين منعاً، وقسره عن الوسوسة له قسراً، لكان ذلك لأبيهم آدم صلى الله عليه، ولكنه سبحانه منعه من ذلك بالنهي له، والزجر عما هو عليه من إغوائه، وعاقبه عليه، وأعد له النار والعذاب فيه، فقال: ؟لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؟[هود:119].

(555/1)

فأما السلطان الذي ذكر الله عز وجل أنه ليس له على المؤمنين في قوله: ؟إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ؟، فهو ما علم من المؤمنين من طرده ودحره، وترك طاعته في وسوسته وأمره، وأنهم لا يجعلون له عليهم سلطاناً بشيء من الطاعة له من العصيان لربهم، وأنهم لا يزالون مؤثرين لطاعة الرحمن محترسين من الشيطان بتلاوة القرآن والاعتصام بذي الجلال المنان، فهم أبداً لله مراقبون، وفي طاعته ساعون، وللشيطان اللعين معادون كما أمرهم ربهم حين يقول: ؟إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا؟[فاطر:6]، وفي كل ما أمرهم به مخالفون، فأولئك هم المهتدون الذين على ربهم يتوكلون، فليس له على هؤلاء سلطان، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، وكذلك سلطانه على أوليائه، وهو دعاؤه لهم وإغوائه إياهم، وقبولهم منه، ومثابرتهم عليه، فلما أن قبلوا منه ولم يعصوه كانت طاعتهم له السلطان عليهم إذ أطاعوه وفي

دعائه اتبعوه.

تم جواب مسألته

(556/1)

المسألة الثامنة والثلاثون: في اختصاص الله رحمته لبعض خلقه ومعنى شرح الصدر

ثم أتبع ذلك المسألة، فقال: أخبرونا هل يخص الله برحمته من يشاء من خلقه؟ أم ليست له خاصة؟ وإنما هو أمر عام، فمن شاء ترك ومن شاء أخذ؟ فإن قالوا ذلك؛ فقد كذبوا، والله سبحانه يخبر بخلاف قولهم إذ يقول لنبيه عليه السلام: ؟أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ؟[الشرح:1-2]، وقال أيضاً لمن أراد أن يخصه بالهدى من خلقه: ؟فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ؟[الأنعام:152]، وقال أيضاً: ؟أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ؟[الزمر:22]، فقال: أخبرونا عن الشرح، ما هو؟ أهو الهدى؟ أم هو الدعاء؟ فإن قالوا: إنه الدعاء؛ زعموا أن كل كافر مشروح الصدر بالإسلام، وأن الخلق كلهم جميعاً قد شرحت صدورهم؛ لأنهم قد دعوا كلهم. وإن قالوا: هو الهدى الذي يمنُّ الله به على من يشاء من عباده؛ فقد أجابوا.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه، فقال: أخبرونا هل يختص الله برحمته من يشاء من خلقه؟ أم ليست له خاصة؟ فإنا نقول كما قال الله سبحانه: ؟وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؟[الحديد:29]، ثم نقول: إن اختصاص الله برحمته من يشاء من عباده يخرج على معنيين:

(557/1)

فأما أحدهما: فهو مشيئته أن يزيد المهتدين هدى، ويزيد المؤمنين تقوى، وذلك قوله سبحانه: ؟وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ؟[التغابن:11]، وقوله سبحانه: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ؟[الحديد:28]، فشاء سبحانه أن يزيد ويختص برحمته من ثابر على طاعته، وسارع إلى مرضاته، كما شاء أن يخذل من آثر هواه وأسخط بفعله مولاه.

وأما المعنى الآخر: فهو ما يختص به من يشاء من السلامة والإغناء، وصرف المكاره والبلوى. فتبارك الله الواحد الأعلى، فهذا ومثله معنى اختصاص الله بالرحمة لمن يشاء، لا ما يقول الفاسقون، ويذهب إليه الضالون من أن الله تبارك وتعالى يخرج من المعصية عباده قسراً، ويدخلهم في طاعته جبراً.

(558/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ؟أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ؟، فإنا نقول: إن الشرح من الله لصدره هو توفيقه وتسديده وترغيبه بالهدى وتأييده، وتعليمه ما كان يجهله وتفهيمه. فشرح الله بالإيمان صدره، ورفع بالوحي المنزل قدره. وأما الوزر الذي وضعه الله عن ظهره، فهوا ما يغفر له من ذنوبه، ومن الوزر ما كان منه من الضلال عن الوحي والهدى، فوضعه الله سبحانه عنه بهداه له، ومما خصه الله به من النصرة والزيادة في تقواه، فجعله من بعد أن كان جاهلاً عالماً، ومن بعد أن كان مُتبِعاً مُتبَعاً، ومن ذلك ما وضع عنه من وزر الفقر وضرائه، وما امتن به عليه من بعد العيلة وأغناه، كما قال تباركت أسماؤه: ؟وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى؟[الضحى:8]. وأما قوله سبحانه: ؟الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ؟، فهو أوقره وفدحه وغمه وكربه من الضلال عن العمل برضى رب الجلال، فوضع الله عنه ثقل ذلك بما بصره، وأوحى إليه وفضله وامتن به عليه، وليس ذلك الوزر حملاً من الأحمال على ظهر، ولا وقراً وقر بحمله، وإنما ذلك على المثل، قال الشاعر:

حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به .... جزاك عنا إله الخلق رضوانا

(559/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ؟[الأنعام:125]، فجوابنا في ذلك: أن الشرح من الله هو التوفيق والتسديد، والتبصير والتنبيه، وأن معنى قوله جل جلاله: ؟يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء؟، هو بما يدَّارك عليه من الأمر والدعاء، وما أمر به عبده ورسوله ونزل عليه، فكلما زاد الله في إقامة الحجة عليهم والدعاء لهم، وإظهار الحق لديهم ازدادوا طغياناً وإثماً وتمادياً وعمى، فخذلهم الله لذلك وأرداهم وأذلهم وأشقاهم، فعادت صدورهم لما فيها من الشك والبلاء وما يخافون من ظهور الحق عليهم والهدى،

ضيقة حرجة، كأنما تصعد في السماء. وإنما مثل الله ضيقها بالتصعيد في السماء؛ لأن التصعيد أشد الشدة، وأعظم البلاء، ولذلك ما قال الله جل ثناؤه في الوليد بن المغيرة المخزومي: ؟ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ انه كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا؟[المدثر:11-17]، فلما أنعم الله عليه بما ذكر، فأبى وأعرض واستكبر، وخالف وكفر، وعده الله إرهاق الصعود، وهو الأمر الصعب الشديد من العذاب في دار الآخرة بالنار والأغلال الحديد، فلما كان الصعد الذي لا تعرُّض فيه، ولا سهولة في حيله، وأنه مصعد فيه أبداً، وكان أشد ما يلقى من سلك سبيلاً ماشياً أو راكباً؛ مثَّل الله لهم ما أعد من العذاب والبلاء.

تم جواب مسألته

(560/1)

المسألة التاسعة والثلاثون: في حاجة العباد إلى تأييد الله تعالى

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله سبحانه في التأييد، وذلك قوله لعيسى بن مريم: ؟وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ؟[البقرة:87]، وقوله للمؤمنين: ؟فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ؟[الصف:14]، في آي كثيرة، فخص الله من يشاء من خلقه من الأنبياء والمؤمنين: ألا ترى أن الله عز وجل لم يكلهم إلى ما زعمتم أنه جعل فيهم من الاستطاعة؟ وهي الحجة زعمتم على جميع خلقه، حتى جاءهم سوى ذلك من أمره، فأيدهم به، فظهروا بتأييده، ورعب عدوهم، فغلبوا برعبه، ونصرهم فقهروا بنصره، ثم قال فيما مَنَّ به على المؤمنين، ويعلمهم ما صنع بهم مما لم يصنعه بغيرهم، فقال: ؟هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ؟[الفتح:4]، وقال أيضاً: ؟فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا؟[الفتح:26]، فلم يرض لهم ما زعمتم بما جعل من الاستطاعة حتى جاءهم من أمره وعونه سوى ذلك، وقوله لرسوله: ؟وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً إذا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا؟[الإسراء:74،75]، وقوله لأصحاب الكهف: ؟إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إذا شَطَطًا؟[الكهف:14]، فلم يرض لهؤلاء ما جعل فيهم من الاستطاعة التي زعمتم أنها حجة على خلقه، وأنه يحتج عليهم بما أخذوا

(561/1)

أمره وركبوا معصيته حتى أتاهم من أمره ما بلغوا به ما يشاء من رحمته وهداه. وكذلك هو يفعل ما يشاء سبحانه وبحمده، يضل من يشاء، ولا يسأل عما يفعل والخلق يسألون.

جواب المسألة التاسعة والثلاثين:

وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل: ؟وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ؟، وقوله للمؤمنين: ؟فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ؟، وقوله: ؟هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ؟، وقوله: ؟فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا؟، فكذلك الله أحكم الحاكمين آتى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بينات كل أمر، وأيده بروح القدس والنصر، وكذلك أيد عباده المؤمنين على أعدائه الفاسقين، وذلك من الله فواجب للمطيعين.

ألا تسمع كيف يقول: ؟وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ؟[الحج:40]، وقوله: ؟إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ؟[محمد:7]، وقوله: ؟وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ؟[محمد:17]، فكل من آمن بالله واتقى، فقد استوجب من الله الزيادة بالنصر والهدى، وذلك من الله للمؤمنين فعطاء وجزاء، فكل من آمن بالله وأطاعه في أمره وجاهد أعداءه، فقد ذكر الله سبحانه أنه يجازيه على ذلك بما ذكر فيما سأل عنه في هذه الآيات من التفضيل بالمعونات.

(562/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً إذا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا؟، فإن الجواب في ذلك: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يركن إليهم بترخيص لهم في دينهم، ولا إسعاف لهم في شيء من أمرهم، ولا بتولي أحد منهم، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم كان رحيماً رفيقاً حليماً وصولاً للأرحام كريماً. كان صلى الله عليه وآله وسلم ربما رق لهم من العذاب الذي أعد لهم ربهم، رحمة بهم، فأنزل الله سبحانه عليه تحريم الرحمة لهم، فأمره والمؤمنين بترك الرحمة لأهل المعاصي الفاسقين، فقال: ؟يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ؟[التوبة:73]، وقال: ؟الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؟[النور:2]، فثبته الله بما أنزل عليه من ذلك.

فلما أن علم أن رحمتهم لله تسخط غلظ عليهم، واشتد قلبه عن الرحمة بهم لما أمره الله سبحانه فيهم، فكان ذلك تثبيتاً منه له عن أن يركن إلى ما يدعوه إليه الكرم والصلة للرحم من الرحمة، لا ما يقول الضالون على الله وعلى رسوله من أنه كاد أن يركن إليهم ويميل بالمحاباة في صفهم، ثم قال

سبحانه: ؟إذا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ؟، يقول: لو رحمتهم ورفقت من بعد نهينا لك عن ذلك بهم، لكنت لنا من العاصين، وكنت عندنا على ذلك من المعذبين.

(563/1)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ؟إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إذا شَطَطًا؟، فآخر هذه الآية دليل على تفسير ما سأل عنه في أولها، ألا تسمع منه كيف ذكر عنهم ما ذكر من الإيمان والإخلاص لله الواحد الرحمن، فلما أن آمنوا زادهم إيماناً، وكذلك يفعل الله بعباده المؤمنين، ألا ترى كيف قال: ؟إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ؟، فكذلك يفعل الله بمن آمن واتقى، كما يخذل من عند عن أمره وعصى. ولولا ما ركب فيهم من الاستطاعة (أولاً ما نالوا زيادة الله لهم في الهدى آخراً، ولكن بما جعل فيهم من الاستطاعة ما يقدرون) على الطاعة والعصيان، فآثروا الطاعة ورفضوا المعصية، فصاروا بذلك مؤمنين، فاستأهلوا من الله الزيادة في كل خير، والدفع منه عنهم لكل ضير. ألا ترى كيف يقول: ؟إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى؟، يقول: لما أن عملوا الطاعة بما فيهم من القدرة والاستطاعة زدناهم من الخير والكرامة.

ثم قال الحسن بن محمد: وكذلك الله يفعل ما يشاء، يضل من يشاء، ولا يسأل عما يفعل، والخلق يسألون، فتوهم – ويحه – أن الله سبحانه يضل عن سبيل الرشاد قوماً منعهم بالإضلال عن الرشاد، (وكيف يكون ذلك، وقد أمرهم بالاهتداء)، وبعث إليهم الأنبياء يدعونهم إلى البر والتقوى، وهم لذلك غير مستطيعين، ولا عليه مقتدرين، لقد إذا ظلمهم فيما إليه دعاهم، إذ عنه قد حجرهم وأغواهم، فتبارك الله عن مقالة الجهال من أهل الجبر والضلال.

(564/1)

المسألة الأربعون: هل خلق الله أفعال العباد؟

وإن قالوا: أخبرونا عن الأعمال، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فأنتم تزعمون أن الله خلقها؟ فإن قالوا: كيف نسبها الله إلى خلقه، وجعلهم الذين عملوا وتكلموا؟ فقولوا: ألا ترون أن الله عز وجل قد قال: ؟وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا؟، وقال: ؟وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ؟[النحل:80]، وأنتم تعلمون أن الناس هم الذين غزلوا ونسجوا السرابيل، وعملوا الدروع، وبنوا البيوت، واتخذوا المظال، وقد منَّ علينا به، وأخبرنا أنه جعله، وذلك

أنه ألهمنا بمنته أن غزلنا، وهو علمنا ذلك، ونسجنا وعملنا ما عملنا، وأخبرنا أنه قد جعله؛ فكذلك خلق ما عملنا من طاعة أو معصية، ونحن عملناها جميعاً. وكذلك قال أيضاً: ؟أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ؟[إبراهيم:24]، ألا ترون أن الله سبحانه خلق الثمرة في الشجرة، وأخرجها منها، ونسب الخروج منها إليها، وقال: ؟تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟؟ وكذلك أعمال العباد، خلقها ثم نسبها إليهم، وأخبر أنهم عملوها.

جواب المسألة الأربعون:

(565/1)

وأما ما تكلم وموّه به، فقال: إن سألونا عن أفعال العباد: مخلوقة هي؟ أم غير مخلوقة؟ ثم قال: هي مخلوقة إذ نسبها الله إليه كما نسب غيرها من أفعالنا إليه، من ذلك قوله: ؟وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا؟، وقال: ؟وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ؟، والسرابيل والبيوت فالعباد يعملونها، وقد نسبها الله جل جلاله إليه، فكذلك أعمالنا هي منا، وهي فعله فينا.

فجوابنا في ذلك: أنه بخلاف ما قال، وأنه قد أخطأ في القياس إذ قاس أفعال العباد التي هم فاعلوها، ومن بعد العدم أوجدوها إلى ما فعلوا فيه من خرز الجلود، وعمل الحديد ونسج الثياب التي الله تبارك وتعالى خلق أصلها، وأوجد أولها وصورها. فلما أن كان الله سبحانه الذي أوجد ذلك كله كان هو الجاعل له في أصله والممتن به على جميع خلقه. وأفعال العباد في ذلك فلم يخلقها الله سبحانه، ولكن الله أوجد ما ذكر من أصولها، والعباد صنعوا ما صنعوا فيها، وعملوا ما عملوا منها، فنسب إليه صنع ما أوجد من هذه الأصول التي قد فرغت وجعلت ونقلت. فبين هذا، وبين أفعال العباد فرق عند من كان له عقل.

هل رأى أو سمع خلق في شيء من الكتاب المنزل، أن الله سبحانه ذكر أنه فعل شيئاً مما فعلوه من الفجور والردى، وشرب الخمور، وارتكاب الهوى؟ بل نسب ذلك كله إلى فاعله، ونفاه سبحانه عن نفسه.

فإن قالوا: إن الله سبحانه خلق الأدوات التي تكون بها الأفعال في كل الحالات؛ من الفروج والأيدي والألسن واللهوات، كما خلق الجلود والقطن والحديد والصوف؛ فنحن نقول: إذ قد أوجد أصل أفعال العباد، أن منه أفعالهم، كما نقول إن السرابيل منه إذ أوجد أصولها.

(566/1)

قلنا لهم في ذلك: ليس هذا كذلك؛ لأن الله سبحانه أوجد الأصل الذي نقل وصنع وعمل من هذه التي نسبها إليه من الجلود والكرسف والصوف والحديد، والعباد فعلوا الحدث الذي صرفوها به وأحدثوه فيها، من عملها ونسجها وصناعتها وغزلها بالأكف والأدوات التي جعلت لهم، والاستطاعة التي ركبت فيهم، فالتأم في ذلك جلود وأيد وحركات. فكان الله عز وجل الخالق للأيدي والجلود، وكان العباد الفاعلين للحركات، الصانعين لتلك المصنوعات. كذلك الله سبحانه خلق الحجارة والطين، والعباد بنوا الدور وشيدوا ما بنوا من القصور، فاجتمعت في ذلك الحجارة والأكف العمالة، والحركات التي دبرت لها الحجارات، فكان الله جل ثناؤه خالق الأيدي والصخور، والعباد أحدثوا الحركات وبنوا الدور. وأفعال الله سبحانه فكائنة عندما يريدها بلا تخيُّل، ولا حركات، ولا تأليف شيء إلى شيء بالأكف العمالات. ففي هذا أبين الفرق بين أفعال المخلوقين وبين أفعال رب العالمين، فما كان من فعل الله فليس من أفعال العباد، وما كان من أفعال العباد، فليس من أفعال ذي العزة والأياد.

كذلك لو أن رجلاً سرق صوفاً فنسجه سربالاً وثوباً، لم يعذبه الله سبحانه على جرم الصوف، ولا على ما قبضه به من اليد والكف، وإنما يعذبه على أخذه وحوزه عن ربه، واستئثاره عليه به، وما كان من انتفاعه به ولبسه، فعذبه سبحانه على ما كان من حركاته وفعله، ولم يعذبه على ما خلق وصور من نفس المسروق وصورته.

(567/1)

وكذلك يعذب الزاني على زناه، والزنا هو: الإيلاج والحركة، والإخراج، ولم يكن الزنا إلا بالفرجين والحركة، فالفرجان فعل الله، والحركة والزنا فعل العبد ذي الفسالة والردى. فالله عز وجل يعذبه على زناه وإدخاله وإخراجه وحركاته، لا على ما خلقه له من الفرج. فخلق الله الآلات وما أنعم به على العبد من الأدوات لينالوا به المنافع واللذات من طريق ما أحل لهم لا من وجه ما حرم عليهم، ثم أمرهم في ذلك باجتناب المعصية وحضهم على فعل الطاعة.

وأما ما سأل عنه وفيه قال بالمحال، وقاس على مقاييس الضلال، فقال: قال الله تبارك وتعالى: ؟أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ؟، فقال: ألا ترون أن الله خلق الثمرة في الشجرة فأخرجها منها؟ ثم نسب الثمرة إليها فقال: ؟تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟؟ فكذلك نقول: إن أعمال العباد الله سبحانه خلقها، والعباد عملوها، ثم نسبها إليهم، وأخبر أنهم عملوها.

(568/1)

فقولنا في ذلك: إنه غالط في القياس، أو أراد معنى فأخطأ في مقاله؛ لأنه مثَّل ما ليس بمأمور ولا منهي فقاس فعل العباد فيما أوجدوه بفعل الله الذي لم يفعلوه. وإنما قياس الشجرة وما أوجد الله سبحانه فيها من الثمرة قياس الناقة والامرأة؛ الله سبحانه خلق الأولاد فيهما، وهما ولدتا، قال الله سبحانه في امرأة عمران وفيما نذرت مما في بطنها للرحمن حين يقول: ؟فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى؟[آل عمران:36]، فقال: ؟وَضَعَتْهَا؟، فنسب الولد، وما كان من تخليصها وتسليمها في وضعها لها إليها، والله سبحانه الذي جعلها في بطنها، وأخرجها بقدرته منها، ولولا إخراجه لها وتخليصه إياها إذا لم تخلصها أبداً أمها. قال الله عز وجل في ذلك: ؟يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ؟[الروم:19]، فلا يشك أنه المخرج والمخلص للولد من الظلمات الثلاث من: المشيمة، والرحم، والبطن، قال الله سبحانه: ؟يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟[الزمر:6]. وقال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا؟[العنكبوت:8]، فنسب إليهما ولادتهما إياه، إذ كان الخارج منهما والمصور فيهما، والله سبحانه المصور له والمقدر تصويره وخلقه. فكذلك نسب إلى الشجرة إيتاء أكلها، وهو الخالق لها ولثمرها.

(569/1)

فأما قياس أفعال العباد التي نهوا عنها، وأمروا بها، وعوقبوا عليها، وأثيبوا بها، فليس هذا قياسها، وسنأتي به ونذكر إن شاء الله ما هو مثلها. فنقول لمن قال: إن الله سبحانه خلق أفعال العباد وركبها فيهم، وأنطقهم وقضى بها عليهم، ثم نسبها إليهم: ما تقول إذا قلت ذلك، وكان الأمر عندك كذلك، في مشرك أشرك بالله وجحده؟ وفي قتل من قتل الأنبياء بغير حق؟ الذين قال الله فيهم: ؟وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ؟[آل عمران:21]، آلله فعل ذلك بهم كما فعل غيره من أفعالهم؟ فإن قالوا: نعم، الله فعله وخلقه وقضاه وركبه، فقد زعموا أن الله عز وجل كفر بنفسه، وأمر بالشرك به، وقتل أنبياءه؛ وهذا فأكفر الكفر، وأجهل الجهل بالرحمن عز وجل، عند كل من عرف الحق وكان ذا إيمان. وإن قال: لا؛ رجع عن قوله، (وتاب إلى ربه. وإن قال: فعل الطاعة وخلق بعض المعصية ولم يفعل عظائم العصيان)، ولا فوادح ما تأتي به من الكفران. قيل له: فلا نراك إلا قد أثبت للعبد فعلاً لا محالة دون الرحمن، فإن جاز أن يكون من العبد فعل لم يخلقه الله

ولم يفعله جاز أن تكون له أفعال كثيرة، وأمور جمة غير يسيرة، والأمر في ذلك فعلى قولنا لا على قولك، وشَرْحنا بحمد الله لا شرحك، لأنك قد أجمعت معنا على قولنا إذ قد أقررت لنا ببعض فعلنا ونفيته عن خالقنا وربنا، ونحن لا نطيعك في قليل من ذلك ولا كثير، ولا ننسب إلى الله من أفعال عباده عظيماً ولا حقيراً، فهذا قياس ما إليه ذهب، لا ما ارتكب فيه من المحال والعطب.

(570/1)

المسألة الحادية والأربعون: هل العباد مجبورون على الأعمال؟

فإن قالوا: أخبرونا عن العباد، أمجبورون على الأعمال، من الإيمان والكفر والمعصية؟ أم لا؟ فقل: منهم من هو مجبور على ذلك، ومنهم من هو غير مجبور. فأما الذين جبروا على الطاعة فمنهم أهل مكة، افتتحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسراً، فأسلموا كرهاً، ولو لم يسلموا قتلهم، واستحل دماءهم وأموالهم؛ فهذا وجه القسر والجبر. وأما الوجه الآخر: فإن الله تبارك وتعالى قد قذف في قلوبهم الهدى، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم قال: ؟أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ؟[الحجرات:7]، وقد قال في كتابه: ؟وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا؟[آل عمران:83].
فإن قالوا: أخبرونا عن المشركين الذين لم يسلموا، أجبروا على الشرك؟ فيقال لهم: إن المشركين لم يريدوا الإسلام، فيجبروا على الشرك؛ ذلك أنهم لو أرادوا الإيمان فأكرهوا على الشرك [لكانوا مجبورين]؛ كما [لو] أراد المشركون الشرك ورضوا به، وأراد الله أن يهديهم فجبرهم على الهدى وهم كارهون. فإن قالوا: فإن لم يكونوا مجبورين ولا مكرهين، فهل يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى؟ فقل: لا؛ إلا أن يشاء الله. فإن قالوا: فكيف لا يكونون مجبورين، ولا يستطيعون أن يتركوا شركهم؟ فقل: كذلك الله يفعل ما يشاء، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فلا مضل لمن هدى، ولا هادي لمن يضل.
جواب المسألة الحادية والأربعين:

(571/1)

ثم قال: إن قال قائل: خبرونا عن العباد، أمجبورون على الأعمال من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية والغدر؟ أم لا؟ فقل: منهم من هو مجبور على الطاعة فهم أهل مكة، افتتحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسراً، فأسلموا لذلك كرها، ولو لم يسلموا قتلهم واستحل دماءهم وأموالهم، فهذا وجه القسر والجبر، وأما الوجه الآخر: فإن الله قذف في قلوبهم الهدى، وحبب إليهم الإيمان،

وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم قال: ؟أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ؟، ثم قال: ؟وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ؟.

(572/1)

فردنا عليه فيما يقول، أنَّا نقول: الحمد لله على ما رزقنا من العقول، والفهم بما نقول، فيا ويح الحسن بن محمد! الجاهل المجبر في أمره الغافل، بينا يقول: إن الله يجبر العباد على الطاعة له والانقياد؛ إذ رجع فصرف ذلك إلى الرسول، فيا ويح ذي الجهل! من نازعه في ذلك؟ (أو من ذا الذي لم يكن من أضداده قوله لذلك). ألا يسمع قول الله سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه فيمن أكرهته قريش على الكفر والعصيان، ودعته إلى الخروج من الحق والإيمان، وصالت عليه بصولتها، وأذاقته ما قدرت عليه من أليم عقوبتها، حتى أعطاهم ما أرادوا بلسانه وقوله وقلبه مخالف لما لفظ به من مقاله، مطمئن بالإيمان، مخالف لدين أهل العصيان، فقال في ذلك الرحمن: ؟إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟[النحل:106]، وكان الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان عمار بن ياسر (رحمة الله عليه)، ذو المعرفة بالله والإيمان. فلا يشك مميز عاقل، ولا ينكر ما قلنا به جاهل، من أن الخلق يكره بعضهم بعضاً على القول والفعل لما لا يحب ويرضى، وإن كان ضمير القلوب مخالفاً للكلام، وهذا فموجود في لغة جميع الأنام، فأما علم الضمير فلا يطلع عليه إلا الواحد القدير.

(573/1)

ثم قال: إن معنى قوله سبحانه وجل عن كل شأن شأنه: ؟وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإليه يُرْجَعُونَ؟، هو جبر منه لهم على إسلامهم، وإخراج لهم من ضلالهم وكفرانهم بالجبر والتحويل والقسر، واحتج في ذلك بقول الله سبحانه: ؟وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ؟؛ فلا تأويل معنى الإسلام من الخلق أصاب، ولا في معنى ما ذكر الله عز وجل من التحبيب والتكريه أجاب. وإنما معنى قول الله سبحانه: ؟وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا؟، هو: المعرفة به والإقرار بربوبيته، وأنه الخالق غير مخلوق، والرازق غير مرزوق، كما قال سبحانه: ؟وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ؟[العنكبوت:61]، فهذا معنى ما أراد الله – والله أعلم – بقوله: ؟وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا؟، لأن الإسلام يخرج في اللغة على معنيين:

[فأحدهما]: الإقرار بفعل الفاعل، والتسليم له، وترك المكابرة له في فعله، والمعاندة له بالإنكار لما يحدث من صنعه.
والمعنى الثاني: فهو الاستسلام لأمر الآمر، والإنفاذ لما حكم به والانقياد لجميع ما قِيد إليه، وصرف من الأفعال فيه.

(574/1)

فعلى المعنى الأول يخرج تفسير الآية، لا على المعنى الثاني، الذي توهم الحسن بن محمد أن عليه يخرج معناها، ولو كان ذلك كذلك، أو قارب شيئاً من ذلك لكان جميع الخلق لله مطيعين، وفي أمره سبحانه متصرفين، طائعين كانوا أو كارهين، ولو كان كما يقول هو ومن معه من الجاهلين إذا لما وجد أنبياء الله لله في الأرض عاصين، ولكان الله تبارك وتعالى بإكراهه لهم على طاعته وإدخالهم قسراً في مرضاته مجتزئاً مكفياً عن نهيهم عن معصيته، ولما احتاج الخلق إلى المرسلين، ولما حذرهم الله ما حذر من مردة الجن والعالمين.
وأما قوله: ؟طَوْعًا وَكَرْهًا؟، فالمطيع منهم في ذلك هو من أطاع الحجة المركبة فيه، والشاهدة بالحق له وعليه، من اللب الذي ينال به التمييز بين كل شيئين، ويثبت له به الرضى والسخط في الحالين، فمن أنصف لبَّه، وقبل ما أدى إليه معقوله من معرفة ربه، كان منصفاً طائعاً، متحرياً للحق خاضعاً. والمكره فهو من كفر وتعدى، وكابر لبَّه وأبى، وعند عن الحق وأساء، حتى أدركه البلاء، واشتد عليه الشقاء، ونزلت به النوازل، واغتال لبه في ذلك الغوائل، ورجع صاغراً إلى إنصاف لبه، ولجأ فيما ناله إلى ربه، واستسلم وأسلم له كما ذكر ذو الجلال ممن تعدى في الغي والمقال حين يقول، ويخبر عنهم ويقص ما كان من أخبارهم، حين يقول ويخبر عن فرعون حين يقول، فقال: ؟حَتَّى إذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟[يونس:90]، ومثل قوله: ؟فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى الْبَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ؟[العنكبوت:65]، ومثل قوله: ؟وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إذا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إذا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ؟[الروم:33].

(575/1)

أما معنى تحبيب الله عز وجل إلى العباد الإيمان، وتكريهه للكفر والفسوق والعصيان، فهو بما جعل وحكم لمن آمن واتقى من الجنان والنعيم والجزاء والإحسان، وبما كان يريهم ويشرعهلديهم من نصر

المؤمنين، والإظهار لحجتهم، والإعزاز لدينهم، والتكريه منه لما ذكر، فهوا بما أوجب على فاعل ذلك من العقوبات في الآخرة بالنيران، وفي الدنيا بالقتل والسبي والذل والخذلان. فلما جعل ما جعل من الثواب للمؤمنين، وما أعد وحكم بما حكم به من العقاب على الكافرين، رغب الراغبون في الثواب، وأوجبوا له الإيمان وآمنوا، وهاب واتقى وخاف العقاب الخائفون، فاتقوا وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان لخوف العقاب فاهتدوا، وزهد أهل الكفر في كفرهم، لما يرون من ذلهم وصغارهم، وظهور الحق والمحقين واعتلائهم، فتركوا الفسوق ودخلوا في الحق، فهذا إن شاء الله معنى ما ذكر من ذلك العلي الأعلى، لا ما قال وذهب إليه أهل الإفك على الله، وقالوا فيه من الجبر للمخلوقين على ما يكون من أفعالهم والإدخال لهم بالقسر في فاحش أعمالهم من (الغي) والفجور والمنكرات والشرور، والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وسلام على المرسلين.

(576/1)

ثم قال: إن قال قائل: خبرونا عن المشركين الذين لم يسلموا، هل جبروا على الشرك؟ قيل له: إن المشركين لم يريدوا الإسلام فيجبروا على الشرك، وذلك لو أنهم أرادوا الإيمان وأكرهوا على الشرك، كما أراد المشركون الشرك ورضوا به، وأراد الله جل ثناؤه أن يهديهم فجبرهم على الهدى وهم كارهون، ثم قال: فإن قال قائل: فإن لم يكونوا مجبورين ولا مكرهين، فهل يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى، فقل: لا، إلا إن شاء الله؛ فزعم في آخر قوله أنهم لا يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى، فأبطل حجته وقوله أولاً حين يقول: إنهم إنما يكونوا مجبورين على الشرك لو أرادوا الهدى فمُنِعوا منه وأُدخِلوا في الردى، فأثبت هذا القول لهم الفعل، وأقر أنهم يقدرون على فعل ما لا يريد الرحمن حتى يجبرهم على غيره من الشأن؛ لأن الإرادة والنية فعل لصاحبهما، ولذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أن صاحب النية يعطي ويثاب فيها وعليها. وإذا صح أن العباد يفعلون ويريدون ما لا يشاء ربهم حتى يجبرهم على غير ذلك من فعلهم، فقد بطل ما يخرصه الحسن بن محمد من زخرف قوله، وثبت وصح ما يقول به أهل المعرفة بالله من العدل بإقراره.

ثم زعم أن من لم يقدر على ترك الشرك والكفر بربه غير مكره ولا مجبور على ما هو فيه من فعله، وهذا فعين المحال، وأفحش ما يقال به من المقال، وإبطال المعقول، والمكابرة لصحيح العقول؛ لأن من حيل بينه وبين القيام لسبب من الأسباب، فقد جبر على القعود بلا شك ولا ارتياب. وكذلك من أوقدت له نار ثم ألقي فيها، ومنع من التحرف عنها، وحيل بينه وبين الخروج منها، فقد جبر وجبل على الاحتراق فيها. وكذلك الطير إذا قص جناحاه الخافقان، فقد حيل بينه وبين ما يريد من الطيران. وكذلك من لم يجعل فيه من الخلق استطاعة فعل، فقد حيل بينه وبينه، لا يشك في ذلك عاقلان، ولا يختلف فيه جاهلان.

(577/1)

المسألة الثانية والأربعون: هل كلف الله الملائكة؟

وأما ما سأل عنه من قوله، وكذبه على ملائكة ربه، فقال: خبرونا عن الاستطاعة التي تزعمون أن الله جل ثناؤه جعلها في عباده حجة عليهم، وأنها مركبة فيهم ليعملوا أو يتركوا، هل جعلها في الملائكة المقربين؟ أم لا؟ ثم قال: فإن قالوا: نعم قد جعلها فيهم، وامتن بها عليهم، فقولوا لهم: فأنتم إذا لا تدرون عن الملائكة هل بلغت؟! أم لا؟ أم هل أدت ما أمرت بأدائه؟ أم هل قصرت في شيء مما أمرت به؟ إذ تزعمون أنها قادرة على ما تهوى، تاركة لما تشاء.

[جوابها]

(578/1)

فقولنا في ذلك: إن الله سبحانه ركب الاستطاعة في عباده وجعلها في جميع خلقه المأمورين المميزين، ومنهم الملائكة المقربون صلوات الله عليهم. ثم أمرهم ونهاهم من بعد أن أوجد فيهم ما أوجده سبحانه في غيرهم من الاستطاعة الكاملة، والنعمة الشاملة، وأمرهم ونهاهم، ولولا ما ركب فيهم من الاستطاعة لما جرى أمره عليهم، من ذلك قوله: ؟وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ؟[البقرة:34]، فأمرهم بالسجود من أجله، ولما رأوا ما ابتدع من جليل صنعه، ولعظيم ما فيه من قدرته، إذ خلقه من طين من صلصال من حمأ مسنون. والمسنون فهو ما داخله الأجُون فأسِنَ لذلك وأجن وتغير، فصار لما فيه من الأجون حمأ، كما ذكر الله مسنوناً، ثم صوره رجلاً، ثم نفخ فيه الروح، فصار جسماً متكلماً، لحماً وعروقاً وعظاماً ودماً، يُقبل ويدبر، ويورد ويصدر، بعد أن كان طيناً لازباً. فسجد الملائكة - عليهم السلام - لله المهيمن ذي الإنعام من أجل ما أحدث في آدم صلى الله عليه من الخلق وجعله أباً لكل الخلق. فكانوا بائتمارهم في ذلك لله مطيعين، وعليه مثابين، ولأمر الله مؤدين. ولو لم يكن فيهم استطاعة، ولا ما يقدرون به على السجود من الآلة، لم يأمرهم سبحانه بما لا يستطيعون، ولم يكلفهم العدل الجواد ما لا يطيقون؛ لأنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وأعدل العادلين. وليس ما ذكر المبطلون، وقال به الضالون من صفات الرحيم، ولا من أفعال العزيز العليم؛ لأن من أمر مأموراً بأن يفعل مفعولاً لا يقدر على فعله، كان بلا شك ظالماً له في أمره، وكان قد كلفه في ذلك محالاً، وكان له بذلك غاشماً ظالماً، وليس الله بظلام للعبيد، كما قال في ذلك ذو الجلال الحميد: ؟وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ؟[فصلت:46]، وقال سبحانه: ؟وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ

أَحَدًا؟[الكهف:49]، فيا سبحان الله!! ما أجهل من نسب ورضي لربه ما لا يرضاه وما لا ينسبه إلى نفسه من تكليف العباد ما لا يطاق،

(579/1)

ثم رضي ذلك ونسبه إلى الواحد الخلاق، فكان كما قال الله جل جلاله، وتقدست أسماؤه: ؟وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ؟[الزخرف:17]، فأخبر سبحانه أنهم كانوا ينسبون إلى الله اتخاذ البنات، ولا يرضون بهن لأنفسهم، ولا يحبون الإناث، بل إذا رزق أحدهم بما رضيه لربه بانت الكراهية منه في وجهه؛ فشابهوهم في فعلهم، واحتذوا في ذلك بقولهم، فقالوا: إن الله يكلف عباده ما لا يطيقون فعله، ويعاقبهم على ترك ما لم يقدرهم على صنعه، وهم ينفونه عن أنفسهم، ويبرءون منه أخس عبيدهم، فسبحان من أمهلهم، وتفضل بالإنظار لهم.
ثم قال: ما يدريكم أن الملائكة مستطيعون، لما يشاءون من الأعمال متخيرون، وعلى العمل والترك قادرون؟ لعلهم قد تركوا بعض ما به أمروا، وقصروا في أداء بعض الوحي، وفرطوا في نصر النبي والمؤمنين، وفي غير ذلك مما أمرهم به رب العالمين.

(580/1)

فقولنا في ذلك له: إنا علمنا براءتهم صلوات الله عليهم وإنفاذهم لكل ما أمرهم به ربهم على ما أمرهم به، غير مفرطين في شيء منه؛ لقوله فيهم سبحانه، وثنائه بما أثنى عليهم من ترك التفريط في أمره والاستقصاء في كل إرادته، والتقديس له والتسبيح الليل والنهار، وذلك فقول الواحد الجبار: ؟لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ؟[الأنبياء:20]، وفي ترك التفريط فيما أمرهم به رب العالمين، ما يقول سبحانه في القرآن المبين: ؟حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ؟[الأنعام:61]، ويقول تبارك وتعالى فيهم، ويثني بما يعلم من أفعالهم عليهم، حين يقول: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ؟[التحريم:6]، وفي ذلك ما يقول سبحانه، ويحكي عن المبطلين بما قالوا في الله رب العالمين، حين يقول: ؟وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ؟[الأنبياء:26]، فوجدناه تبارك وتعالى يذكر الاجتهاد منهم له عنهم، فقلنا فيهم بما قاله ربنا وربهم، فتعالى أصدق الصادقين عن مقالة الفسقة الجاهلين.

(581/1)

ومن الدليل على معرفة حقائقهم والوقوف على محض فعلهم واجتهادهم، تولي الله لهم ومعاداته لمن عاداهم. ألا تسمع كيف يقول الواحد ذو الجلال والطول: ؟مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فإن اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ؟[البقرة:98]، فذكر سبحانه وجل عن كل شأن شأنه أنه عدو لمن عاداهم، وإذا صحت العداوة والمقاضاة منه لمن ناضاهم فقد ثبتت منه الولاية بلا شك لمن والاهم، ألا تسمع كيف جعل من عاداهم فاجراً؟ وسماه في واضح التنزيل كافراً؟ حين يقول في آخر الآية جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ؟فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ؟، ولن يوالي أبداً من كان في أمره مقصراً، ولن يشهد بالوفاء لمن كان عنده سبحانه غادراً، فبهذا ومثله من تنزيله مما قد ذكره وبينه في وحيه وقيله، شهدنا للملائكة المقربين بالاجتهاد في الطاعة لرب العالمين.

(582/1)

المسألة الثالثة والأربعون: هل يثيب الله عباده على ما أجبروا عليه؟

ثم قال تغليظاً لمن كان معه على رأيه من أهل الجهالة، وذوي الحيرة والتكمه والضلالة: نسأل من أثبت في الخلق الاستطاعة، فيقال لهم: هل يثيب الله خلقه على ما عملوا من الطاعة، مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟ (ثم قال): وهل يعاقبهم على ما عملوا به من معصيته؟

فبيَّن بهذه الكلمات الآخرات في المعصية – على ما تكلم به في كلمات الطاعة – من فظيع ما جاء به من الكفر في قوله، والتظليم لله ربه. وبين جهله لتباعه دون غيرهم ممن هو على خلاف رأيه ورأيهم، حين يقول: هل يثيب الله خلقه على ما عملوا به من الطاعة مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟ ثم قال: وهل يعاقبهم على ما عملوا به من المعصية؟ فبين مسألته الثانية في المعصية، ولم يتمها، كما أتم المسألة في الطاعة، خوفاً من أن يشهد وينطق على نفسه بالكفر والفضيحة، وذلك أنه كان يجب عليه أن يتم الثانية كما أتم الأولى، فيقول: وهل يعاقبهم على ما عملوا به من معصيته مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟ ولو كان ذلك في الله سبحانه كذلك لكان الله سبحانه المدخل للعاصين في المعصية، المكره لهمعليها، ولو كان ذلك كذلك تعالى الله عن ذلك لم يكن في الخلق لله عاص، بل كان كلهم في أمر الله نافذاً ماضياً، ولم يكن إبليس عند الله بمذموم، ولا محمد صلى الله عليه وآله بمحمود، ولم تكن الملائكة المقربون بأحمد عند الله من مردة الشياطين، إذ كل لا سبيل له إلى غير ما يفعل، ولا حيلة له من العمل في غير ما يعمل، لِحتم الله وقضائه بذلك

عليهم، وإدخالهم بقضائه فيه، وحملهم وجبرهم وقسرهم عليه، فتعالى الله عما يشركون، وتقدس عما يقول المبطلون.

(583/1)

(تمت مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية في تثبيت الجبر والتشبيه والإلحادورد الهادي إلى الحق - أمير المؤمنين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام - عليه، ونفى ذلك عن الله سبحانه، وإثبات العدل والتوحيد، وتصديق الوعد والوعيد)، (والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين وسلم)

(584/1)

باب إثبات النبوة

سألت أكرمك الله فقلت: إن سألني ذمي عن إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أين ثبتت؟ فقلتَ: ما أقوله له؟

الجواب في ذلك أن يقال له: ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصحت من حيث ثبتت نبوة موسى وعيسى صلوات الله عليهما، والذي ثبتت به نبوتهما في بني إسرائيل ووجبت طاعتهما فيه ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم سواء سواء.

فإن قال: وما ذلك الذي ثبتت به نبوتهم؟

قيل له: هي المعجزات التي أتوا بها، والآيات التي أظهروها، التي لا ينالها مخلوق، ولا تكون إلا من الخالق، ومعجزات كل واحد منهم معروفة عند أهل العلم، وقد شرحنا ذلك في مسائل ابني أبي القاسم التي في إثبات النبوة والوصية والإمامة. والجواب في مسئلتك هذه للمسلم والذمي سواء.

ويقال: إن كانت معجزات موسى وعيسى أثبتت نبوتهما على أممهما، فقد أثبتت نبوة محمد معجزاته على جميع الخلق، وإن لم تكن معجزاتهما أثبتت نبوتهما عندك، فأخبرنا بما ثبتت نبوتهما مما هو غير ذلك، حتى نأتيك في محمد صلى الله عليه وآله وسلم بحجج تقطعك وتقمعك. فلا تجد بداً إن شاء الله أن تقول: إن المعجزات من الآيات هنّ اللواتي يثبتن ويصححن النبوة، ويقمن لله ولرسوله الحجة على الأمة. فإذا أقر بنبوة محمد لثبات الحجة عليه ووضوحها لديه ولزومها له، إذ إقراره بها يثبت نبوة نبيه، ومكابرته فيها وقوله بالدفع لها تبطل قوله في نبيه قيل له: اتق الله وأجب محمداً

داعياً إلى الله ورسوله إليك وإلينا.
فإن قال: قد أثبتم علي الحجة بما لم أقدر أن أدفعه في إثبات نبوته إلا أن أدفع نبوة نبيي فقد أقررت لكم بنبوته حين اضطررت إلى ذلك، فهو نبيكم ورسولكم وليس إلينا برسول.
قيل له: بل هو رسول إليك وإلى آبائك من قبل بإقرارك لا بإنكارك، فقد أقررت بذلك ولزمك من حيث ثبتت عليك الحجة في الإقرار بنبوته، وإن كنت لم تعقل ذلك ولم تفهمه ولم يحط به عقلك فتعلمه.

(585/1)

فإن قال: ومن أين حكمت عليّ بذلك، وجعلتني في الحكم كذلك؟ أبن لي بذلك قولاً صواباً، وأزح لي به شكاً في قلبي وارتياباً.
قيل له: ألست قد أقررت بأنه رسول الله ونبيه؟
فلا تجد بداً أن تقول: نعم.
فيقال له: هل يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم أن تأتي بشيء من أنفسها ثم تزعم أنه من الله دونها، وفي ذلك ما لا يخفى عليك من الكذب على الله، وحاشا لرسل الله صلوات الله عليهم من ذلك.
فلا يجد بداً من أن يقول: لا يجوز ذلك في الأنبياء صلوات الله عليهم والرسل.
فإذا قال ذلك قيل له: أفليس القرآن الذي جاء به محمد من الله، وذكر أنه من الله هو من الله.
فلا يجد بداً أن يقول: نعم هو قرآن بعث به إليكم دوننا.
فإذا قال ذلك، قيل: قد أقررت بنبوته صلى الله عليه وآله، وأقررت بالكتاب الذي جاء به أنه حق من الله، فقد وجدنا في هذا الكتاب تصديق إرسال محمد إليكم.
فإن قال: وأين ذلك؟

(586/1)

قيل له: هو قول الله سبحانه: ؟إنا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً؟[الفتح: 8 – 9]، وقوله: ؟قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ؟[الأعراف: 158]، ويقول: ؟آمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ؟[البقرة: 41]. فكل هذا القول الذي في

الكتاب الذي لم تجد بداً أن تقر به أنه من عند الله، فإن بطل منه حرف بطل كله، وإن ثبت أنه من الله ثبت كله، ووجب عليك ما أمرك الله به فيه، ولزمك الإيمان به والتصديق، إذ قد أقررت بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يجد حينئذ الذمي بداً أن ينصف فيقر بالحق، أو يكابر بعد ثبات الحق وبيانه، فيستدل بمكابرته على جهله وحمقه، ويستغنى بظهور جهله عن مناظرته؛ لأن الجاهل المكابر محيل، وصاحب المحال لا حجة معه.

وله أيضاً عليه السلام:

(587/1)

الدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

إن سأل سائل فقال: ما الدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟

قيل له: الدلائل كثيرة على ذلك، ولكن ليس لمنكر أن يسألنا عن هذه المسألة إلا أن يكون من أهل الكتب الذين أجمعوا معنا على التوحيد والنبوات، فأمَّا الملحدون فليس لهم أن يسألونا عن تصحيح النبوة وهم لم يؤمنوا برب الأنبياء عليهم السلام، فمن سألنا من اليهود والنصارى، وأهل الكتب المقرين بالتوحيد قلنا لهم: الدلائل كثيرة على تصحيح نبوته عليه السلام، وذلك أنه أتى بما يعجز الخلائق عن مثله، فلما أن أتى بما يعجز الخلائق عن مثله، علمنا أنه ليس في قدرة المخلوقين فعله، وأنه لم يفعله إلا الخالق، ولم يضعه إلا على يدي أمين صادق.

(588/1)

معجزات سيدنا محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وآله

فإن قال: فما الأعلام التي جاء بها يعجز الخلائق عن مثلها، قلنا له: ذلك أكثر من أن يحصى، منه الماء القليل الذي سقى منه العالم الكثير، ومنه الخبز القليل الذي أطعم منه البشر الكثير، ومنه أن ذئباً تكلم على نبوته، ومنه أنه أمر شجرة فأقبلت تخد الأرض ثم أمرها فرجعت. ومنه كلام الذراع المسمومة له. وواحدة من هذه الأعلام تجزي بعد أن تكون معجزة للخلق، فلمَّا أن أتى صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المعجزات الأعلام التي ذكرنا علمنا أنه نبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فإن قال: فما الدليل على أنه جاء بهذه الأعلام التي تذكرها ومن خالفك لا يقر لك بذلك؟

قيل له: الدلائل على ذلك الأخبار المتواترة التي لايجوز على مثلها الشك عن قوم مفترقي الديار، بعيدي الهمم، مختلفي التجارات والصناعات والألسن والألوان. نعلم أن مثلهم لا يجوز عليهم الاجتماع والتواطؤ، فلما أجمعوا ينقلون هذا الخبر علمنا عند خبرهم إذ جاء هذا المجي أنه حق وصدق؛ لأنه لو جاز على مثل ما ذكرنا التواطؤ لكنَّا لا ندري لعلنا إذا دخلنا مثل البصرة والكوفة أو بعض هذه الأمصار التي لم ندخلها فقيل لنا هذه مكة، هذه الكوفة، وهي المدينة انهم قد كذبوا، وأن أهل البلد قد تواطؤ على أن يخبرونا بخلاف ذلك.

فإن قلت: لا يجوز لأهل بلد واحد أن يتواطؤ ويجتمعوا على شيء واحد.

قلنا: وكذلك لا يجوز أن يكون من خبرنا عن نبينا محمد عليه السلام أنه فعل كذا وجاء بكذا، وأخبر عن كذا، أن يكونوا كذبوا، لاختلاف أجْناسهم، وبعد هممهم.

فإن كان السائل يهودياً فارجع عليه فقل: بم صحّ عندك نبوة موسى؟ فإنه يقول بالأعلام التي جاء بها التي يعجز الخلائق عن مثلها.

قيل له: وبم علمت أنه جاء بالأعلام؟

فإن قال: بإخبار من خالفنا، فلما أن أجمعتم معنا والنصارى معكم مع خلافكم لنا علمنا أن مقالنا كما قلنا، وأن خبرنا حق.

(589/1)

قلنا له: فأخبرنا عن أسلافكم الذين كانوا قبل أن تكونوا إذ كانت النصارى لم تُصِح لكم نبوة موسى.

فإن قال: بلى.

قيل: وبم ولم؟ وليس هناك مسلمون ولا نصارى يجمعون معك، وزعمت أنه لا يصح الخبر إلا بإجماع من خالفك، وبعد فلو آمن الناس كلهم بموسى وصاروا على دينك بطلت نبوة موسى، إذ زعمت أن الأخبار لا تصح إلا بالمخالفين، فبهذه وللنصارى مثلها على اليهود، فافهمها.

ومن دلالته صلى الله عليه وعلى أهل بيته وعلامته هذا القرآن، لا يقدر أحد أن يدعيه ولا أنه جاء به أحد غيره صلى الله عليه وآله وسلم، فقد أعجز أهل دهره من الفصحاء والبلغاء، فلم يقدر إلى يومنا هذا كل الخلق أن يأتوا بمثله، أو بسورة منه. ليس يشبه الشعر، ولا الرجز، ولا الخطب، باين من كلام المخلوقين، وفيه أخبار الأولين والآخرين. وبعثه صلى الله عليه وآله وسلم والعرب متوافرة ليس فخرهم إلا الشعر والبلاغة والخطب، فتحداهم بأجمعهم من أن يأتوا بسورة من مثله، عجزوا وأقروا بالعجز. فعلمنا إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثله وهو بلغتهم أن غيرهم أعجز، وعلم أهل النهى إذ عجز الخلائق عن مثله أنه من عند أحكم الحاكمين، وأنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم نوراً وهدىً للعالمين.

ومن معجزاته أن قوماً من آل ذريح وهم حي من أحياء العرب وهم بمكة أرادوا أن يذبحوا عجلاً لهم وذلك في أول مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أضجعوه ليذبحوه أنطق الله العجل، فقال: ((يا آل ذريح أمر نجيح صائح يصيح بلسان فصيح، يؤذن بمكة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.))، فتركوا العجل وأتوا المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائم في المسجد وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأني محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(590/1)

جواب مسألة النبوة والإمامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً

قال أبو القاسم محمد بن الهادي إلى الحق رضي الله عنه:

سألت أبي صلوات الله عليه عن الحجة والدليل على نبوة الأنبياء وإرسال الله لهم تبارك وتعالى، وعن الدليل على إقامة الأوصياء أوصياء الأنبياء، وثبات حجتهم على الأمة، وعن ثبات الإمامة لمن ثبتت له من الأئمة، وبأي سبب ثبتت بها طاعته وعلى البرية وجبت؟

فقال: سألت يا بني، حاطك الله وهداك رشدك، عن مسألة هلك فيها خلق من المتكلفين، وحار عن فهمها كثير من المتكلمين، فقال من ضل عن الحق وتكمه في ذلك عن طرق الصدق: إن إمامة الإمام تثبت بإجماع الناس عليه، وحسن رأيهم فيه. وليس ذلك كذلك، بل ثبتت الإمامة لمن حكم الله له بها، وقلده بحكمه إياها، وكذلك القول في الأنبياء، فالنبي من تنباه الرحمن، وبعثه بالهدى والإحسان إلى جميع الإنسان، فأقام معه الشرائع والبرهان، وكذلك الأوصياء لا تثبت وصاة نبي إلى وصي حتى تثبت له في ذلك حقائق الصدق، ودلائل براهين الحق.

قلت: وما هذه البراهين والدلالات التي حار فيها كثير من أهل المقالات، وتكلم فيها بالأمور العظيمات المعجبات؟

قال: قد سألت فاستقصيت، فافهم ما نقول، وما إليه قولنا يؤول، ثم اعلم أنه لا تثبت نبوة نبي في قلوب العالمين، ولا يستدل عليها أحد من التابعين، ولا تثبت وصيته الوصيَّ، ولا حجة لحق مضى، ولا تثبت إمامة إمام، ولا تجب طاعته على أهل الإسلام إلا باستحقاق وعلامات، وشرائع ودلالات، وعَلَم قائم، ودليل يدل على أنه هو صاحب ذلك المعنى، والمتولي لجميع هذه الأشياء.

(591/1)

استحقاق الأنبياء وعلامتهم

فأمَّا استحقاق الأنبياء صلوات الله عليهم للنبوة فهو بالطاعة منهم لله، والاجتهاد منهم في مرضات الله، والنصح لعباد الله، فإذا علم الله من ضميرهم أنهم إن بعثوا كانوا كذلك، وإن أمروا قاموا لله بذلك، أمرهم سبحانه حينئذ ونهاهم، وبعثهم واجتباهم. ثم أبان معهم العَلَم والدليل الذي يدل على أنهم رسل مبعوثون برسالته إلى خلقه، مبشرين ومنذرين، مخوفين لعذابه، مبشرين بثوابه، هادين إلى طرق سبله، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: 42]. وعَلَم الأنبياء ودليلها: فهو ما جاءوا به من المعجزات، وأظهروه للخلق من العلامات الشاهدات على أنهن من عند الرحمن، اللواتي لا ينالهن ولا يطيق إيجادهن أحد من الإنسان؛ مثل ما جاء به موسى عليه السلام من إدخاله يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء، ومثل ما جاء به من انقلاب العصا إلى خلق حية، وغير ذلك من باقي التسع الآيات، وغير ذلك مما كان يأتي به من الدلايل المعجزات والعلامات؛ ومثل ما جاء به عيسى صلى الله عليه من التكلم في المهد، ومن إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وغير ذلك من علاماته، مما نكره التطويل بذكرها، وقد يجزي ذكر قليلها عن كثيرها؛ ومثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من معجزاته الهائلات، وأموره الناطقات، وأسبابه الشاهدات بالنبوة والرسالات، مثل: مجي الشجرة إليه ورجوعها إلى موضعها، وإنباء الناس بما في صدورهم، وإعلامهم بما في ضميرهم، وذلك من إنباء الله له بذلك وإعلامه به إياه، ومثل ما كان من فعله في شاة أم معبد، وماكان منه من الفعل في التمرات من غداء جابر بن عبدالله، وذلك أنه أخذ كفاً من تمر فوضعه في وسط ثوب كبير، ثم حركه ودعا فيه، فزاد وربا حتى امتلأ الثوب تمراً، وما كان منه في عشاء جابر بن عبدالله، صاع من شعير وعناق صغيرة أكل منها ألف

(592/1)

رجل، وما كان منه في الوشل الذي ورده هو والمسلمون في غزوة تبوك، فوضع يده تحت الوشل، فوشل فيها من الماء ملؤها، ثم ضربه ودعا فيه، فانفجر بمثل عنق البعير ماءً، فشرب العسكر كله معاً، وتزودوا ما شاءوا من الماء، وغير ذلك مما يكره التطويل من معجزاته، أنه مفهوم معروف عند أهل العلم، فكانت هذه المعجزات مع ما ذكرنا من أسباب الاستحقاق من عَلَم النبؤة والدليل على نبوة الأنبياء وبعث الله لهم في البرية تبارك وتعالى.

(593/1)

استحقاق الأوصياء وعَلَمهم

وكذلك الأوصياء، فلا تثبت للخلائق وصية الأنبياء إليهم إلا بالاستحقاق لذلك والعَلَم والدليل.

فأمَّا الاستحقاق منهم لذلك المقام الذي استوجبوا به من الله العَلَم والدليل فهو فضلهم على أهل دهرهم، وبيانهم عن جميع أهل ملتهم، بالعِلْم البارع والدين والورع والاجتهاد في أمر الله. وعلَمُهم ودليلهم فهو العِلْمُ بغامض علم الأنبياء، والاطلاع على خفي أسرار الرسل، وإحاطتهم بما خص الله به أنبياءه، حتى يوجد عندهم من ذلك ما لا يوجد عند غيرهم من أهل دهرهم، فيستدل بذلك على ما خصتهم به أنبياؤهم، وألقته إليهم من مكنون علمها، وعجايب فوايد ما أوحى الله به إليها، مما لايوجد أبداً عند غير الأوصياء. من ذلك ما كان يوجد عند وصي موسى، وعند وصي عيسى عليهما السلام ما لا يوجد عند غيرهم من أهل دهرهم. ومن ذلك ما وجد عند وصي محمد صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، من ذلك ما أجاب به في مسائل الجاثليق، ومن ذلك ما كان عنده من علم كتاب الجفر، وما كان عنده من علم ما يكون إلى يوم القيامة، مما أطلع الله عليه نبيه، وأطلع نبيه وصيه، لم يعلمه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحد غيره، ولم يقع عليه سواه، فهذا الذي لم يوجد عند غير الأوصياء من أهل مللهم فهو علَمُ الأوصياء المبين لها، والدليل الدال بالوصية عليها.

(594/1)

استحقاق الأئمة وعَلَمهم

وكذلك الأئمة الهادون الداعون إلى الله المرشدون، بانت إمامتهم، وثبت عقدها من الله لهم بخصال الاستحقاق، وبالعَلَم والدليل الذي بانوا به من غيرهم، وامتازوا به عن مشاركة أهل دهرهم.

فأما الاستحقاق فهو ولادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والعِلْمُ والورع والزهد، والدعاء إلى الله، وتجريد السيوف، وخوض الحتوف، وفض الصفوف، ومجاهدة الألوف، ورفع الرايات، ومباينة الظالمين، وإقامة الحدود على من استوجبها، وأخذ أموال الله من مواضعها، وردها في سبلها التي جعلها الله لها وفيها، مع الرحمة والرأفة بالمؤمنين، والشدة والغلظة على الفاسقين، والشجاعة عند جبن الناس، والمجاهدة للكافرين والمنافقين، فهذا باب الاستحقاق للإمامة.

والعَلَم والدليل فهو توفيق الله وتسديده لوليه وتأييده، وإيتاؤه اياه الحكمة ؟وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً؟[البقرة: 269] ؟ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؟[الحديد: 21].

ودليل ذلك وعلَمُه الذي يدل على أنه قد آتى وليه الحكمة ما يظهر من الإمام من الأمور المعجزات لأهل دهره، من حسن علمه، ودقائق فهمه، وحسن تعبيره، وتمييزه والمعرفة بالتأني لتعليم رعيته، وتفهيمها بما تحتاج إلي فهمه حتى يكون معه من الشرح لما يسأل عنه والتبيين لما يأتي به،

والاحتجاج فيه وعليه بالحجج البالغة، والبراهين النيرة التي لا توجد عند غيره، ولا ينال شرحها والاحتجاج بها سواه، مع التأني لقبول عقول العالمين لما به يأتي من الحق المبين، والأمر المنير، مع استنباطه لعلم دقائق الكتاب، ودقائق الحلال والحرام في كل الأسباب، التي لا يقع عليها إلا من تولى الله اللطف له، وتوحد بالهداية لقلبه، ممن قلده أمر رعيته، وحكم له بالإمامة على بريته.

(595/1)

وهذه الأشياء التي ذكرنا من حسن البيان، والشرح، وإيضاح ما يحتاج إليه من دقائق حسن التعبير، وجيد التمييز الذي لا يوجد في سواه، فهي العَلَم والدليل على إمامته وعقد الله سبحانه ما عقد له منها، وذلك يا بني العَلَم الأكبر، والدليل الأوفر على عقد الله الإمامة لمن كان ذلك فيه وعنده ولديه. والحجة فيما قلنا به من أن هذا أكبر الأعلام والدلايل، أن الله تبارك وتعالى تعبد الخلق بمسموع ومعقول، فالمعقول: ما أدرك بالنظر والتمييز بالعقول، والمسموع فهو ما يسمع بالأذن من المسمِع المؤدي من نبي، أو وصي، أو إمام مهتد. وإذا كان فرض الله ومتعبده لخلقه بالمسموع، كانت حاجة السامع إلى تأدية المسمع لازمة، إذ كانت حجة الاستماع على المستمع واجبة، وإذا كان ذلك كذلك أحتاج الإمام المسمِع للرعية إلى أن يكون في الكفاية، والفهم بالشرح والتبيين ودقائق حسن التعبير وجيد التفصيل، ومبين التفهيم، والمعرفة بالتأني لتعليم الرعية وتفهيم البرية لما يحتاجون إليه على غاية ما يكون؛ لأن ذلك كله تأدية عن الله لما افترض على الخلق من المسموع، فإذا كمل في هذه الأشياء فقد كمل في التأدية عن الله لفرائضه المسموعة في كل معنى، فلذلك قلنا إن حسن التأدية بلطائف التعبير، وحسن الاستماع للسامعين في التأدية والتفسير، أكبر أعلام الإمامة، وأدل الدلايل على الحكمة التي يؤتيها الله أوليائه، لأن من آتاه الله الحكمة فهو عند الله من أهل الولاية والمحبة، ومن تولاه الله وأحبه فهو آهلُ الناسِ من الله بالإمامة، وأولاهم منه سبحانه بالكرامة. فمن كان كذلك من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو الإمام المفترض الطاعة الذي لا يجوز لأحد خذلانه، ولا يسع رفضه، ولا يؤمن بالله خاذله، ولا يوقن بالوعد والوعيد تاركه.

(596/1)

فافهم يا بني هداك الله ما شرحنا لك من أعلام النبوة ودلايلها، وأعلام الأوصياء ودلايلها، وأعلام الأئمة ودلايلها التي تدل على عقد الله الإمامة لمن عقدها لهم والحكم منه سبحانه بها فيهم، فقد شرحت ذلك لك شرحاً مجملاً، وفسرت لك بعض ما تحتاج إليه تفسيراً كاملاً، فلا تلتفت إلى غير ما

قلنا من أقاويل الهرّاجين، وتعبث العبَّاثين وزخاريف كلام المتكلمين، وافتراق أقاويل الجاهلين، ممن يقول: إن الإمامة بإجماع الرعية، وقول من يقول: بل هي لما يوجد من الآثار المروية في الملاحم المذكورة، وقول من يقول: هي بالوراثة لولد بعد والد، لا يلتفتون ويلهم لما تستحق به الإمامة من البينات، والشواهد النيرات، همج رعاع، وللجهال أتباع، لم يقتدوا بالحكمة فيعلموا بما به تحق الإمامة لصاحبها على الأمة، قد جعلوا الحكم بها وفيها لغير من حكم الله، وجعلوا الحكم بها إلى غير الله، فركبوا من ذلك مركباً وعراً، واكتسبوا به في الآخرة ناراً وعاراً، اعتمدوا في أكبر أمور الله وفرضه من الإمامة على التقليد، فقلدوا الحكم بها كبراءهم في كل الحالات، وطلبوا إثباتها من أبواب الروايات، جهلاً بما عظم الله من قدرها، وتصغيراً لما كبر الله من أمرها، فتكمهوا بذلك في ظلم العمايات، وغرقوا في بحور الجهالات ؟وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ؟[الشعراء:227] فلا يبعد الله إلا من ظلم، وأساء وغشم، وحسبي الله فنعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(597/1)

فأمَّا ما تقول الإمامية الضالة الهالكة العمية، وتجتري به على الواحد الجليل، فيما تذكر وتصف من العَلَم والدليل، فقول لا يلتفت إليه عاقل، ولا يشك في بطلانه إلا عمٍ أحمق جاهل، وذلك أنها زعمت وقالت فيما به تكلمت وذكرت: أن العَلَم والدليل في إمامها خلاف ما كان في نبي من أنبياء الأمم، وأنه يأتي بما لم يأتِ به الأنبياء من بدع محالات في كل الأشياء، ومن قال بمحال فليس يثبت له قول في حال من الحال، فزعمت أنه يختم بخاتمه في الصفا ويؤثر فيقرأ نقش خاتمه فيها كما يقرأ في الشمع والطين، وينادي فيما زعمت الإمامية في السماء مناد: ((أن فلان بن فلان إمامكم الهادي المهدي))، بوراً في قولها، وتعدياً في أمرها، وإحالة في حجتها، وغلواً في دينها، ولو كان ذلك يكون لأحد من العالمين، لكان لمحمد خاتم النبيين، ولو نادى في السماء مناد بنبوة النبي لما اختلف فيه من فراعنة قريش منصف ولا غوي، فقولها قبحت أقوالها قول شاهد بالزور عليها في كل أحوالها، لا يلتفت إليه أحد، ولا يوجد لمتعلق به ملتحد، فضيحة على من دخل فيه، ومهتكة هاتكة لمن نسب إليه، ولا دليل ولا علَمَ ولله الحمد أدل ما به قلنا من دلائل الإمامة، وشرحنا من معجزاتها التي فسرنا، فاعلم ذلك علماً يقيناً، وليثبت في قلبك ثباتاً مبيناً، يبن لك به الصواب، وينحل عنك الارتياب، إن شاء الله والقوة بالله وله.

تمّ والحمد لله وحده

وله أيضاً عليه السلام:

تثبيت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

تثبت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رحمة الله عليه من كتاب الله عز وجل، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

إن سأل سائل أو تعنت متعنت جاهل عن تثبيت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

قيل له: أيها السائل المتكلم المسترشد المتعلم، تثبت له بقول الله سبحانه، وقول رسوله المصطفى محمد عليه السلام.

فإذا قال: أوجدونا في الكتاب ما قال الله، وثبتوا لنا كيف قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

قيل له: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))، ثم قال: ((أيها الناس إنه سيكذب علي من بعدي كما كذب على الأنبياء من قبلي؛ فما جاءكم عني من حديث فأعرضوه على كتاب الله، فما شاكل كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما لم يشاكل كتاب الله فليس مني ولم أقله.))، فلما قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى)) علمنا أنه لم يقل ذلك محاباة، ولا اختياراً منه ولا مصافاة، إلا بأمر من الله واجب، وحق مبين ثاقب، فلما قال صلى الله عليه وآله وسلم علي مني بمنزلة هارون من موسى، وجدنا تصديق قوله صلى الله عليه وآله وسلم مثبتاً في الكتاب وهو قول الله عز وجل: ؟أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إماما وَرَحْمَةً؟[هود: 17]، فلما قال الله ويتلوه شاهد منه صدق قول الله سبحانه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((علي مني بمنزلة هارون من موسى.))، لقول الله ؟شَاهِدٌ مِّنْهُ؟، فلما قال رسول الله عليه السلام ((علي مني))، وقال الله ؟شَاهِدٌ مِّنْهُ؟، كان رسول الله من علي وعلي منه، بقول الله وبقول رسوله عليه السلام، كرهنا أو أحببنا، شئناً ذلك أو أبينا، لا ننظر في ذلك إلى قول محب مريد، ولا نلتفت إلى قول مبغض مكابر عنيد، ولا نأخذ في ذلك بتصديق محب، ولا ننظر أيضاً في تكذيب مبغض؛ لأن الله سبحانه قد حكم في ذلك بما حكم، واختار سبحانه ما اختاره، فقال تبارك وتعالى في كتابه المنزل

على نبيئه المرسل: ؟وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ؟[القصص: 68]، ثم قال: ؟سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ؟[القصص: 68] فحكم الله على من اختار سوى خيرته بالشرك؛ لقوله عز وجل: ؟سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ؟[القصص:68]، فنسمع الله قد اختار علياً

(600/1)

بعد محمد لقول الله ؟شَاهِدٌ مِّنْهُ؟، ولقول الرسول: ((علي مني))، وذلك لعلم الله تبارك وتعالى في عليٍّ؛ لأن علياً سبق الخلق إلى الله وإلى رسوله، لا يشك في ذلك عاقل، ولا ينازع فيه إلا جاهل، لأن الله سبحانه يقول: ؟السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟[الواقعة: 10]، فلما شهد الله تبارك وتعالى للسابق بالجنة، أجمع الخلق أن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه أسبق الخلق إلى الله وإلى رسوله، فشهدنا لعلي بن أبي طالب بما شهد الله له به ورسوله، لا باختيارنا بل من أصل آذاننا ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إنا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا؟[الكهف: 29]، صدق الله سبحانه، وبلغت رسله، وانا على ذلك من الشاهدين، والحمدلله رب العالمين أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد المصطفى وآله النجباء وسلم.

وله أيضاً عليه السلام في:

(601/1)

ذكر خطايا الأنبياء عليهم السلام

مما يسأله إبراهيم بن المحسن العلوي رحمة الله عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

(602/1)

قصة آدم عليه الصلاة والسلام

سئل الهادي إلى الحق يحي بن الحسين صلوات الله عليه عن قول الله تبارك وتعالى:؟وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إلا إِبْلِيسَ؟[الكهف: 50]، كيف كان السجود من الملائكة صلوات الله

عليهم؟
فقال: معنى قوله: ؟اسْجُدُواْ لآدَمَ؟، إنما أراد بذلك اسجدوا من أجل آدم تعظيماً لخالقه، إذ خلقه من أضعف الأشياء وأقلها عنده، وهو الطين، فجاز أن يقال: اسجدوا لآدم لما أن كان السجود من أجل خلقه.
وقوله: ؟فَسَجَدُواْ إلا إِبْلِيسَ؟، وإنما جاز أن يجعل إبليس معهم في الأمر وإن لم يكن من جنسهم إذ كان حاضراً لأمر الله لهم، فأمره بالسجود معهم، وإن لم يكن جنسه جنسهم؛ لأن الملائكة صلوات الله عليهم إنما خلقوا من الريح والهوى، وخلقت الجن كلها من مارج النار. ومارج النار فهو الذي ينقطع منها عند توقدها وتأججها.
قلت: فما الدليل على أن إبليس من الجن؟
قال: قول الله جل ذكره: ؟إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ؟[الكهف: 50].
قلت: فهل أمرت الجن كلها بالسجود، أم خص الله إبليس بذلك دونهم؟
قال: لم يأمر الله سبحانه أحداً منهم إلا إبليس فقد أمره الله بالسجود دونهم.
قلت: أفمخصوص كان بذلك دونهم؟
قال: نعم كان مخصوصاً بالأمر.
قلت: فعصيان آدم صلوات الله عليه في أكل الشجرة كيف كان ذلك منه أتعمداً أم نسياناً؟
فقال: قد أعلمك الله في كتابه من قوله: ؟وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا؟[طه: 115] يقول لم نجد له عزماً على أكلها واعتمادها بعينها.

(603/1)

ولكن سلني فقل لي: فإذا كان آدم في أكل الشجرة ناسياً كيف وجبت عليه العقوبة، وقد أجمعت الأمة على أنه إذا نسي الرجل فشرب في رمضان وهو ناس، أو أكل وهو ناس، أو ترك صلاة حتى يخرج وقتها وهو ناس، أو جامع امرأته في طمثها وهو ناس، لم يجب عليه في ذلك عقوبة عند الله، فكيف يجب على آدم صلوات الله عليه العقوبة في أكل الشجرة ناسياً؟
فإن سألتني عن ذلك قلت لك: إنما عوقب آدم صلوات الله عليه في استعجاله في أكل الشجرة، وذلك أن الله تبارك وتعالى لما نهاه عن أكل الشجرة وهي البر، وأمره بالشعير، ولم يحظره عليه، فكان يأكل من شجرة الشعير وهي ورق ولم تحمل ثمراً، فلما صار فيها الحب والثمر أشكل عليه أمرها، فلم يدر أيهما نهي عنها، فأتاه اللعين بخدعه وغروره، فقاسمه على ما ذكر الله في كتابه فقال: ؟مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ؟[الأعراف: 20]، فاستعجل آدم فأكل من الشجرة، ولم ينتظر الوحي في ذلك من عند الله، فعوقب في استعجاله في أكلها، وقلة

صبره لانتظار أمر ربه.

قلت: فكيف كان كلام إبليس وخدعه إياه؟ هل كان تصور له جسماً ورآه عياناً؟

فقال: إنما سمع آدم كلامه ولم يره جسماً، وقد رويت في ذلك روايات كذب فيها من رواها، وكيف يقدر مخلوق أن يخلق نفسه على غير مركب خلقه وفطرة جاعله، هذا ما لا يثبت ولا يصح عند من عقل وعرف الحق.

قلت: فقد كان محمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخاطب جبريل ويعاينه على عظيم خلقه وجسيم مركبه؟.

(604/1)

قال: إنما كان جبريل عليه السلام ينزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم في صورة لطيفة يقدر على رؤيتها وعيانها. وصح عندنا أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رأى جبريل في صورة دحية الكلبي، وإنما ذلك خلق أحدثه الله فيه وركبه عليه، لما علم من ضعف البشر، وأنهم لا يقدرون على النظر إلىخلق الملائكة لعظيم خلقهم وجسيم مركبهم، فلما علم الله تبارك وتعالى من محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، ولم يكن جبريل عليه السلام يقدر على تحويل صورته ومركبه من حال إلى حال، لضعف المخلوقين وعجزهم عن ذلك، نقله الله سبحانه على الحالة التي رآه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيها، نظراً منه سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وما فعله الله فليس من فعل خلقه، فلك في هذا كفاية إن شاء الله.

قلت: فهل كان آدم صلى الله عليه طمع في الخلود لما قاسمه إبليس على النصح؟

قال: إنما كان ذلك منه صلى الله عليه طمعاً أن يبقى لطاعة الله ولعبادته، فأراد أن يزداد بذلك قربة من ربه.

قلت: فما معنى قوله: ؟فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا؟[طه: 21] ؟

قال: معنى قوله:؟بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا؟[طه:121] فهو سوء فعلهما، لا كما يقول من جهل العلم وقال بالمحال، إن الله كشف عورة نبيه وهتكه، وكيف يجوز ذلك على الله في أنبيائه، والله لا يحب أن يكشف عورة كافر به، فكيف يكشف عورة نبيه.

قلت: فقوله:؟يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا؟[الأعراف: 27]؟

فقال: قد اختلف في ذلك، ورويت فيه روايات، وأصح ما في ذلك عندنا، والذي بلغنا عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أن لباسهما هو لباس التقوى والإيمان، لا ما يقول به الجاهلون من أنه لباس ثياب، أو ورق من ورق الشجرة، فهذا معنى قوله: ؟يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا؟[الأعراف:27]، وإنما أراد

بذلك من قوله لباسهما أي لباس التقوى بما سول ووسوس لهما من الكذب، والمقاسمة التي سمعها منه.

(605/1)

قلت: فقوله: ؟وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ؟[الأعراف: 22]؟
قال: إنما كانا في الجنة في ظلها، وتحت أشجارها، فلما خرجا منها وأصابتهما الشمس بحرها، ورمض الأرض، فأرادا أن يجعلا لهما موضعاً يكون لهما فيه ظلال كما يفعله من خرج من منزله في سفر، ومن بيته إلى غيره من البوادي وغيرها، فلا يجد ظلاً ولا مسكناً، فلا يجد بداً من أن يعرش عريشاً يكنه ويستره من الحر، ويقيه من شدة البرد، فهذا معنى قوله يخصفان.
قلت: فالجنة التي كانا فيها أفي السماء كانت أم في الأرض؟
قال: هي جنة من جنان الدنيا، والعرب تسمي ما كان ذا أثمار وأنهار جنة.
قلت: فقوله:؟اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً؟[البقرة: 38]؟
قال: ذلك جايز في لغة العرب، ألاَ ترى أنك تقول: هبطنا نجران، وهبطنا اليمن، ونريد أن نهبط الحجاز، فلما كان ذلك معروفاً في اللغة جاز أن يقول اهبطوا منها.
وسألته عن قول الله تبارك وتعالى: ؟فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ؟[البقرة: 37]: ما الكلمات التي تلقاها آدم من ربه؟
قال: قد اختلف فيها، والصحيح عندنا أن الكلمات هو ما كان الله تبارك وتعالى قد أعلمه بخلق من سيخلقه من ذرية آدم ونسله، وأنه سيكون منهم مطيع ومنهم عاص باختيارهم، وأنه سبحانه يقبل التوبة من تائبهم إذا تاب وأصلح وأخلص التوبة وراجع، فلما كان منه ما كان من أكل الشجرة ذكر ما كان الله قد أعلمه من القبول للتوبة، فقالا: ؟رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ؟[الأعراف: 23]، فهذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه صلوات الله عليه.

(606/1)

قصة سليمان عليه الصلاة والسلام

وسألته: عن قول الله سبحانه:؟وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ؟[ص: 34]؟
فقال: معنى قوله: ؟فَتَنَّا سُلَيْمَانَ؟، يقول: امتحناه. وإنما كان ذلك من أجل ما سألته ملكة سبأ من طلبها حين طلبت منه قرباناً تقرب به على ما كانت تفعل في قديم أفعالها، فسألته صلى الله عليه أن

يأذن لها في بقرة فلم يجبها، ثم سألته شاة فكره ذلك عليها، ثم طيراً فأعلمها أن ذلك لا يحل لها، فوقعت في صدرها جرادة، فقالت: فهذه الجرادة أئذن لي فيها، فتوهم وظن أنها مما لا إثم عليها فيها، إذ كانت مما لا تقع عليه ذكاة، فسكت ولم يمنعها عن ذلك، فقطعت رأس الجرادة، وأضمرت أنها قربان. فلما خرج صلى الله عليه يريد أن يتطهر على جانب البحر نزع خاتمه من يده، وكان لا يتطهر حتى ينزع الخاتم من يده – وهذا الواجب على كل متطهر إذا أراد أن يتطهر من جنابة أو غيرها للصلاة أن ينزع خاتمه، أو يديره في إصبعه حتى يصل الماء إلى البشر الذي يكون تحته، وينقي من الدرن ما حوله – فلما نزع الخاتم ومضى لطهوره، خرج حوت من البحر، فابتلع الخاتم وذهب في البحر، فلما فرغ سليمان من طهوره، ونظر إلى الموضع الذي كان وضع فيه خاتمه فلم يجده، فعلم أن ذلك بسبب قد أحدثه، وأن الله سبحانه أراد بذلك فتنته، فدعى الريح فلم تجبه، ثم دعى الطير فلم تجبه، ثم دعى الجن فلم تجبه لما ذهب عنه الخاتم؛ وإنما كان الخاتم سبباً من الله لملكه قد جعله فيه، وبه كان يطاع، فعلم سليمان أن العقوبة قد وقعت.

(607/1)

ووثب العفريت الملعون على سريره عند ذلك، وهو ملكه، وكان يتكلم على شبه كلام سليمان عليه السلام، وهو من وراء حجاب لا يظهر، ولا يُرى له شخص، ودعى فلم يجبه إلا الإنس. ومضى سليمان باكياً نادماً على فعله، وجعل يتبع الصيادين على سواحل البحر يخدمهم ويعينهم وهم لا يعرفونه، ولا يعلمون أنه سليمان. فأقام على ذلك وقتاً اختلفت فيه الرواة، فقال بعضهم: أقام أربعين يوماً، وقال آخرون: بل مكث خمسين يوماً، وقال قوم: سبعين يوماً، وهو أكثر ما قيل فيه، فجعل يتبعهم، ويعمل معهم، ويعطونه في كل يوم حوتين، فيبيع أحدهما فيشتري به خبزاً، ويشوي الآخر فيأكله. فلما علم الله منه التوبة والرجوع، والإنابة والخضوع، أراد أن يرُدَّ عليه نعمته، فانصرف ذلك اليوم ومعه الحوتان اللذان عمل بهما يومه ذلك، فشق بطن أحدهما على ما كان يفعل، فإذا بالخاتم قد خرج من بطن الحوت، فعرف عند ذلك فأخذه وشكر الله وحمده على ما أولاه، ثم دعى الريح فأجابته، وكان قد أبعد من بلده فأمر الريح فاحتملته من ساعته إلى موضعه، وهرب اللعين العفريت لما رآه.

وقال بعض الرواة: إنه كان حبسه ورد الله على نبيه ملكه، ورجع إليه ما كان الله قد أعطاه، فدعى الطير والريح والجن فأجابته ودامت نعمته.

قلت: فالجسد الذي ألقي على كرسيه، هل كان جسما يظهر ويرى؟

قال: لا إنما كان الذي يظهر إليهم منه ما يسمعون من كلامه، وكان مستتراً عنهم، فكانوا يظنون أنه سليمان، وإنما احتجب عنهم لسبب أمر أمره الله به، أو فعل فعله من نفسه، ولو ظهر لهم لبان أمره

عندهم، ولكن تمكن منهم بالتمويه عليهم والمكر لهم.
قلت: فهل نال من الحرم منالاً أو وصل إليهم بسبب من الأسباب؟
قال: معاذ الله أن يكون نال شيئاً من ذلك أو فعله، غير الذي شرحته لك من كلامه فقط.

(608/1)

قصة يونس عليه الصلاة والسلام

وسألته: عن قول الله سبحانه:؟وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ؟[الأنبياء: 87]؟ فقال: أما ذو النون فهو يونس، والنون: فهو الحوت. وأما قوله: ؟إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا؟[الأنبياء:87]، فإنما كان ذهابه غضباً على قومه، واستعجالاً منه دون أمر ربه، لا كما يقول الجهلة الكاذبون على أنبيائه ورسله صلوات الله عليهم، من قولهم إن يونس خرج مغاضباً لربه. وليس يجوز ذلك على أنبياء الله صلوات الله عليهم، وإنما كان ذلك كما ذكرت لك من غضبه على قومه ومفارقته لهم، واستعجاله دون أمر ربه، وهو قوله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ؟وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ؟[القلم: 48] - وهو يونس - يقول: لا تعجل كعجلته، واصبر لأمري وطاعتي، ولا تستعجل كاستعجاله. فهذا معنى قوله: ؟إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا؟[الأنبياء:87]، وهو قوله: ؟فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ؟[الأنبياء: 87] أراد بذلك من قوله: (فظن)، أي: أفظن أن لن نقدر عليه؟ وهذا على معنى الاستفهام، ولم يكن ظن ذلك صلى الله عليه، وهذا مما احتججنا به في الألِف التي تطرحها العرب وهي تحتاج إلى إثباتها، وتثبتها في موضع وإن لم تحتج إليها، مثل قوله: ؟لا أُقْسِمُ؟ وإنما معناها: ألا أقسم، وقوله: ؟وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ؟[البقرة: 184]، فطرح الألف وهو يريدها، ومن ذلك قول الشاعر:

نزلتم منزل الأضياف منا .... فعجلنا القرى أن تشتمونا

وإنما أراد: ألاّ تشتمونا؛ فطرح الألف، ومثل هذا كثير في الكتاب، وهو حروف الصفات.
فلما صار يونس في السفينة وركب أهلها، واستقلت بهم وطابت الريح لهم، أرسل الله حوتاً فحبس السفينة، فعلم القوم عند احتباسها أنها لم تحبس بهم، إلا بأمر من الله قد نزل بهم، فتشاور القوم بينهم، وتراجعوا القول في أمرهم، وماقد نزل بهم وأشفقوا.

(609/1)

فقال لهم يونس: يا قوم أنا صاحب المعصية، وبسببي حبست بكم السفينة، فإن أمكنكم أن تخرجوني إلى الساحل فافعلوا، وإن لم يمكنكم ذلك فالقوني في البحر وامضوا.

فقال بعضهم: هذا صاحبنا وقد لزمنا من صحبته ما يلزم الصاحب لصاحبه، وليس يشبهنا أن نلقيه في البحر فيتلف فيه على أيدينا ونسلم نحن، ولكن هلموا نستهم، فمن وقع عليه السهم ألقيناه في البحر.

فتساهم القوم، فوقع السهم على يونس، ثم أعادوا ثانية فوقع عليه، ثم أعادوا ثالثة فوقع السهم على يونس، فرمى بنفسه، فالتقمه الحوت ومضى في البحر، وكان يونس صلى الله عليه ينظر إلى عجايب البحر من بطن الحوت، وجرت سفينة القوم بهم.

(610/1)

قال: ولبث يونس صلى الله عليه في بطن الحوت ما شاء الله من ذلك، فاستمط شعره وجلده، حتى بقي لحمه، ومنع الله منه الموت، فلما علم الله توبته، وقد نادى بالتوبة: ؟أَن لاَّ إِلَهَ إلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؟[الأنبياء: 87] فاستجاب له وتقبل توبته، ورحم فاقته. فأرسل ملكاً من الملائكة، فساق ذلك الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فألقى يونس من بطنه، وقد ذهب شعره وجلده، وذهبت قوته، فرد الله جسمه على ما كان عليه أولاً من تمام صورته، وحسن تقويمه، وأنبت الله له شجرة اليقطين، وهي الدباء فكان يأكلها. فلما اشتدت قوته، واطمأن من خوفه وإشفاقه، أرسله الله إلى قومه، وكانوا في ثلاث قرى، فمضى إلى أول قرية فدعاهم إلى الله وإلى دينه، فأجابه نصفهم أو أكثر من النصف، وعصاه الباقون، فسار بمن أطاعه إلى العصاة لأمره، فحملهم عليهم وقاتلهم، فقتلهم وأبادهم. وسار إلى القرية الثانية، فدعا أهلها وأعذر إليهم وأنذرهم، فأجابه منهم طائفة، فحمل المطيع على العاصي، فقتلهم وأبادهم. ثم سار إلى القرية الثالثة، وكانت أعظمها وأشدها بأساً ومنعة، فدعاهم إلى الله وأعذر إليهم وأنذر، وحذر ما حل بإخوانهم، فلم يجبه منهم أحد، واستعصموا على كفرهم، فسار إليهم وخرجوا إليه، فحاربهم فلم يقدر عليهم. فلما كان بعد وقت وعلم الله منه الصبر على ما أمره به من طاعته، والإعذار إلى خلقه، أمر الله جبريل صلوات الله عليه، فطرح بينهم ناراً، ثم أرسل الرياح فأذرت النار عليهم وعلى منازلهم ورحالهم، فأحرقتهم جميعاً ودمرتهم، فهذا ما سألت عنه من خبر يونس عليه السلام.

(611/1)

قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

وسألته: عن قول أيوب صلوات الله عليه: ؟إِذ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ؟[ص: 41].

فقال: معنى قوله: ؟مَسَّنِيَ؟فهو ما كان من كلامه ووسوسته له، وذلك أن أيوب صلى الله عليه كان قد جعل ضيافة أضيافه إلى امرأته، فأتاه إبليس اللعين، فقال: يا أيوب إن امرأتك قد فضحتك اليوم في أضيافك. فأتاها فقال: ما الذي حملك على أن تفضحيني في أضيافي، أقسم لأضربنك مائة ضربة بالعصى.

فلما هم بالذي أقسم به من ضربها، أتاه الملعون إبليس، فقال: يا أيوب، سبحان الله! أيحل لك أن تضرب امرأة ضعيفة، لم تجرم جرماً ولم تأت قبيحاً، ولم تفعل أمراً تستحق به منك ضرباً، وليس لها قوة على ضربة واحدة، فكيف مائة ضربة، فلا تهلكها وتأثم بربك في أمرها.

فلما تركها وكف عنها، أتاه من موضع آخر، فقال: يا أيوب، سبحان الله! كيف يحل لك أن تقعد عنها وقد حلفت لتضربنها، ولا ترجع عن يمينك، وتأثم بالله ربك. فلما رجع إليها ليضربها أتاه بالوسوسة على مثل الذي أتاه أولاً؛ فلم يزل يفعل كذلك حتى دخله الغم، وعظم عليه الأمر؛ فانقلب على ظهره، وجعل يفكر وينظر، وخالطه من الوسوسة ما غلبه على أمره.

فلم يزل كذلك حتى تقرح ظهره، ولزمه المرض العظيم، واشتد به الأمر، وتمادت به العلة، وذهبت ماشيته، وافترق ماله، ومات أولاده، ومرضت المرأة من الغم والحزن.

فلما رأى ذلك من كان معه في المنزل أخرجوه صلى الله عليه إلى ناحية منه على خط الطريق، وليس يقدر أن يرفع يداً ولا رجلاً، واشتد به البلاء وهو مع ذلك صابر محتسب.

فلما كان يوم من الأيام مضى به نفر؛ فلما رأوه ونظروا إلى ما هو فيه من عظيم البلاء وشدة النتن، قالوا: والله لو كان هذا ولياً لله لأجابه ولكشف ضره، ولما أصابه شيء من هذا.

(612/1)

فلما سمع ذلك من قولهم نادى ربه: ؟أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ؟[ص:41] فجاز أن يقول: مسني الشيطان، لما أن كان ذلك من وسوسته وكيده وسببه، فاستجاب الله له فقال: ؟ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ؟[ص: 42]، ولم يقدر أن يرفع يداً ولا رجلاً فضرب بعقبه، فانبثقت عليه عين ففارت وارتفعت، حتى كانت أكبر من جلسته، فجعلت تنسكب عليه، وهو يغتسل بمائها وهي تقلع عنه كل ميت، وتنفي عنه ما كان به من الأقذار، وتميط عنه الأذى، وجعل يشرب منها ويخرج ما في جوفه من العلة، حتى نقي بدنه، ورجع إلى أفضل ما كان عليه أولاً، ورد الله عليه أهله وماله، وأمره أن يأخذ ضغثاً، فيضرب المرأة كفارة اليمين التي حلف.

فقال بعض الرواة: إنه أخذ من هذا الذي يكون فيه التمر، فجمع منه مائة عصا فضربها ضربة.

وقال بعضهم: إنه ضربها ضربتين، واختلف في ذلك، غير أن الصحيح من ذلك أنه قد جمع ضغثاً فضربها به.

قلت: فإبليس كيف كان إتيانه إلى أيوب صلى الله عليه؟

قال: لم يره عياناً، وإنما سمع كلامه ولم ير شخصه. وقد قال بعض الجهلة إنه تصور له في صورة غير صورته، وليس ذلك كما قالوا، وكيف يقدر مخلوق أن يغير خلقته، ويحول نفسه صوراً مختلفة، وليس يقدر على ذلك إلا الله رب العالمين الذي خلق الصور والأجسام، ونقلها من حال إلى حال، فسبحان الله رب العرش عما يصفون، ولا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

(613/1)

قصة يوسف عليه الصلاة والسلام

وسألته: عن قول الله سبحانه في يوسف صلى الله عليه من قوله: ؟وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ؟[يوسف: 24]، كيف كان همها به وكيف هم بها؟

فقال كان همها هي: هم شهوة ومراودة، وكان همه هو بها: هم طباع النفس والتركيب. ألاَ ترى أنك إذا رأيت شيئاً حسناً أعجبك وحسن في عينك، وإن لم تهم به لتظلمه، وتأخذه غصباً من أهله.

وكذلك إذا رأيت طعاماً طيباً، أو لباساً حسناً أعجبك، وتمنيت أن يكون لك مثله، وأنت لا تريد بإعجابك به أخذه ولا أكله، إلا على أحل ما يكون وأطيبه، ولم ترد بقولك إنك تأكله أو تلبسه أو تنكحه إلا حلالاً.

قلت: بلى.

قال: فكذلك كان هم يوسف صلى الله عليه في زوجة الملك.

قلت: قد سمعنا بعض الرواة يذكر أنه منع يوسف عليه السلام من إتيانها أنه رأى يعقوب صلى الله عليه كأنه يزجره عنها ويخوفه.

قال: قد قيل فيه شبيهٌ من ذلك، وليس القول فيه كذلك، وحاشا الله أن ينسب ذلك إلى نبيء الله.

قلت: فقد كان يروى لنا ذلك بين الملأ، ونتحدث به في المساجد.

قال: قد ذكر ذلك جل الله وتعالى عن كل ما يقول فيه الملحدون، وينسب إليه الضالون. وليس قولهم هذا في أنبياء الله ورواياتهم الكاذبة عليهم بأعظم من كذبهم وجرأتهم على الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ألاَ ترى كيف شبهوه بالأشياء من خلقه، وجعلوه جسماً ذا أعضاء وأجزاء مختلفة، فتعالى عن ذلك من ليس كمثله شيء.

ولقد ناظرت رجلاً ممن ينتحل التشبيه فألزمته أن يقول إن الله مخلوق أو ينفي عنه التشبيه، فاختار

أن يجعله مخلوقاً، وكره أن ينفي عنه التشبيه، فهذا أعظم الأمور وأقبح الأقاويل كلها.
قلت: فالبرهان الذي رآه يوسف صلى الله عليه ما هو؟

(614/1)

قال: هو ما جعل الله فيه من علمه، وخصه به من المعرفة والخوف في علانيته وسره، وإنما كان ذلك ابتداء منها ومراودةً له على نفسه كان من قولها له أن: يا يوسف إن لم تأتني أتيت أنا إليك، فقال: معاذ الله من ذلك، فقامت فأرخت ستراً كان على باب البيت، وكان في البيت صنم لها تعبده من الذهب له عينان من ياقوتتين حمراوين، فكانت تستحسنه وتعبده.
فقال يوسف صلى الله عليه: لم أرخيت هذا الستر؟
فقالت: إني خفت أن يراني هذا الذي في البيت فأرخيته حياءً منه، وإجلالاً له.
فقال لها: فإذا كنت تستحين من صنم لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع؛ فكيف لا أستحي أنا من الذي خلقني وخلقك، وخلق هذا الذي تخافين منه وتستحين، بل أخاف وأستحي من الذي خلقني وخلقكم، وهو خالق السموات والأرضين. ثم نهض منها هارباً بنفسه، فلحقته إلى باب الدار، فقدت قميصه، وألفيا سيدها لدى الباب، وهو زوجها الملك، وذلك أنهم كانوا يسمونه السيد لموضعه عندهم، ورفعته فيهم.
فقالت له: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أوعذاب أليم.
قال يوسف: هي راودتني عن نفسي.

(615/1)

فتحير الملك واشتبه عليه الأمر، وكثر فيه القول، فذكر بعض الرواة أن الذي حكم في ذلك صبي صغير كان في المهد، واختلف فيه، والذي صح عندنا في ذلك أنه كان صبياً قد عقل، وهو من أبناء خمس سنين أوشبيهٌ بها، فأتي به إلى الملك فقال: إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت هي فيما ذكرت من مراودته لها على نفسها، وإن كان قميصه قد من دبرٍ فكذبت هي فيما ادعت وهو من الصادقين في قوله ومراودتها له عن نفسه. فأتي بالقميص إلى الملك فنظر إليه فإذا هو مقدود من دبره، فقال: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم، ثم بدا لهم من بعد ذلك، فألقي في السجن، وكان في السجن رجلان من خدم الملك، فلما كان من إعلامه لهما بتأويل رؤياهما على الحقيقة بعينها. فلما رأى الملك رؤياه أتى أحد الرجلين إلى يوسف، فقص عليه ذلك، فأخبره بتأويله، فلما انتهى ذلك إلى

الملك بعث إلى النسوة يسألهن عن خبره، فقالت امرأة العزيز: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تبرأ منه وأنكره، ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إن النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إن رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[يوسف: 52]، فهذا ما كان من خبره عليه السلام

(616/1)

قصة داود عليه الصلاة والسلام

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إذ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[ص:21]، إلى قوله: ﴿خَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[ص:24].

فقال: هذا خبر من الله سبحانه عما نبه به نبيئه داود صلى الله عليه على أمنيته من نكاح امرأة أوريا. وذلك أنه لما سمع الطير أشرف به الطير على رأس جدار، فأشرف داود ينظر أين توجه الطير، فوقعت عينه على امرأة أوريا وهي حاسر، فرأى من جمالها ما رغبه فيها، فقال لوددت أن هذه في نسائي، ولم يكن منه غير هذا التمني. وكل ما يروى عليه من سوى ذلك فهو باطل كذب. فلما أن تمناها نبّهه الله وعاتبه في السر، وقد أعطاه أكثر من حاجته؛ فبعث إليه ملكين، فتمثلا في صورة آدميين، فتسورا عليه من المحراب وهو يصلي، فدخلا عليه ففزع منهما، وظن أنها داهية قد دهته، وعدوٌ قد هجم عليه في محرابه في وقت خلوته، فقالا له: ﴿لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إلى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾. يريد: أن لا تشطط، أي: لا تمل مع أحدنا، فتشطط على الآخر. ومعنى تشطط: فهو تشدد على أحدنا في غير حق. سواء الصراط: فهو معتدله ومستقيمه ووسطه وقيّمة. والصراط: فهو طريق الحق هاهنا وأوضحه.

(617/1)

وكان لداود صلى الله عليه تسع وتسعون منكحاً من الحراير والإماء، وكان لأوريا هذه المرأة وحدها، فمثلا أنفسهما لداود بداود وأوريا. فقال أحدهما: ﴿إن هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ – ومعنى اكفلنيها: فهو ابتعنيها، وزدنيها إلى نعاجي – ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، يقول: شطني في الطلب وألح في تمنيها وطلبها. وذلك أنها لم تكن تسقط من نفس داود من يوم رآها يتذكرها ويتمناها، فقال داود صلى الله عليه: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ وإن كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾. فلما قال هذا

لهما تغيبا من بين عينيه، فإذا به لا يبصرهما ولايراهما؛ فعلم عند ذلك الأمر كيف هو وأنهما ملكان، وأن الله بعثهما إليه لينهياه من غفلته، ويقطعان عنه بذلك ما في قلبه من كثرة تذكره امرأة صاحبه، فأيقن أنهما فتنة من الله، والفتنة هاهنا فهي المحنة.

ومعنى ظن داود: فهو أيقن داود بذلك من الله؛ فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب إليه من ذلك التمني والذكر لهذه المرأة،فلم يذكرها بعد ذلك اليوم، حتى زوجه الله إياها حين أراد تبارك وتعالى، من بعد أن اختار لأوريا الشهادة فاستشهد، وصارت إليه. فمن بعد ذلك زوج الله داود امرأة أوريا، وبلغه أمله وأعطاه في ذلك أمنيته، فجاءه ذلك وليس في قلبه لها ذكر، ولا إرادة ولا تمني. ولم يكن لداود صلى الله عليه في أوريا ولا قتله شيء مما يقول المبطلون من تقويمه في أول الحرب، ولا ما يذكرون من طلبه وتحيله في تلفه بوجه من الوجوه ولا معنى من المعاني. كذب العادلون بالله، وضل القائلون بالباطل في رسول الله صلى عليه وسلم فهذا تفسير الآية ومخرج معانيها.

(618/1)

طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وسألته عن قول إبراهيم صلوات الله عليه: ؟رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي؟[البقرة: 260].

قال إنما أراد بذلك صلى الله عليه أرني آية أزداد بها علماً وبصيرة، وأعرف سرعة الإجابة لي منك، حتى يثبت ذلك عندي، ويقر في قلبي معرفة من ذلك. فأمره الله سبحانه أن يأخذ أربعة من الطير، وأن يجعل على كل جبل منهن جزأً، ثم أمره أن يدعوهن ليريه من عجيب قدرته وشواهد حكمته ما يزداد به معرفة في دينه، ويثبت عنده علم ما يسأل عنه من آيات ربه، فأراه الله ذلك؛ فازداد بصيرة وإيقاناً، ومعرفة وبياناً.

(619/1)

طلب موسى عليه الصلاة والسلام

وسألته عن قول موسى صلى الله عليه: ؟رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ؟[الأعراف: 143].

قال: معنى قوله ؟أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ؟: فهو أرني آية من عظيم آياتك، أنظر بها إلى قدرتك، وازداد بها بصيرة في عظمتك وقدرتك، فقال: ؟لَن تَرَانِي؟، يقول: لن تقدر على نظر شيء من عظيم الآيات التي لو رأيتها لِضعف جسمك، ولطف مركبك، ولأهلكتك ولما قدرت على النظر إليها لعجزك

وضعف مركبك، ولكن انظر إلى هذا الجبل الذي هو أعظم منك خلقاً، وأكبر منك جسماً؛ فإن استقر مكانه إذا أريته بعض ما سألتني أن أريكه فسوف تراني، يقول: فسوف ترى ما سألت من عظيم الآية، ولن تقدر على ذلك أبداً، ولا تقوم له أصلاً. ؟فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا؟، معنى تجلى: أي أظهر آيته، وأبان قدرته جعله دكاً. ؟وَخَرَّ موسَى صَعِقًا؟، يقول: مغشياً ميتاً لما رأى من الهول العظيم الذي لا يقدر على رؤيته لعجزه وضعفه.

وإن كان الذي أظهره الله وأبانه وأتى به من لطيف آياته، فجاز أن يقول: تجلى ربه لها لما كان ذلك من فعله وتدبيره، وأمره وإرادته وهو كقوله: ؟هَلْ يَنظُرُونَ إلا أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ؟[البقرة: 210]، يقول: تأتيهم الآيات، وما يريد أن يحل بهم من العذاب والنقم والآفات.

وقوله: ؟وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ؟[القيامة: 22 – 23]، فمعنى قوله ناضرة: يقول: نضرة مشرقة حسنة، وهذا معروف في اللغة والبيان؛ تقول العرب للرجل إذا أرادت له خيراً: نضر الله وجهك.

وقوله ؟إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ؟: أي ناظرة لثوابه، وما يأتيهم من خيره وفوائده. ومن ذلك ما يقول العرب: قد نظر الله إلينا؛ وقد نظر الله إلي بني فلان؛ إذا أصابهم الخصب بعد الجدب، والرخاء بعد الشدة، وإنما أراد بذلك أن الله قد رحمهم، وأتاهم بالنعمة.

(620/1)

فلما أفاق موسى صلى الله عليه قال: ؟سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ؟[الأعراف: 143]، يقول: لو ابتليتني وأريتني وأظهرت لي من بعض ما سألتك مما أهلكت به الجبال الراسية لما قام بها جسمي، ولأهلكتني بقليلها ولما احتمل ذلك لطيف خلقي، وضعف مركبي، أنظر إلى عظيم ما ذهبت به الجبال الراسية، فلك الحمد على ما صرفت عني من ذلك رحمة منك بي، وتفضلاً علي وزيادة وإحساناً إلي.

فهذا معنى قوله:؟أَنظُرْ إِلَيْكَ؟، لا ما ذهب إليه من جَهل، وزعم أن الله يُرى، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، كيف وهو يقول في كتابه: ؟لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟[الأنعام:103].

(621/1)

آيات موسى التسع

وسألته عن قول الله سبحانه: ؟وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ؟[الإسراء: 101] ما الآيات التي آتاه الله تعالى؟

فقال: العصى التي تلقف ما يأفكون.

ومنها اليد البيضاء، وهو قوله: ؟وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ؟[النمل: 12].

ومنها الكلام الذي سمعه من الشجرة.

ومنها الكلام الذي سمعه من النار.

قلت: وما سمع منها؟

قال: قول الله في كتابه: ؟فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟[طه: 11].

قلت: فما معنى قوله: ؟أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ؟[طه:11]؟

قال: أما قوله: ؟مَن فِي النَّارِ؟، فإنما أراد بذلك ما سمع من الكلام في النار. وأما قوله: ؟وَمَنْ حَوْلَهَا؟، فهو من حضر من الملائكة حول النار.

ومنها الحجر التي كان يحملها على حماره من مكان إلى مكان، وكانت حجراً ململمة لا صدع فيها، فكان إذا احتاج إلى الماء ضربها بالعصاء فانبجست بالعيون، ثم يدفنها فيخرج الماء من كل جانب منها، فإذا استغنى هو وأصحابه أخرجها، فرجعت على حالتها أولاً، ثم حملها معه.

ومنها البحر الذي ضربه بالعصا فانفلق حتى سار في وسطه هو وأصحابه بأمر الله سبحانه، حتى خرج آخر أصحابه، ودخل آخر أصحاب فرعون تباعاً لموسى وقومه، فأغرق الله فرعون وقومه، ونجى نبيه عليه السلام والمؤمنين.

ومنها طور سيناء.

وقد قيل والله أعلم: إن من الآيات التي أتاه الله الجراد والقمل والضفادع والدم. ولا ندري ما صحة ذلك، غير أن الصحيح ما ذكرت لك أولاً وهو بيّن نيّر.

(622/1)

معنى قوله تعالى: ؟وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ؟ الصافات:96

وسألته عن قول الله سبحانه: ؟وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ؟[الصافات:96]؟

قال: الذي عنى بذلك سبحانه فهي الحجارة التي ينحتونها أصناماً، ويعملونها لهم ألهة، وما أشبه ذلك من الأنصاب التي يعبدونها، فهذا معنى: ؟وَمَا تَعْمَلُونَ؟، فالله خلقهم ومفعولهم، ولم يخلق سبحانه فعلهم، والمفعول فهو الصنم الذي تنحتونه من الحجارة، وفعلهم فهو الحركة التي كانت منهم

من الرفع والوضع والنحت، فالله خلق الحجر الذي عملوه صنماً، ولم يخلق الفعل الذي كان منهم في نحت الحجر.

(623/1)

حال النبي محمد صلى الله عليه وعلى آله قبل البعثة

وسألته صلوات الله عليه عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ما كان عمله قبل أن يتنبأ وهل كان على شريعة عيسى صلى الله عليه أم لا؟

فقال: سألت عن أمر محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإنما كان على ما كان عليه الأنبياء من قبله منذ خلق الله آدم إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من الإقرار بالله والتوحيد له، والتعظيم والإجلال والمعرفة به وبعدله، وأنه ليس كمثله شيء، وأنه خالق كل شيء سبحانه وتعالى. وكان مقراً بالأنبياء كلهم، غير جاحدٍ لنبوتهم. وكان صلى الله عليه وآله وسلم ينظر ما يأتي به أهل الكتاب من عظيم محالهم، وقبيح فعالهم، الذي ذكره الله سبحانه عنهم وذمهم عليه، فكان ينكر فعلهم، ويذم جرأتهم على ربهم، ولم يكن صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ التوراة ولا الإنجيل، ولا يحسن ترجمتهما، وكان يعيب أفعال الذين يقرأونهما لما يأتون به من الأمر الذي لا يرضاه الله، ويستنكره عقله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن معهم في شريعتهم. وكان في أصل المعرفة بالله كمعرفة عيسى عليه السلام، مقراً عالماً بأن كل ما جاء به موسى وعيسى حق صلى الله عليهم جميعاً.

(624/1)

تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله

وسألته عن تفسير: لا حول ولا قوة إلا بالله؟

فهو لا حول ولا محال، ولا إدبار، ولا إقبال، إلا بالله. ومعنى: إلا بالله فهو إلا بتمكين عباده. وذلك الحول بما جعل فيهم من الاستطاعة. ولا مقدرة على شيء من الأشياء إلا بما جعل الله من ذلك في تلك الأعضاء، وأعطى خلقه في كل ذلك من الأدوات والأشياء، التي تكون فيهم، بها القوة والحول، وينالون بوجودها ما يحبون من فعل وطول.

(625/1)

تفسير العرش والكرسي

وسألته عن تفسير العرش والكرسي؟

فقال: معناهما واحد، وهو الملك الذي على كل شيء ملكه واقتهاره. ألاَ تسمع كيف يقول سبحانه إن كل شيء من الأشياء من الأرض والسماء في عرشه وكرسيه فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة: 255]، فأخبر أن الكرسي – الذي هو العرش – واسع على السموات والأرض، وإذ قد وسعهما بشهادة الله سبحانه فقد دخلتا فيه، وحازهما وأحاط بهما. وإذا كان ذلك بقول الله سبحانه فهما فيه لا هو فيهما، وهو المحيط بهما لا هما المحيطتان به. وإذ قد كان ذلك كذلك، فقد بطل ما يقول الملحدون، وزال ما يصف المشبهون، وثبت ما يقول الموحدون، من أن العرش هو الملك والإحاطة من الله سبحانه، ونفاذ الإرادة ومضى المشيئة في السموات والأرض وما فيهن، وأن ملكه المحيط بهن وعليهن، والمحيط بهن فهو كرسيه وعرشه.

(626/1)

الرجل يكتفي باليسير ولا يطلب العلم

وسألته عن الرجل يقول: قد فهمت وعرفت ما افترض الله عليّ، فأنا أكتفي باليسير، ولا أتعب نفسي بتعلم الكثير، وأنا أقوم بحلال الله وحرامه؛ فهذا يجزيني عن طلب غيره من العلم؟

الجواب في ذلك أن الله عز وجل لم يغفر لأحدٍ بالجهل، فالواجب عليه أن يكون عمره كله في طلب الخروج من الجهل إلى العلم، وفي ذلك ما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((اغد عالماً أو متعلماً ولا تكن الآخر فتهلك.))، يعني: الممسك عن طلب العلم.

(627/1)

الرجل لا يستطيع الهجرة مخافة التلف

وسألته عن رجل ساكن في بلدة، وقد تولى أمر البلد سلطان ظالم، والسلطان يقتضي منه جباية من غير طيب من نفسه، وهو يخاف إن خرج من البلد على نفسه التلف؟

الجواب في ذلك: إن كانت مخافته على نفسه مخافة أن يجوع في الأرض أو يعرى، أو يتلف إذا خرج من تلك البلدة؛ فليس هذا له بعذر؛ لأن الله عز وجل يرزقه في بلده وغيرها. وإن كان يخاف

أن يظفر به سلطان بلده فيقتله إن خرج، ولم يكن له حيلة في الانسلال عنه، وكان لا محالة واقعاً في يده إن خرج؛ فله في ذلك العذر إلى أن يأتيه الله عز وجل بفرج. وإن قدر وأمكنه أن لا يعمل عملاً يأخذ منه فيه السلطان فليفعل.

(628/1)

تفسير قوله تعالى: ؟تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء؟

وسألته عن قول الله سبحانه: ؟تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء؟[آل عمران: 26؟]

والملك هاهنا الذي يؤتيه من يشاء فهو جبايات الدنيا وأموالها. والذين يشاء أن يؤتيه إياهم فهم الأنبياء ثم الأئمة من بعدهم. والذين يشاء أن ينزعه منهم فهم أعداؤه من جبابرة أرضه.

ومعنى ؟تُؤْتِي الْمُلْكَ؟: فهو الحكم بالملك لهم صلوات الله عليهم. فمن حكم الله له بالنبوة أو بالإمامة حكماً، وأوجب له الطاعة على الأمة باستحقاقه لذلك الموضع إيجاباً، فقد آتاه الملك؛ لأن الملك هو الأمر والنهي، والجبايات والأموال التي تقبض التي بها قوام العساكر، واتخاذ الخيل والرجال والسلاح من جميع أداة الملك. فمن أجاز الله له قبض جبايات الأرض وإقامة أحكامها وحدودها، وأوجب له الطاعة على أهلها فقد آتاه الملك حقاً. أولئك هم السابقون بالخيرات صلوات الله عليهم. ومن لم يحكم له بشيء من ذلك، ولم يجز له ولم يطلق يده، ولم يوجب له الطاعة على أحدٍ من خلقه، فقد نزع الله ملك أرضه منه، وأبعده عنه. أولئك أعداؤه وجبابرة أرضه، الحاكمون بغير حكمه، المغتصبون لما جعل سبحانه لأوليائه، المنفذين لما حكم به في خلقه وبلاده، أولئك يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً. فسبحان من لم يقض بشيء من ذلك لأعدائه، ولم يؤثر غير أوليائه.

وفي نفي الحكم منه لشيء من ذلك لأعدائه ما يقول لنبيئه إبراهيم عليه السلام: ؟لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ؟[البقرة:124]، والعهد فهو العقد بالإمامة والحكم لهم بالطاعة. ومعنى: ؟لاَ يَنَالُ عَهْدِي؟ فهو لا يبلغهم ولا يجيزهم.

(629/1)

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((اللوح علم الله، وكرسيه علمه، اللوح علم الله الذي وسع كل شيء ما كان أو سيكون.)).

وله صلوات الله عليه:

الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

يُسأل من قال: إن بعض القرآن قد ذهب؛ وأنكر أن يكون هذا القرآن الذي في أيدي الناس هو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعينه، لم يزد فيه ولم ينقص منه، فيقال له: خبرنا عن حجج الله سبحانه على عباده ما هي؟ وكم هي؟ فلا يجد بدًا أن يقول: هي الكتاب، والمرسلون، والعقول، والأئمة الهادون.

فإذا أقر بذلك، وكان الأمر عنده كذلك، قيل له: أليس في كل حجة لله فروض له مؤكدة لا بد من العمل بها واستعمالها؟

فإن قال: لا؛ كفر ، وإن قال: نعم؛ قيل له: ما فرض كل واحدة منهن الذي لا بد من استعمالها به؟ وما معنى جعل الله لها؟

فإن كان جاهلاً جهل ذلك، وإن كان عالما أجاب في ذلك بالحجة والصواب، فقال: حجة العقول ركبت وجعلت لتدل على خالقها بما تستدركه من مجعولات جاعلها، وتميزه من فعل فاعلها، جعلت للإقرار بالله، والتمييز بين الأمور، ومعرفة الخيرات والشرور. والأنبياء فأرسلت تدعو إلى الله تنذر يوم التلاق، وتحتج على العباد للواحد الخلاق، وتبين لهم ما فيه يختلفون، وما إليه من العمل يدعون. والأئمة من بعد الرسل فجعلت لتدل على شرائع الأنبياء، وتحكم بالحق بين العباد، وتنفي من الأرض الغي والفساد. وأما الكتب ففيها فرائض الرحمن وحججه، وحلاله وحرامه، وتبيين ما أحل الله لعباده، وما حرم عليهم. وما أمرهم به، وما نهاهم عن فعله، وما وكد من أحكامه فيهم، وما أوجب في كل الأسباب عليهم، ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال: 42].

فإذا قال بذلك، قيل له: ويحك ما أغفلك، وأبين حيرتك، وأظهر جهلك، وأقل علمك بما تذكر من قولك، وتقول إن الكتب عندك على ما ذكرت وفسرت، وقد تعلم أن أعظم الكتب كتاب محمد عليه السلام، الذي جعله الله نوراً وهداً وتبياناً، ورحمة وشفاء فرض فيه الفروض، فأصل فيه الأصول، وبين به حلاله وحرامه، وفي ذلك ما يقول جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟مَّا فَرَّطْنَا فِي

الكِتَابِ مِن شَيْءٍ؟[الأنعام: 38]، ويقول سبحانه:؟وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً؟[النحل: 89]، ثم أمر رسوله باتباعه، والانقياد لما فيه، فقال: ؟اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ؟[الأنعام: 106]، ثم تقول بعد: (إنه قد ذهب بعضه، ولم يبق إلا أقله)، وهو دعائم الرحمن، وفيه ما يحتاج إليه من أمور الله في كل شان، فإن كان ذلك عندك كذلك، فقد ذهبت أكثر فرائض الله سبحانه، وعدمت حجته، فتركت، وعطلت، ورفضت، واستبدلت بنور الحق وبهجته حيرة الباطل وظلمته، فلا ذنب للعباد فيما جهلوا من الحق، وارتكبوا من الفساد، وتركوا من فرايض الله التي قد ذهبت مع ذهاب عامة كتابه، إذ هم عنها غافلون، ولها جاهلون، إذ لم يجدوها ولم يطلعوا عليها، ولم يعلموها.

(632/1)

ما يلزم القائل بذهاب بعض القرآن

ومن قال بذهاب بعض القرآن دخل عليه بقوله الفساد في أمره ودينه، حتى لا تقوم له حجة، ولا تثبت له بينة؛ وذلك أنه لو قال له قائل: (أنت أيها المناظر تزعم أن القرآن قد ذهب منه بعضه، لا بل تقول ذهب أكثره وأنت تعلم أن القرآن ناسخ ومنسوخ، وأمر ونهي، وخبر، وهذه الفرائض التي في هذه البقية التي بزعمك بقيت في أيدي الناس فهي منسوخه كلها، ليست بمبينة الحكم، والمبينة للحكم فهي ما نسخها مما قد ضل وذهب.)، لقطعه، وأفسد ما في يده من قوله: (القرآن قد ذهب بعضه)، واضطره إلى أن يبطل ما في القرآن من هذه الأحكام المعروفة عند جميع أهل الإسلام، أو يرجع إلى الحق، ويقول في القرآن بالصدق، ويقر أنه هو بعينه لم يذهب منه شيء، وأنه محفوظ ممنوع من كل غي. وإنما ألزمناه ذلك؛ لأنه يزعم أن بعض القرآن قد ذهب، ومن قال بذلك لم يدر أهذه الفرائض التي في الكتاب الذي في أيدي المسلمين منسوخة أم ناسخة، وأن من لم يعلم ذلك علما يقيناً لم يجب عليه الإقرار بما لا يوقنه، فضلا عن العمل به.

(633/1)

بل لو كابره مكابر مخالف فقال له: (عندي ما ذهب من القرآن، وأنا أقيم عليه وأقيمه، وهو ناسخ لكل ما في هذه البقية، فأنا لا أقيم هذه الأحكام التي قد نسخت، وأقيم الأحكام التي نسخَتْها، وأعبد الله سبحانه بالفرائض التي ذهبت من هذا القرآن، الناسخة لهذه البقية في أيدي الناس، وأنا بذلك عالم؛ لأنه عندي وفي يدي)، ثم ذكر وادعى أن الفرض في الصيام هو صيام رجب، وأن صوم

رمضان منسوخ، كما نسخ غيره من الصلاة إلى بيت المقدس وغير ذلك من الأحكام، وقال: أنا لا أصلي الصلاة في أوقاتها التي سميت في هذه البقية؛ لأن هذه التي معك منسوخة، نسختها الأحكام التي ضلت وذهبت. وقال: إنه لا يُجلد الزاني، ولكن تُقطع يده، ولا يُقطع السارق ولكن يُجلد مائة جلدة. وادعى أن هذا الحكم مثبت فيما ذهب من القرآن، وأنه قد فهم ذلك منه وعلمه، وقال: إن حكم السارق والزاني في هذه البقية التي تزعم أنها بقيت في أيدي الناس منسوخ، نسخه ما جهل من القرآن وذهب، فأنا أعمل بالناسخ، وأترك المنسوخ. وكذلك يعارضه في كل فرايض القرآن. فإذا عارضه معارض بهذا القول لم يكن له بدٌ أن يدفعه بها، صغرت أو كبرت؛ لأنه قد أجابه، وأجمع معه على أن القرآن قد ذهب بعضه، بل عامته في زعمه، ولو كان القرآن كذلك، لكان الناس كلهم قادرين على ادعاء ما أحبوا أن يدعوا من ذلك، ولبطلت فرائض الله وحدوده، ولم يقم لله حد على عباده؛ لأن ما قال من ذلك – لو كان – يدرء الحد، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ادرءوا الحدود بالشبهات.)) وهذا القول الفاسد، المحال، الكاذب، المضل، الضال، فلو أجاب إليه المسلمون قائله، أو جاز أن يقول به المؤمنون، لوجب عليهم وعلى إمامهم أن يأتوا بناسخه ومنسوخه، وجميع ما ذهب منه، وإلا فلم يجب لهم على كل ذي حدٍ يد؛ لأن كل ذي حدٍ – وجب عليه في شيء أحدثه – يزعم ويدعي أن حكم الله بالأدب في ذلك منسوخ، ويقول إنه لا يحد بهذا الحد في هذا الجرم، وإن حده

(634/1)

غير هذا الحد الذي في هذه البقية بزعم من يزعم أن القرآن ناقص، ويقول: هلموا ما ذهب منه فاتلوه، فإن لم تجدوا فيه ما ينسخ هذا فحدوني، وإن وجدتم فيه ما أدعي فخلوني. فتعالى الله عما يقول فيه المبطلون علواً كبيراً، والحمد لله رب العالمين كثيراً، الحافظ لكتابه، المانع له من كل خطأ وزلل أو ذهاب أو نقصان.

(635/1)

حفظ الله لكتابه

وكيف يذهب من القرآن قليل أوكثير وهو حجج الواحد اللطيف الخبير، وفيه فرائضه على الخلق سبحانه، فقد حفظ ومنع من كل شان من الشان، فيا ويل من قال بنقصان الفرقان، أما سمع قول الواحد الرحمن: ؟بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ؟[البروج: 21 – 22]، فأخبر أن القرآن عنده

محفوظ له جل جلاله، وفيه مايقول: ؟وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ؟[فصلت: 42]، ويقول سبحانه: ؟إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ؟[الحجرات: 9]، فأخبر أنه لِما نزل من الذكر حافظ. ولم يلفظ بغير الحفظ فيه لافظ إلا عم جاهل، وعن الرشد والحق زائل، ولقول الله مبطل معاند، ولِما ذكر الله من حفظه له جاحد، وفي ذلك ما حدثني أبي عن أبيه أنه قال: ((قرأت مصحف أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه عند عجوز مسنة من ولد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فوجدته مكتوباً أجزاء بخطوط مختلفة، في أسفل جزء منها مكتوب وكتب علي بن أبي طالب، وفي أسفل آخر وكتب عمار بن ياسر، وفي آخر وكتب المقداد، وفي آخر وكتب سلمان الفارسي، وفي آخر وكتب أبو ذر الغفاري، كأنهم تعاونوا على كتابته. قال جدي القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه: فقرأته فإذا هو هذا القرآن الذي في أيدي الناس حرفًا حرفاً، لا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، غير أن مكان ؟قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ؟، ؟اقْتُلواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ؟، وقرأت فيه المعوذتين.)).
قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

(636/1)

ومن الحجة في حفظ القرآن، وإبطال ما يقال به من ذهابه وافتراقه، وزواله ونقصانه قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.)) ، فأخبر صلى الله عليه أن الله عز وجل نبأه بثباتهما وبأنهما حجة منه على خلقه باقية في أرضه إلى يوم حشر العالمين، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآله وسلم.
تم ذلك.

(637/1)

كتاب تفسير معاني السنة

والرد على من زعم أنها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله علام الغيوب، البري من كل نصب ولغوب، الواحد العلي القدوس الأزلي، الذي رفع السماء فبناها، وسطح الأرض فطحاها، خالق المخلوقين، ورب المربوبين، وباعث الموتى، ومبتديء

الأحياء، العالم بخفيات سرائر الغيوب، المطلع على غوامض سرائر القلوب، المتعالي عن القضاء بالفساد، المتقدس عن اتخاذ الصواحب والأولاد، الآمر لعباده بالرشاد، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، الواحد الأحد العليم الخبير.

(638/1)

أحمده على ما منَّ به فينا، وتفضل به سبحانه علينا من ولادة النبيئين، ووراثة علم المرسلين، ونشكره على ما خصنا به وجعلنا بفضله من أهل القيام بحجته، والدعاء لخلقه إلى ما افترضه عليهم وأوجبه إيجاباً موكداً فيهم، من الأمر بأمره، والنهي عن نهيه، والحكم بكتابه، والاتباع لدينه، والمجاهدة لمن جاهده، والمعاضدة لمن نصره، والمعاداة لأعدائه، والمولاة لأوليائه، والقيام بأكبر فروضه قدراً، وأعظمها لديه خطراً، وهو الجهاد في سبيله، والمباينة لمن عَنَد عن دينه، وفي ذلك ما يقول جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ؟[التوبة: 111]، ثم قال تبارك وتعالى فيما يذكر من تعظيم ما ذكرنا من الجهاد الكريم: ؟لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا؟[النساء: 95 – 96]، ثم قال سبحانه فيما أمر به عباده من النفير في سبيله، والإحياء لشرائع دينه: ؟انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟[التوبة: 41]، ثم قال

(639/1)

تخويفاً للقاعدين وإعذاراً وإنذاراً للمتربصين واحتجاجاً على المتخلفين عن واجب ما أوجب أحكم الحاكمين، وتبييناً لفضل المنابذين لمن نابذ شرائع الدين، وجهد في إبطال الحق اليقين، وكان ضداً مدافعاً للحق، وكهفاً وسنداً للفسق: ؟إلا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟[التوبة: 39].

ثم ذكر سبحانه فذم ذا التعللات وأهل التأويلات الباطلات، فأخبر أنه لا عذر لهم فيما به يعتذرون، ولا حجة لهم فيما فيه يتأولون من التعلق بالشبهات والتسبب لمنال الفكاهات، والتلذذ بمقارنة الأولاد

والزوجات، وجمع الأموال من التجارات، فقال سبحانه تحذيراً لهم، وتنبيهاً عن وسنتهم، وتيقيظاً لهم من رقدتهم:؟قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ؟[التوبة: 24]، ثم سمى من كان كذلك أو ضرب لنفسه تأويلاً في ذلك فاسقين، وأوجب لهم ما أوجب للفاجرين من عذاب الجحيم، والخلود في العذاب الأليم، ثم قال سبحانه ترغيباً لعباده المؤمنين، وإخباراً لهم بما أعد لهم على الجهاد من الثواب المبين:؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي

(640/1)

جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ؟[الصف: 10 -13]. صدق الله سبحانه إن ذلك للتجارة الكبرى، والكرامة الجليلة العظمى، والحظ العظيم، والأمر الجسيم، الذي جل ذكره، وعظم قدره، وحسن – عند الله مآب فاعله، وجل لديه سبحانه خطر القائم به. جعله له سبحانه مؤتمناً على خلقه، ومرشداً إلى أمره، خصه بخواص من الكرامة الكاملة، وأعطاه العطية الفاضلة، وجعله حجة شاملة، ونعمة على الخلائق دائمة، فنسأل الله إيزاع شكره، وبلوغ ما نؤمل من طاعته، فإن ذلك أفضل ما أعطى الخلق من العطاء، وأعظم ما بلغه بالغ من الرجاء.

ونسأل الله أن يصلي على محمد عبده ورسوله المصطفى، وأمينه المرتضى، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، وصفوته من بريته، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار، الصادقين الأبرار، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

ثم نقول، من بعد الحمد لله والثناء عليه، والصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

(641/1)

أمَّا بعد، فإنا نظرنا في أمور هذه الأمة وأسبابها، وقلبنا ما قلبنا من حالها وأخبارها، وافتراق أقاويلها، وفساد تأويلها، وقلة ائتلافها، فوجدنا أمورها تدل على أنها ضيعت ما به أمرت، حتى صعب قيادها، وكثر حيادها، وقل فهمها، وكثر تخليطها، وصار لكلها قول مقول، و عمل فادح معمول، ينفر منه

القلب الجهول، فضلاً عن أهل المعرفة والعقول. كان من أنكرِ قولِها وأعظمِ جهلها ما قالت به في الله سبحانه، فرمت به لجهلها رسوله، فزعمت لعظيم غفلتها وعامر رقدتها أن دينها الذي به تعبدها ربها كتاب ناطق مضى، وسنة جاء بها من نفسه النبيء، شرعها من ذاته، وتخيرها للعباد بنظره، لم يأمر بها الرحمن، ولم تنزل عليه في آي القرآن، فزعمت بذلك من قولها، فلزمها في أصل مذهبها وحاق بها في جميع قولها أنها زعمت فيما ذكرت وقالت: إن الله وكل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في الدين إلى نفسه، ولم يشرع له كلما يحتاج إليه من فرضه، كأن لم يسمعوا الله سبحانه يقول فيما نزل على نبيه من القول: ؟مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ؟[الأنعام: 38]، ويقول سبحانه: ؟وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ؟[النحل: 89]، وكأن لم يسمعوا قوله: ؟أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ؟[العنكبوت: 51]، فأخبر سبحانه بقوله: ؟أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ؟، أن فيما نزل من تبيانه ونوره وبرهانه كفاية لهم، في كل ما افترض عليهم، ولو كان ترك شيئاً مما يحتاجون إليه لم ينزله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن وعلى لسان جبريل، لم يقل: ؟أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ؟، فدل بما شهد به من الكفاية لهم على أنه لم يكل نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم إلى استخراج شيء مما افترض عليهم وعليه، وأنه لم يترك شيئاً من فرائضه،

(642/1)

ولا شرائع دينه إلا وقد أوحى به إلى رسوله وحياً، ونزل عليه به نوراً وهدى، فلم يكف هذه الأمة ما نزل الله فيما ذكرنا من الحجة حتى قالت: إن كل فرع مفرع مما فرعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو منه اختياراً وتمييزاً من نفسه، وإن ذلك ليس هو من ربه، من ذلك ما قال الله سبحانه في الصلاة الموجبة، والزكاة المفترضة، حين يقول: ؟أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ؟[المجادلة: 13] فزعمت هذه الأمة فيما ذكرت، وبه على الله سبحانه اجترأت، أو من قال بذلك منها، أنه لم يكن من الله جل جلاله، وعظم عن كل شأن شأنه في الصلاة غير ما أمر به من إقامتها، وأنه لم يحد لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من حدودها، ولم يوقفه على ما به كمالها من ركوعها وسجودها وعدد ركعاتها، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اخترع ذلك من نفسه، وسنه لأمته، وجعله ديناً لها من ذاته، وأن شرائع الزكوات وما به تجب الزكوات في الأوقات المفروضات الموقتات، وما يؤخذ من الأموال الصامتة، والأنعام السائمة، والأطعمات، وما يجب في التجارات من الأعشار وأنصافها، وما حدد في ذلك كله من الحدود المعروفة، وأوقف عليه في كل ذلك من الأفعال المفهومة، من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا من الله، وأن ذلك شيء فعله برأيه، واختاره بتمييزه، وفعله باجتهاده، وفرضه على أمته دون خالق المخلوقين وإله العالمين، وكذلك قالوا في جميع الفرائض المفروضة

والفروع المتفرعة، فزعمت هذه الأمة، أو من قال بذلك منها، أن ما كان في الكتاب ناطقاً موصولاً فهو من الله فرض مفترض، وما كان من تفريع الأصول وتمييز ما ميز صلى الله عليه وآله وسلم من الفصول فإنه منه لا من الله، وأنه فعله لا فعل الله، ثم سموا ذلك الفرع سنة، وأخرجوا معنى السنة من الفريضة، وتوهموا أن ذلك كما قالوا، ولم يعلموا ما عليهم في ذلك حتى حكموا به وسموه كذلك، فلما عظم الأمر، وجل الخطر، ورأينا الهلكة واقعة

(643/1)

بهم، والضلالة شاملة لهم، رأينا أن نفسر معنى قول القائل سنة، ونشرح ما السنة، وكيف كان تفريع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فرع من الأصول المنزلة التي جاءت في كتاب الله سبحانه مجملة، فقلنا:

إن رسول الله عليه السلام لم يكن ليخترع أمراً دون الله سبحانه، وأنه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم حين يقول: ؟إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ؟[الأعراف: 203]، وكما قال عليه السلام حين يقول: ؟وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ؟[ص: 86]، ونقول إن الله سبحانه لم يكل شيئاً من ذلك إلى نبيه يبتدعه ولا يشرعه ولا يفرضه ولا يثبته؛ إذا لقد كلفه الله شططاً من أمره، وألزمه معوزاً من فعله، بل القول في ذلك المبين، والحق البين اليقين أن الله سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، أصل أصول فرائضه في الكتاب المبين، ونزله على خاتم النبيين، فجعل في كتابه أصول كلما افترضه من الدين، وبينه لجميع العالمين، فكانت أصول الدين في الكتاب كلها، وجاءت الفصول مفصولة والفروع المفرعة إلى النبي عليه السلام من الله ذي الجلال والإكرام على لسان الملك الكريم جبريل الروح الأمين، فنزل بشرائع الدين وتفريع أصول القرآن المبين على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما نزل عليه السلام بالأصول إليه، وكان نزوله بالفروع مفرعة، كنزوله بالأصول المجملة المجتمعة، وأدى جبريل الروح الأمين إلى محمد خاتم النبيئين فروع شرائع الدين، عن الله رب العالمين، كما أدى مجملات أصول القرآن المبين.

(644/1)

والسبب في تفريق ذلك من الله، فنظرٌ من الله لبريته، وعائدة على خلقه، ولطف في فعله وصنعه، وتقوية لمن أراد حفظ كتابه، وحمل ما نزل من وحيه وبيانه، فخفف عنهم في الكتاب، وأعانهم بذلك في كل الأسباب، ففرق بين الأصول الموصولة والفروع المفرعة، فجعل الأصول في الكتاب مجملة

جاء بها جبريل، وجعل الفروع في غير الكتاب جاء بها أيضاً جبريل، فكلٌ من الله وحي مبين، وتفصيل وفرض منه سبحانه وتنزيل، بعث بهما كليهما رسولاً واحداً، ملكاً عند الله مقرباً أميناً مؤتمناً، فأدى إلى الرسول عليه السلام ما به أرسل إليه، وتلى عليه من ذلك ما أمر بتلاوته عليه، فكان ذلك من الله فرضاً مميزاً، وديناً من الله مفترضاً لم يكن لرسوله فيه اختيار، ولم يشرع لأمته من دين الله إلا ما شرع الله، ولم يأمرها إلا بما أمرها الله، ولم ينهها إلا عمَّا نهاها الله.

(645/1)

ذكر تفاصيل من الصلاة والزكاة

من ذلك ما قلنا به من قول الله ؟أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ؟، فنزلت هاتان اللفظتان في القرآن موصولتين، وجاءتا فيه مجملتين، فاحتملت الصلاة أن تُصلّى قليلاً وكثيراً إذ جاء ذلك مجملاً، ثم فسر الله ذلك على لسان جبريل كما نزل على لسانه القرآن الجليل، فجعل الله الظهر أربعاً، والعصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً، والعتمة أربعاً، والصبح اثنتين، فبيّن لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم تفسير ما جاء في كتابه مجملاً من أمره بالصلاة جزماً، ولم يكله إلى أن يتكمه في ذلك تكمهاً، ولا أن يتخبط فيه صلى الله عليه وآله وسلم تخبطاً. وكذلك لما أن قال سبحانه ؟وَآتُوا الزَّكَاةَ؟، احتمل أن تؤخذ من كل دينار ودرهم، وشاة وجمل، ومد ومكوك، ومن الفقير والغني، ومالك ألف شاة ومستغل ألف مد، ومستغل مد وصاحب ألف دينار، وصاحب دينار لأنه سبحانه يقول:؟خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا؟[التوبة: 103] ولم يفسر فيمَا أنزل من القرآن كم يأخذ من كل إنسان مالك الحقير والقليل، ومالك الكثير والجليل، ثم فسر سبحانه على لسان الملك الذي نزل بالقرآن من عند الواحد الرحمن ما يجب من الأموال، وما يؤخذ من أهلها في كل حال، وما يجب على المالك المؤسر، وفي كم تسقط عن المالك المعسر، وكم هي وكيف هي، حتى سنن أسنان مواشيها، فجعلها سنا سناً في عدد معروف معلوم، وكذلك فيما يكال ويوزن من الوزن والكيل المفهوم.

(646/1)

ذكر تفاصيل الدية

وكذلك قال تبارك وتعالى في الديات فقال:؟الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ؟[البقرة: 178]، وقال سبحانه:؟فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ

وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ؟[البقرة: 178]، فقال: ؟عُفِيَ؟، يريد: عفي عن القتل إلى الدية، ثم أمر بأداء الدية إلى من عفى إذا قبل الدية وأرادها، ثم قال سبحانه في موضع آخر:؟فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ؟[النساء: 92] في قتل الخطأ، فأوجب الدية، وقال في موضع آخر: ؟وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ؟[المائدة: 45]، فجعل في جروح العمد القصاص كما جعل القود في قتل العمد، وجعل الديات في جروح الخطأ، فأنزل ذكر ذلك في الكتاب مجملاً، ولم يجعله مشروحاً مفسراً، ثم بينه على لسان نبيه وفسره، وجعل الدية ألف مثقال في أهل الذهب، وعشرة آلاف درهم قفلة في أهل الدراهم، وجعلها ألفي شاة في أهل الغنم، وجعلها مائتي بقرة في أهل البقر، ومائة من الإبل في أهل الإبل، ثم سننها وبينها على لسان نبيه عليه السلام. ثم لم يكن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك شيء إلا البيان والأداء عن الله بإحسان.

(647/1)

وكذلك جميع الفرائض والمواريث، ففسر منها في كتابه ما فسر، وفسر على لسان نبيئه باقي ذلك، وكذلك في جميع أحكام الحلال والحرام. فكل ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه حلال لا يجوز تحريمه، أو قال إنه حرام لا يجوز تحليله. وكل ما أوقف الأمة عليه، وجعله فرضاً عليها مفروضاً لم يجز لها تعديه، ولم يطلق لها النقصان، ولا الزيادة فيه، فهو من الله سبحانه لا منه صلى الله عليه وآله وسلم، لم يزد رسول الله عليه السلام فيما أمر به، ولم ينقص منه، بل أدى الأمانة والنصيحة فيه صلوات الله وبركاته عليه وعلى آله.

فمن قال: إن شيئاً من هذه المحظورات من المحرمات والمحللات كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنة ابتدعها لم تُبيِّن، ولم تَشرح، فقد جهّل رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجهّل في قوله بذلك الله عز وجل سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً أن يكون كذلك، أو أن يكل نبيه عليه السلام إلى نفسه، أو يجعل إليه شيئاً من فرض دينه حتى يفرضه دونه.

ومعنى قول القائل سنَّهُ: فإنما هو بينه وأظهره وذكره عن الله وشرعه، وبينه عنه سبحانه وأعلنه، لا أنه اقترحه ولا اخترعه.

(648/1)

ومن الحجة في ذلك أن يقال لمن قال أو ظن هذا القبيح من الظن: خبرنا عن دين الإسلام وأحكامه، وما جعل الله تبارك وتعالى فيه من نوره وبرهانه، وما اختار فيه سبحانه لنبيه صلى الله

عليه وآله وسلم هل كان عند الله معلوماً، ومن قبل خلق الدنيا في علمه تبارك وتعالى مفهوماً، لا يزول عنه منه صغير، ولا يغيب عنه طول الدهر منه كبير؟ فلا تجد بداً من أن تقول: نعم، قد كان دين الإسلام وشرائعه وما جعل الله تبارك وتعالى فيه من فروضه وحدوده عند الله سبحانه معلوماً، لم تزد بعثة محمد ولا إيجاده في حدود الإسلام وما علمه الله من فرائض دين محمد عليه السلام شيئاً، بل جاءت وكانت وافترضت وبانت بعد بعثة محمد على الأصل الذي كان عند الله معلوماً، الذي اختاره على الأديان كلها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته؟

فيقال له عند إتيانه بما ذكرنا وتبينه لما قلنا وشرحنا: أيها المناظر إذا كان عندك هذا القول على ما قلت، فمن أين علم محمد صلى الله عليه وآله وسلم جميع ذلك حتى استخرج مكنون علم الله القديم وشرائع دين الله الكريم، حتى أتى بها على ما كانت، وبيّنها على ما فرضت، وأقامها على ما حددت من قبل إيجاده وخلقه، وكينونته وبعثته؟

فإن قال: استخرجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعقله، واستدل عليها بلبِّه.

قيل له: سبحان الله ما أجهل هذا المقال، وأفحش هذا الفعال! وكيف يستدل بعقل على علم غيب عند الله مكتوم، هذا ما لا يكون أبداً، إذ المخلوقون لايعلمون غيباً، ولايفهمون مما استتر به سراً.

وإن قال: علمه بتوفيق الله.

(649/1)

قيل له: ليس هذا مما يلزمه التوفيق، ولا يجوز عليه فيه طرف من التحقيق، لما فيه من عظيم فروض الله، وجليل صنع الله وأمره ونهيه وزجره وفعله وما أوجب به وفيه وعليه من الثواب للمطيعين، والعقاب على العاصين. وإنما يكون من الله التوفيق في غير المفروضات من الأمور، فأما شرائع الدين، وما تعبد به المسلمين فلا يكون إلا بتبليغ الرسل، والاحتجاج بذلك على جميع الملل، فلا تجد بداً من الإقرار بالحق، والتعلق بعلائق الصدق، والرجوع إلى قول المؤمنين، أو أن يثبت على باطله من بعد إثبات الحجة عليه في مذهبه، فيكون عند نفسه وعند غيره مكابراً، وللحجج البالغة مناصباً، ولا يجوز له في دينه احتجاج ولا بيان، ولا يجد على الباطل بحمد الله عوناً ولا برهان.

فإذا بان له خطأ هذين المعنيين، وفساد هذين الوجهين، لم يجد بداً من أن يقول بقولنا، فيزعم أن جميع ذلك من الله سبحانه وحي أوحاه إلى نبيه على لسان ملكه كما أوحى القرآن على لسانه، ولعمري ما سبيل أصول الأحكام، وما تعبد الله به أمة محمد عليه السلام إلا كفرعها، ولا فروعها إلا كأصولها، وما أصولها وإن جاءت في الكتاب مجملة بأوكد فرضاً من فروعها المتفرعة، وما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى علم مجملها بأحوج منه إلى علم فروعها؛ لأن الفروع هي

العمل، والعمل فهو الإيمان؛ لأن الإيمان كما قال أمير المؤمنين: ((قول مقول وعمل معمول وعرفان بالعقول))، والفروع فهي أصول الأعمال، وأصول الإيمان، وإذا كان ذلك كذلك فلا بد أن سبيلها عند الله كسبيل ما أجمل الله في القرآن، لا تختلف معنى الفروع والأصول إلا عند من سلب العقول.

(650/1)

ومن الحجة على ما به قلنا من أن الله سبحانه نزل الفروع على نبينا كما نزل الأصول في كتابنا قول الله سبحانه:؟مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإيمان وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ؟[الشورى: 52]، فأخبره أنه لم يكن يدري ما هذا الكتاب المجمل، ولا هذه الفروع التي هي الإيمان المنزل. وفي ذلك ما يقول:؟وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى؟[الضحى: 7] يريد تبارك وتعالى ضالاً عن شرائع الدين، وفروع ما أجمل في القرآن المبين، فلم يكن صلى الله عليه وآله وسلم يدري كم يصلي الظهر، ولا كم عدد العصر، ولا كم يأخذ من أموال الناس المسلمين من الزكاة، ولا كم فرض الله عز وجل فيها، ولا متى تجب، ولا في كم تجب، بل كان ضالاً عن ذلك كله، وضلاله عنه فهو جهله به وقلة معرفته بما يريد الله أن يفترض عليه، فلم يكن عليه السلام يعلم من ذلك إلا ما علمه، ولم يفرض على الأمة إلا ما به أمر، ولم يكن من المتكلفين، ولا من غير ما أمر به من المتكلفين.

ومن الحجة في ذلك: أنه لو كان كما يقول الجاهلون، ويتكلم به الضالون، من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرع هذه الفروع من نفسه، وأوجدها وبينها من دون ربه، لكان محمد عليه السلام المفترض لجميع هذه الفرائض والأحكام على جميع الأنام، دون الله الواحد ذي الجلال والإكرام، ولو كان صلوات الله عليه المفترض لذلك والمحدد له الجاعل على أمته لكان هو المتعبد لها بفرضه، المدخل لها في حكمه، المصرف لها في عبادته، دون الله، تبارك وتعالى عن ذلك، وحاشا لرسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون كذلك، لأن الأمة إنما عبدت الله بهذه الشرائع، وهذه الفروع، وبإقامة هذه الأحكام، وتحليل الحلال منها وتحريم الحرام.

(651/1)

فلو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يقول الجاهلون من أهل هذا المقال هو المفرع لهذه الفروع، والناشر لها، والمتخير فيها، المحلل لحلالها، المحرم لحرامها، اختياراً منه بفعله وتمييزاً منه بلبِّه، وحتماً منه على أمته اختراعاً له دون ربه؛ لكان محمد مستعبداً للأمة بفرضه، وكانت الأمة

عابدة محمداً دون ربه، إذ هي قائمة بفرائض محمد ساعية فيها، مقيمة لها، مستقيمة عليها، وفي هذا ومثله، وفي القول بيسيره أكفر الكفر بالله سبحانه، وأجهل الجهل به، وأكثر الطعن على رسوله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل القول في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يفترض فريضة دون الله، ولم يحكم في دم ولا فرج إلا بالله، وأن الله سبحانه هو مؤصل الأصول، ومجمل المجمل، ومفصل المفصل، ومفرع المفرعات، ومبين الملتبسات، المتولي لتعبد خلقه بما شاء سبحانه من فرضه، وأن نبيه صلوات الله عليه لم يزد ولم ينقص في شيء مما أمر بتبيينه للعباد، وأنه قد بلغ وأرشد غاية الإرشاد.

(652/1)

السنة التي لا يأثم مخالفها

ثم نقول إن كلما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه حرام لا يجوز تحليله، أو إنه حلال لا يجوز تحريمه، ومحظور لا يجوز اطلاقه، أو مطلق لا يجوز حظره، فإنه من الله لا منه، وإنه لم يفعل ذلك إلا بأمر الله، ولم يتعدّ فيه فرض الله تعالى وإن ذلك لازم للأمة، وإن لمن خالفه أو نقص بعضه العقاب والعذاب، وإن لمن أداه على وجهه وعبد الله بما تعبده به الثواب، فكل ما ذكرنا من ذلك من الحلال والحرام وشرائع الدين والأحكام فهي من الله حقاً حقاً. وليس حالها كحال غيرها مما جعله رسول الله عليه السلام من نفسه واختياره ورآه مما لم يجعل الله ولا رسوله على تاركه عقاباً، مثل ما سنّ من الوتر، وتقليم الأظافر، وحلق الشعر والسواك وتعفية اللحية وأخذ الشارب، وغير ذلك مما سن وفعل واختار لنفسه من زيادات العبادة والصلاة، مثل ما كان يصلي ويلزم ويحب من ركعات كان يصليهن فيما سوى الفريضة، ومثل ما كان يرى من التعزيرات، ويفعله عند النازلات، وما كان يكون منه من التأديب لأمته على ما يكون من خطا أفعالها؛ لأن الخطأ من أفعال الأمة على أربعة وجوه:

فوجه: يجب لله فيه حد، وهو ما جعل فيه سبحانه حداً في كتاب الله وسماه، مثل ضرب الزانيين، وقطع السارقين، وحد القاذفين، وما أشبه ذلك مما جاء في الكتاب حده مبيناً.

والوجه الثاني: فما نزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحده له وأمره به، من أدب من ارتكب شيئاً محرماً مثل حد الخمر المحرمة في الكتاب، نزل بالحد فيها وفسره كما فسر غيره من الفروع جبريل لمحمد عليه السلام.

(653/1)

والوجه الثالث: فخطأ من أفعال العباد يجب للنبي عليه السلام فيه الأدب على فاعله، وهو مثل رجل لو ضم امرأة إليه، أو قبلها، أو نظر إلى شعرها أو بشرها، فلرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الاختيار في أدبه وتعزيره، على قدر ما كان من فعله وجرأته، يقل الأدب أو يكثر على قدر ما يرى من بلوغ الأدب، وجزع المؤدَب، وكذلك الأئمة لها في ذلك الاختيار تعزر بما رأت يقل الأدب أو يكثر على قدر ما ترى من عظم الجرم وصغره، وبلوغ الأدب في المؤدب واحتماله للأدب، عليها فرض أن تعمل النظر في ذلك، وتتحرى التنكيل للمؤدبين قل الضرب في ذلك أو كثر، تطلب بلوغ جزع المؤدب، والإبلاغ منه بما ترى فيه من الصلاح له.

والوجه الرابع: فهو اللمم الذي ذكر الله، وهو فعل لا يجب فيه الحد لله ولا لرسوله، ولا للأئمة أدب.

واللمم: فهو ما ألم به صاحبه من غير تعمد ولا اعتقاد، ولا هم ولا عزم، بمثل النظر عن غير تعمد، والمزاحمة للمرأة عن غير قصد، وما أشبه ذلك مما لم يتقدم له ذكر في ذلك على فاعله، ولم يقصد به اجتراء على خالقه، ولا تعمداً لإتيان معصية، ولا استحلال محرمة، فهذا معنى اللمم الذي ذكر الله سبحانه.

ومن الحجة على من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرع من ذاته شيئاً من الفرائض المحكمات، أو شرع من ذاته شيئاً من الأحكام المشروعات، أن يقال له: خبرنا عن فعل الله هل هو فعل نبيه، وعن فعل نبيه هل هو فعله؟ فمن أصل قوله إذا كان موحداً وبالله إذا كان عارفاً أن يقول: لا. ثم يقول: فعل الله خلاف فعل محمد، وفعل محمد صلى الله عليه وآله وسلم خلاف فعل الله عز وجل.

فيقال له حينئذ: ألا ترى أن هذا الذي ذكرت أن محمداً فرعه وشرعه وفصله، وأمر العباد بفعله، هو فعل لمحمد؟

فإذا قال: نعم، قيل له: أفليس فعل محمد خلاف فعل الله؟

(654/1)

فإذا قال نعم، قيل له: فمحمد إذا هو المفترض للفرائض على الأمة دون الله، إذ كان فعل محمد خلاف فعل الله، ومحمد إذا لو كان ذلك كذلك كان المعبود بأداء فرائضه دون الله، إذ الفرض من محمد لا من الله.

فلا يجد بداً، إن كان عارفاً وله موحداً، من أن يرد جميع ما تعبد به الأمة إلى الله عز وجل، ويزعم ويقول ويعتقد أنه من الله، حتى يصح له القول بأن المسلمين عبدوا الله لا غيره، ويثبت الفعل في فرض المفروضات لله لا لغير الله، لأن العبادة من العابدين لم تصح إلا بأداء الفرائض لمن افترضها، فمن ثبتت له الشرائع والتفريع والتبيين ثبت له الفرائض، ومن ثبت له الافتراض

للمفروضات ثبتت له العبادة في كل الحالات من العابدين وهم المؤدون للفرائض المحكمة، والشرائع المثبتة التي لا تصح لهم عبادة إلا بأدائها، ولا ديانة إلا بإقامتها، فهذه حجة على من عرف الله بالغة كاملة بينة نيرة تبين لمن أفكر فيها، وتصح لمن تدبر معانيها، والحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين.

(655/1)

ومن الحجة على من قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يقول المبطلون: من أنه لو فرع الفروع من نفسه، وأوجبها على الأمة دون ربه، لكان المتعبد لنفسه بالفرض الذي أوجبه عليها وفرعه لها، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أول العابدين، وأخلص المخلصين، وأقوم القائمين بهذه الفرائض المفروضات، والفروع المفرعات، فهو قائم بها عابد لمن فرضها بإقامته لحدودها، فالفارض لها هو المعبود دون غيره، فتبارك الله رب العالمين، الذي فرض فرائضه على جميع المربوبين الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين وجميع الثقلين. وفي تبري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التكلف لشيء من فروع أحكام الله عز وجل وفرضه، وما جعل من برهانه ودينه، ما يقول الله تبارك وتعالى:؟وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي؟[الأعراف: 203].

فإن قال قائل: ما معنى قول من يقول: سنة، وما معنى دعاء من دعا إلى الكتاب والسنة؟

قيل له: معنى الدعاء إلى ذلك هو الدعاء إلى الأصول الموصلة، والجمل المجملة، والآيات المنزلة، وإلى الفروع المفرعة، والأحكام المحكمة، والشرائع المبينة، والطاعات المفترضة.

(656/1)

والكتاب فهو جزء من وحي الله وأحكامه، وسنته جزء آخر من وحي الله وتبيانه، فسمي الوحي الذي فيه أصول المحكمات من الأمهات المنزلات قرآناً، لأنه جعل للأصول إماماً وقواماً، وللفروع المفرعات أصولاً وتبياناً، وسمي الجزء الثاني من وحي الله عز وجل وفرائضه سنة وبرهاناً، فكان ما يتلى في آناء الليل والنهار أحق بأن يسمى قرآناً، لما فيه من واجب التلاوات، وما يتعبد به المتعبدون من الدراسات، وكان ما فسر به المجملات مما بين به المتشابهات من الفروع المبينات أولى بأسماء السنة في الباين من اللغات؛ لأن معنى السنة هو التبيين للموجبات للحجة، لقول العرب سن فلان سنة، تريد بيّن أمراً وشرع خيراً، وجعل شيئاً يستن به فيه، ومعنى يستن به أن يقتدى به

فيه ويحتذى. وكذلك وعلى ذلك يخرج معنى قول القائل سن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذا وكذا، يريد أظهر وبين ما جاء به من عند الله.

(657/1)

والسنة فهي الأحكام المبينة، والفرائض المفصلة، فهي لله سبحانه ومنه، لا من رسول الله صلوات الله عليه وآله ولا عنه، وليس له فيها فعل غير التبليغ والأداء والنصيحة والإبلاء، والسنة فهي سنة الله عز وجل، وإنما نسبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مجاز الكلام، إذ هو المبلغ لها والآتي عن الله سبحانه بها، كما يقال للقرآن كتاب محمد، وكما يقال للإنجيل كتاب عيسى، وكما يقال للتوراة كتاب موسى، قال الله سبحانه في ذلك وما كان من الأمر كذلك: ؟وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إماما وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا؟[الأحقاف: 12]، فسماه كتاب موسى ونسبه إليه، وإنما هو كتاب الله عز وجل الذي نزل على موسى، وكذلك مجرى السنة في قول القائل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد سنة الله، ومعنى سنة الله فهو فرض الله وحكمه وتبيانه لدينه وعزمه، قال الله جل جلاله:؟سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ؟[غافر: 85]، يريد سبحانه بقوله: ؟سُنَّةَ اللَّهِ؟ أي: ذكر الله وفعله، وصنعه في خلقه وأمره.

ومن قال سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد بها غير ما ذكرنا من المعنى، أو توهم في ذلك أنه شيء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا من الله، فقد جهل أمر الله، وحرف معاني تأويل قول الله، ونسب البهتان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال بأفحش القول في الله سبحانه وفيه.

(658/1)

والسنة فلم تعارض الكتاب أبداً بإبطال لحكم من أحكامه، ولا أمر من أمره، ولا نهي من نهيه، ولا إزاحة شيءٍ من خبره، ولا رد شيء من منسوخه، ولا نسخ شيء من مثبته، ولا إحكام شيء من متشابهه، ولا تغيير شيء من محكمه، بل السنة محكمة لكل أمر الأحكام الموصلة، المبينة للمعاني المفصلة، مفرعة للمحكمات المتبينة عن التأويلات، يشهد لها محكم الكتاب وتنبي عنها جميع الأسباب أنها من الله رب الأرباب.

وما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الفروع التي جاءته عن الله عز وجل وتبارك وتعالى حتى يقال إنها من السنة فلم يشهد له الكتاب ولم يوجد فيه ذكرها مفصلاً أو مجملاً موصلاً

ثابتاً فليس هو من الله، وما لم يكن من الله فلم يقله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما لم يقله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويحكه عن الله فهو ضد السنة لا منها، وما لم يكن منها لم يجز في دين الله أن ينسب إليها.

(659/1)

وآيات الكتاب هي الأمهات لشرائع سننه المفرعات، والأمهات فهي المحكمات، وإليهن ترد المفصلات، ومن الشواهد لما جاء من الروايات مما حكي من السنن المبينات وفي ذلك ما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((سيكذب علي كما كذب على الأنبياء من قبلي، فما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله.))، يريد صلى الله عليه وآله وسلم: أن ما وافق الكتاب مما روي عنه من الأحكام ومن شرائع الإسلام فإنه منه أخذ، وأنه جاء به عن الله، وما خالف الكتاب فليس من السنة التي جاء بها عن الله؛ لأن جميع الوحي الذي جاء عن الله سبحانه من السنة والقرآن فهما شيئان متشابهان متفقان، لا يتضادان أبداً ولا يفترقان. وليس ما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فعل أو اختيار جاء به عن نفسه منسوباً إلى الله، ولا عنه ولا مشابهاً لشيء من أحكام السنن، بل قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى رأياً وفعل فعلاً مما ليس هو فيه مخالف لسنة ولا لكتاب بين ذلك عن نفسه، وأخبر أنه ليس من ربه، مثل ما كان منه صلوات الله عليه وآله في الجد الذي لقيه في الجحفة راجعاً من حجة الوداع، فقال: يا رسول الله إن ابن ابني مات فما لي من ماله؟

فقال عليه السلام: لك السدس.

فلما أن أبعد الشيخ رقّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورحمه لما بان له من ضعفه وقلة حيلته وكبر سنه، فرده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: لك السدس الآخر.

فلما أن مضى الشيخ وأبعد رده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثانية، فقال: إن السدس الثاني مني طعمة لك.

(660/1)

فبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان منه وبين ما كان من الله، فلما أن قال: ((السدس الثاني طعمة مني))، علمنا أن السدس الأول حكم من الله، فبين صلى الله عليه وآله وسلم فعله من فعل الله عز وجل؛ لأن لا يقع على الأمة تخليط في دين الله، ولأن يبين لها أحكام ربها وفعله، لكيلا

يكون لها عليه في شيء من الدين حجة. وكذلك كان عليه السلام يفعل في كل ما كان منه من تأديب أمته، وأفعاله فيها وسياسته لها، يبين فعله من فعل الله، ويخبر بما جاء به عن الله.

وكذلك ما كان من فعله وكراهيته من حمل الحمير على الخيل، وذلك قوله لعلي رحمة الله وصلواته عليهما حين قال: مما تكون هذه البغال؟

فقال: يحمل الحمار على الفرس، فيخرج من بينهما بغل.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون.

أو قال: الذين لا يعقلون. فكره صلى الله عليه وآله وسلم أن تحمل الأشكال إلا على أشكالها، أو أن تخلى الفحول إلا على أمثالها، فكان هذا منه كراهية واختياراً، ولم يكن هذا شيئاً مما أتاه من الواحد الجبار.

(661/1)

ومثل هذا مما كان من رأيه وفعله ولم يأته في كتاب الله ولا في سنته مما كان يستحبه ويفعله من نوافل صلاته، وتعبده من بعد الفرائض المفروضات، لما كان يتعبد من النوافل المعروفات، اللواتي كن منه اختياراً وعبادة، يطلب بذلك من الله الفضيلة والزيادة، كان ذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم استحساناً لنفسه، ولم يكن فرضاً من الله لا يسع تركه، ولا يجب على من تركه الكفر بربه، لأن بين الفرض وغيره من النوافل فرقاً بيناً، وفضلاً نيراً، فكثير يعلمه العلماء، ويفهمه الفهماء، ليس بلازم واجب على المتعبدين؛ إذ لم يكن فريضة من الله رب العالمين، إن أخذ به آخذ فقد أخذ بركة ويمناً، واتبع فضلاً ورشداً، وإن تركه تارك من غير زهد فيه، ولا قلة معرفة بفضله، ولا استخفاف لحق فاعله، ولا اطراحاً لرأي صانعه، ولا مضادة له في فعله، لم يكن بتركه له في دين الله فاجراً، ولا بعهد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم غادراً.

فافهم هديت ما به في السنة قلنا، وأحسن الفكر والتمييز فيما منهما شرحنا، تبن بذلك إن شاء الله من الجهال، وتبعد بمعرفته من اسم الضلال، وتسلم بحول الله من قول المحال، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين وسلم كثيراً.

تم كتاب السنة ولله المنة

(662/1)

مسألة في الإمامة

بسم الله الرحمن الرحيم

بما وجب على الخلق طاعة أهل البيت

سألت يا أبا عبدالله – حفظك الله ووفر في الخيرات حظك – عن المعنى الذي وجبت به لنا على الخلق الطاعة، ووجب به علينا جهاد من أبدى لنا المعصية، وثبتت به لله سبحانه في ذلك علينا الحجة، حتى حكمنا بالهلكة على المخالفين عن دعوتنا، وبالنجاة للمسلمين لأمرنا، الساعين في طاعتنا، حتى سمينا من قتله الظالمون منَّا شهيداً، وحكمنا له بالوعد الذي وعد الله الشهداء وسمينا من قتلنا نحن من الظلمة كافراً متعدياً، وحكمنا عليه باستحقاق الوعيد من الله العلي الأعلى.

وهذا أكرمك الله فقد وجب لنا على أنفسنا السؤال عنه، والبحث لها فيه عندما دعتنا إليه من دعاءِ الخلق إلى طاعتنا، والمنادات إلى إجابتنا، وضرب أعناق المحاربين لنا، وأخذ أموالهم واستباحة ديارهم، فسألناها فقلنا: ما الذي وجب لك به ذلك؟

فكان من جوابها لنا عندما احتجنا إليه من علم ذلك منها أن قالت: وجب لي بما وجب للأئمة من قبلي من لدن القاسم بن إبراهيم عليه السلام ومن تقدمه من الأئمة القائمين، الذين كانوا حججاً لله على العالمين سواء سواء.

فقلنا لها: فبما وجبت لأولئك صلوات الله عليهم الطاعة على الخلق؟

فقالت: لوجوب الإمامة التي عقدها الله لهم بأحق الحق، وأوضح القول والصدق.

فقلنا لها: ولم عقد الله سبحانه الإمامة لأولئك، وبأي معنى كانوا صلوات الله عليهم عند الله عز وجل كذلك؟

(663/1)

فقالت: بولادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبمعرفتهم بذي الجلال والإكرام، وبالورع الذي جعله الله قواماً للإسلام، وبالمعرفة بالحلال عند الله والحرام، وبما يحتاج إليه في الدين جميع الأنام، وبأخذ الحق وإعطائه، وبقله الرغبة في الدنيا، والزهد في دار الفنا، وبالرغبة والمحبة لدار البقاء، وبكشف الروس، وتجريد السيوف، ورفع الرايات لله وفي الله عز وجل، والمنابذة لأعداء الله، وبإظهار الدعاء إلى الله، والغضب لله والرضا، وإقامة الدار، والدعاءِ إلى الواحد القهار، وإحياء الكتاب والسنة، وإقامة الحق والعدل في الرعية، والاطلاع على غامض كتاب الله ووحيه، الذي لا يطلع عليه إلا من قلده الله السياسة، وحكم له بالإمامة دون غيره، فآتاه الحكمة، وخصه بالفضيلة، وأكمل له النعمة، وجعله له على الخلق حجة، وبالشجاعة عند اللقاء، والصبر في البأساء والضراء، وبالجود والسخاء، مع النصفة للأولياء.

فصدقناها فيما احتجت به من الأمر الذي يجب به من الله سبحانه الإمامة لأهلها، ويتأكد لهم به من الله عز وجل فرض الطاعة على خلقه. فلمَّا أن أجمعنا نحن وهي على أن من كانت فيه هذه الخصال، وثبت له ما ذكرنا في كل حال، فقد وجبت له بحكم الله الإمامة، وتأكدت له بفرض الله على الخلق الطاعة، أوجبنا على أنفسنا المحنة فامتحناها فيما أجمعنا نحن وهي وغيرنا عليه من الشروط التي تجب بها الإمامة وتثبت بها لأهلها على الخلق الطاعة، فلم نجدها ولله الحمد عن ذلك منصرفة، ولا منه معوزة، بل وجدناها به قائمة، وبالتسمية به مستحقة، فأجبناها إلى ما دعتنا إليه، وأعناها بكليتنا عليه، فصدقناها ولله المن بعد المحنة به. ولك، يا أبا عبدالله، أكرمك الله، علينا من الحجة والسؤال والمحنة مثل الذي كان لنا على أنفسنا، فانظر من ذلك معنا بمثل ما نظرنا نحن به مع أنفسنا، فإن وجدت ما وجدنا وشهد عقلك لك في أمرنا بمثل ما شهدت به عقولنا لأنفسنا، فقد حق لك ما طلبت، وصح لك ما عنه سألت، وجاءتك من نفسك البينات، وأنارت لك من ذلك النيرات. وإن لم تجد الشروط التي نشهد نحن وأنت وكل المسلمين بأنها شروط الأئمة الهادين المفترضة طاعتهم، والمحرمة معصيتهم كنت على بينة من أمرك، ورخصه من فرضك وراحة من تعبك.

واعلم هداك الله أن الامتحان والنظر لا يكون إلا بالنصفة من المتناظرين، وطلب الحق عن ذلك من المتسائلين، وقبول الحق عند ظهوره، وأخذه بأفضل قبوله، ونحن - أكرمك الله - لكل ذلك لك باذلون، وإليه لك مسرعون، وله منك محبون، فهذا الباب الذي وجبت به إمامة كل إمام على جميع من تقدم من أهل الإسلام، وبه تجب إمامة من بقي من أئمة الهدى إلى آخر أيام الدنيا، ولن تجب إمامة إمام أبداً لغير ما ذكرنا، ولن يوجد سبب يثبت لأحد سوى ما شرحنا.

تمّ والحمدلله كثيراً.

كتاب القياس للهادي عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي فطر الأشياء على إرادته، وجعلها كيف شاء بعزته، وعم المخلوقين برحمته، ولم يوجد شيئاً لغير حكمة، ولم تعدم منه في الموجدات آثار قدرته، فكل شيء عليه سبحانه دليل، فتبارك الله الواحد الأحد الجليل، الذي لا تعزه كثرة المخلوقين، ولا ينقصه قلة المربوبين، الذي لا تتم لغيره

الصالحات، ولا تبلغ شكر آلائه القالات، ولا تحيط بذكر إفضاله الصفات، ولا تعروه السنات، العالم بخفيات الغيوب، المطلع على سرائر القلوب، الذي لم يحل بين عباده وبين طاعته، ولم يدخل أحداً من خلقه في معصيته، الهادي للسبيلين، والمبين للنجدين، والفاصل بين العملين، المحتج بالرسل على العالمين، المتفضل على الخلق بالمرسلين، الذي لم يزده إيجاد الخلق به خبرة، ولم يترك لهم عليه سبحانه حجة، الذي لم يزل ولا يزال الواحد الأحد الصمد، ذو الجلال، أول الأولين، وآخر الآخرين، وفاطر السموات والأرضين، الذي ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ؟[الشورى:11]، ؟لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟[الأنعام:103]، الذي ؟لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص: 3،4]، ؟الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا؟[الإسراء:111]. وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من بريته، صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم تسليماً.
ثم نقول من بعد الحمد لله والثناء عليه، والصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

(666/1)

سبب اختلاف الأمة هو لرفضها أهل البيت

إن سأل سائل فقال: من أين وقع في هذه الأمة هذا الاختلاف في الحلال والحرام؟ حتى صار كلٌ يُفتي برأيه، ويتبع في قوله أئمة له مختلفين، فيقول في ذلك بأقاويل قوم مفترقين، فإذا وردت مسألة على وجه واحد أحلها محلل وحرمها محرم، فكيف يجوز أن يكون معنى واحد مؤتلف، يأتي فيه قول متشتت مختلف؟ فيحل على لسان مفت لمستفتيه، ويحرم على لسان آخر على من نظر فيه.
قيل له: وقع هذا الاختلاف وكان ما عنه سألت من قلة الائتلاف، لفساد هذه الأمة وافتراقها، وقلة نظرها لأنفسها في أمورها، وتركها لمن أمر الله باتباعه، والاقتباس من علمه، ورفضها لأئمتها وقادتها، الذين أُمرت بالتعلم منهم، والسؤال لهم، وجُعِلُوا شفاء لداء الأمة، ودليلاً على كل مكرمة، ونهاية لكل فضيلة، في (ب): وأصلاً لكل خير، وفرعاً لكل بر، وفصلاً لكل خطاب، ودليلاً على كل الأسباب من حلال أوحرام أو شريعة من شرائع الإسلام. فلما أن تبرأت الأمة منهم، واختارت غير ما اختار الله، وقصدت غير ما قصد الله، فرفضت علماءها، وقتلت فقهاءها، وأبادت أدلتها إلى النجاة والصواب، وحارت لذلك عن رشد كل جواب، ولم تهتد إلى وجه قول من الأقوال في حرام ولا حلال، فضلّت عند ذلك وأضلت، وهلكت وأهلكت، وتقحمت في الشبهات، وقالت بالأقاويل المعضلات، تخبطاً في الدين، وتجنباً عن اليقين، ضلالاً عن الحق، ودخولاً في طرق الفسق، ظلماً وطغياناً، وضلالة وعصيانا. تركت ما به أُمرت، وقصدت ما عنه نهيت، فقال كل واحد منها فيما

يرد عليه من الدين بهوى نفسه، وإرادة قلبه، وتمييز صدره، لم يهتد في ذلك بهدى، ولم يلق فيه مصابيح الدجى، ولم يسأل عنه أهل البر والتقوى، ولم يهتد فيه بالأدلاء.

(667/1)

فكان مثلهم فيما فعلوا من ذلك، كمثل قوم ركبوا مفازة مضلة، وأخذوا معهم فيها أدلاء بصراء، حتى إذا توسطوها قتلوا الأدلاء، فبقوا في حيرة، عمياً لا يهتدون سبيلاً، ولا يعرفون ماء ولا طريقاً، فلم يزالوا فيها محيرين ذاهبين وجائين، مقبلين ومدبرين، حتى هلكوا أجمعين، فكانوا سبب هلاك أنفسهم، وسبيلاً إلى تلفهم، فذهبوا غير مقبولين ولا محمودين، بل مذمومين عند الله معذبين.

كذلك مثل هذه الأمة ومعناها، فيما نالته من فقهائها وأدلائها، الذين جعلوا لمن تبعهم نوراً وهدى، ودليلاً على الله العلي الأعلى، وهم آل محمد صلى الله عليه وعليهم، فَضلَّت الأمة بعدهم، وهلكت عند مفارقتهم. ولعمري أن لو قصدت لرشدها، وتعلقت بالحبل، الذي جعل لها متعلقاً وكهفا في كل أمر وملجئاً لما ضلت عن رشدها أبداً، ولا وقع اختلاف بين اثنين في فتيا، ولا اشتبه مشتبه في حلال ولا حرام، إلا وجدناه عن آل محمد عليه السلام؛ لأنهم أهل ذلك وموضعه ومكانه، ومركبه الذي ركبه الله عليه، وجعله معدنا له وفيه، اختاره لعلمه، وفضّله على جميع خلقه، نوراً على نور، وهدى على هدى، وحاجزاً من كل ضلالة وردى، أئمة هادين، ونجبة مصطفين، لا يخاف من اتبعهم غياً، ولا يخشى عمى ولا ضلالاً، محجة الإيمان، وخلفاء الرحمن، والسبيل إلى الجنان، والحاجز عن النيران. تقاة أبرار، وسادات أخيار، أولاد النبيين، وعترة المصطفين، وسلالة النبي، ونسل الوصي، وخيرة الواحد العلي. مشرب لايظمأ من ورده، ودواء لايسقم من تداوى به، شفاء الأدواء، ووقاية من البلاء، كهف حصين، ودين رصين، وعمود الدين، وأئمة المسلمين، قولهم صواب بلا خطأ، وقربهم شفاء بلا ردى؛ أعني بذلك الطاهرين المطهرين، والأئمة الهادين، من أهل بيت محمد المصطفى، وموضع الطهر والرضى، الوافين إن وعدوا، والصادقين إن نطقوا، والعادلين إن حكموا وبالله التوفيق.

(668/1)

فإن قال السائل عن الخلفة، المتكلم في الفرقة: أفتقولون إنهم لو قصدوا هذا المعدن في علمهم، واقتبسوا منه في حلالهم وحرامهم، لم يضلوا ولم يفترقوا، ولم يقع اختلاف بينهم فيما به تكلموا؟

قيل له: نعم، كذلك نقول، وإليه معنانا يؤول.

فإن قال: فكيف لا تقع الفرقة، ولا تكون بين أولئك – صلوات الله عليهم – خلفة؟

قيل له: لأنهم أخذوا علمهم من الكتاب والسنة، فلم يحتاجوا إلى إحداث رأي ولا بدعة. تكلموا بالكتاب الناطق، واعتمدوا على الوحي الصادق، فكان الكتاب والسنة لهم إماماً يحتذون حذوه، ويقتدون في الأمور قدوه، فثبتت بذلك لهم الألفة، وزالت عنهم الفرقة.

(669/1)

كل ما تحتاج إليه الأمة في كتاب الله وسنة رسوله

فإن قال السائل: فخبرونا فيما عنه نسألكم، وأنبئونا عما نسمع من قولكم، أتقولون: إن جميع ما يدور بين الناس من الحلال والحرام، وما يرد من أحكام هذه الأمة على الحكام، وما يجري بينها من القضايا والأحكام في قليل القضاء وكثيره، وقديمه وحديثه، وصغيره وكبيره، هو كله في الكتاب موجود، وفي قلوب الحكام من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثابت غير مفقود، فكل ما ورد عليهم سبب من الأسباب، وجدوه عند وروده مثبتاً في الكتاب، وكان في صدورهم محفوظاً موجوداً معلوماً مصححاً؟

قيل للسائل عن ذلك: إن الأصولَ كلها والفروعَ المحتاجَ إليها في الكتاب والسنة. فإذا علم العالم ذلك، وأتى على معرفته، وعرف مجمله ومحكمه، وفروعه ومتشابهه، ونظر في ذلك كله بقلب فَهِم سالم من الجهل، بري من الخطل، بعيد من الزلل، ثم وردت عليه مسألة استدرك علمها ساعة ترد عليه، إما بآيه ناطقة، أو شريعة باسقة، تنطق له بالحكم فيما ورد عليه، وتبين له ما يحتاج من ذلك إليه بقياس يصح من السنة، ويثبت في الآيات المحكمة، وتشهد له الشرائع المشروعة بكون هذا القياس فرعاً من فروع الحق ثابتاً، ونوراً شاهداً على ما فيه من الصدق، فيكون القياس ممن علم ما قلنا، وتفرع فيما ذكرنا، وفهم ما شرحنا، قياساً واحداً، إذ كان له ذلك أصلاً مؤصلاً، تخرج هذا القياس وتبينه وتشرعه وتوضحه وتدل عليه وتفرعه حجج الله التي في الصدور المركبة، للتميز بين الأمور من هذه العقول المجعولة لما ذكرنا، المركبة لما شرحنا، من التمييز بين الباطل والحق، والفرق بين البر والفسق.

(670/1)

فإذا علم الحاكم ما يحتاج إليه من الأصول والفروع لم يخرج كل ما يرد عليه من أن يكون حكمه وقياسه في أصول الكتاب وفروع السنة، إما شيئاً ناطقاً قائماً قد حكم به المجمل الموصل، وبينه الفرع المفصل، فيحكم فيه بحكمها، ويحتذي العالم فيه بوحيهما. فإن عدم لفظ ما يأتي من الحكم

والفتيا، من أن يكون في المجمل أو المفصل منصوصاً مفسراً، لم يعدم قياسه والدليل عليه، حتى يقف بالمثل على مثله، ويعرف الشكل في ذلك بشكله، ويقيس ما أتى من ذلك على أصله؛ لأن أصل كل حق وهدى، وقياس كل حكم أبداً ففي الكتاب والسنة موجوداً، يستخرجه العالم بعقله، ويستدل على قياسه بمركب لبِّه، حتى يبين له نوره، ويشرع له طريقه، ويصح له قياسه على الحق الذي في الكتاب، تشهد له بذلك شواهد القرآن، وتنطق له بالتصديق السنة في كل شأن، فيكون العالم في علمه واستخراجه بما يحتاجه إليه من حكمه من كتاب الله وسنته، على قدر ما يكون من صفاءِ ذهنه، وجودة تمييزه، واستحكام عقله، وإنصافه لِلُبِّه، وجودة تمكن علم الأصول في قلبه، وثبات علم الكتاب والسنة في صدره، اللذَيْن عليهما يقيس القائسون، وبهما يحتذي المحتذون، وإليهما يرجع الحاكمون، ومنهما يقتبس المقتبسون، وإليهما عند فوادح النوازل يلجأ العالمون.

(671/1)

فإذا كملت معرفة العالم بأصول العلم المعلوم، وصحت معرفته بفهم غامض الشرائع المفهوم، فكان لعلمه به واستدراكه لغامضه، وجودة دراسته وإحاطته بباطنه وظاهره، قاهراً بحول الله وقوته لما يرد عليه من متشابهه، عارفاً بما يحتاج إليه من قياسه، مضطلعاً بتمييز فروعه، بصيراً بتفريع أموره، وكل ما ورد عليه من ذلك وارد أصدره باستدراكه له مصدره، فَصَعْبُ العلم على كل من كان كذلك سهل يسير، وغامضه عنده – والحمدلله – بيِّن منير، لا يشتبه عليه فيه شبهان، ولا يستوي في الحكم عنده منه ضدان، يميز مميزاته بعقله، ويفرق مفترقاته بلبه، ويجمع متجمعاته بفهمه، قد أحكمته في ذلك التجربة، وأعانته على ذلك الخبرة، فكلما ورد عليه فرع من الفروع رده إلى أصله، وكلما ورد عليه شيء من المتشابه بينه بالرد له إلى محكمه، لا يغيب عمن وهبه الله علم كتابه وفهمه معاني سنته موضع حاجته، ولا مكان فاقته من حلاله وحرامه، وما يرد عليه من مفترق القضاء عند ورود مزدحمات المسائل على قلبه، ومتراكمات النوازل على فهمه، فكلما ورد عليه من ذلك وارد فادح، أو قدح في قلبه منه عظيم قادح، اعتمد في فصله وقطع مشتبهات أمره على الأصول المحكمات في قلبه، والفروع المتفرعات في صدره من الكتاب والسنة، فأنار له بعون الله وفضله نور الحق وصدقه، ووضح له برهان الحكم وحقه، فقال في ذلك بقول أصيل، واستدل منه على الحق بأفضل دليل، فمثله فيما يرد عليه من الفروع والفصول، مما يحتاج إلى قياسه على الأصول، كمثل الرجل اتخذ أرضاً، فجعل في كل جانب منها نوعاً من أنواع الأشجار، ثم غذاها وسقاها، وقام عليها وذراها، حتى ثبتت أصولها، وتفرعت فروعها، وخرجت ثمارها؛ فهو بأماكن كل نوع منها عارف وفهم، عالم غير جاهل، فكلما سئل عن شجرة، أو طلب منه من ثمارها ثمرة، قصد

لموضع تلك الشجرة، فأخذ ما يحتاج إليه من ثمرها، فأسرع به إلى طالبها، ولم يحتج لمعرفته بموضع حاجته إلى الدوران في جوانب

(672/1)

أرضه، والتفتيش عن حاجة سائله، كما يعمل الجاهل بمواضع تلك الأشجار، وأماكن تلك الثمار. فالعالم في علمه، وعند قياسه وحكمه، والمعرفة بما يرد عليه من شرائع دينه، كصاحب هذه الأرض المهتدى، إلى ما يطلب منها، العالم بمواضع ثمارها، الخابر بنواحي أشجارها. فحال العالم في علم ما دارس من حكمه، وحفظ وأحاط به من علمه، كحال معرفة صاحب هذه الأرض بأرضه، فاستدلال العالم واهتداؤه إلى قياس العلم والأحكام، فيما يرد عليه من الحلال والحرام، كاستدلال صاحب الأرض إلى أشجارها، ومعرفته بما يبتغيه من ثمارها، لا فرق بينهما ولا اختلاف عند ذي عقل فيهما؛ بل اهتداء من هداه الله إلى علمه، واستدلال من دله الله على غوامض حكمه، أبين تبياناً ، وأنور في العقل برهاناً من اهتداء صاحب الأرض في أرضه ومعرفته بما غرس من شجره. والحمدلله رب العالمين والعاقبة للمتقين، وسلام على المرسلين.

(673/1)

ثم اعلم أيها السائل أن كل قياس جاء مخالفاً للكتاب، أو جاء الكتاب له مخالفاً، حتى يكون كل واحد منهما ضد للآخر فلا يصح هذا القياس أبداً، ولا يثبت معه تأويل ولا هدى؛ لأنه مخالف للأصول، ولم يكن – ولله الحمد – ثابتاً في الفصول، وفي ذلك ومثله وما كان من شكله، ما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنه سيكذب علي كما كذب على الأنبياء من قبلي؛ فما أتاكم عني فأعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله.)). فجعل صلى الله عليه وآله الكتاب إماماً لكل ما روي عنه، أو قيل إنه منه؛ يُعرض عليه، فإن جاء مثله، عُلم أنه من قوله، وإن جاء مضاداً لشيء منه، عُلم أنه ليس عنه. فهذا في الأثار المذكورة عن الرسول، فكيف فيما سواها من القياس الذي يتعاطاه ويطلبه بعض الناس، فلعمري لا يصح من قياسهم، ولا يجوز من مقالهم، إلا ما يشهد له الكتاب والسنة، وكانت الموافقة لهما منه نيرة بينه، فعند موافقة القياس للكتاب يصح القياس في الألباب، وعند مخالفة القياس للكتاب يبطل ويفسد في جميع الأسباب. فليفهم من كان ذا فهم ما به في القياس قلنا، ومامنه أجزنا، وما منه دفعنا وأبطلنا.

(674/1)

والقياس فلا يجوز أبداً، ولا يكون أصلاً بحيلةٍ من الحيل، ولا يمكن أن يتناوله متناول، ولا يطول إليه متطاول، ولا يطمع به طامع، إلا من بعد إحكام أصول العلم بالكتاب، والوقوف على ما فيه من جميع الأسباب، من الحلال والحرام، وما جعل الله فيه من الأحكام، وبيّن تبارك وتعالى من شرائع الإسلام التي جعلها الله سبحانه للدين قواماً، وللمسلمين إماماً. ومن بعد علم أصول السنة، وفهم فروعها المتفرعه، فإذا تمكن المتمكن في علمه، وأحاط بجوامع ما تحتاج إليه الأمة في دينها، ثم تفرع فيما لا غناء بالأمة عن معرفته في جميع أسبابها، من حلالها وحرامها، وما جعله الله ديناً لها، وافترضه سبحانه عليها، فإذا تفرع في علوم الدين، وأحاط بمعرفة ما افترض على المسلمين، فكان بذلك كله عارفاً، ومن الجهل لشيء منه سالماً، ثم كان مع ذلك ذا لب رصين، ودين ثابت متين، جازَ له القياس في الدين، وأمكنه الحكم في ذلك وبه بين المؤمنين، وكان حقيقاً بالصواب، حرياً باتقان الجواب.

(675/1)

فأما إن كان في شيء مما ذكرنا ناقصاً، أو عن بلوغه مقصراً؛ فلن يصح له أبداً قياسه، ولن يجوز له في دين الله التماسه؛ لأنه للأصول غير محكم، وبالفروع غير فهم، ولن يقيس المثال على مثاله، أو يحذو الشكل على شكله، إلا العارف بمحكمات أصله، فإذا أحكم أصله قاس بذلك فرعه. ومَثل ما به قلنا من تصرف الحالات في أهل القياس والمقالات، كمثل أهل الصناعات من الأبنية والصاغات، فإذا كان منهم صانع محكم لعمله، محيط بأصل صناعته، عارف بابتدائها وانتهائها وآلاتها، عالم بتأليفها وأحكامها، ثم ورد عليه مثال يمثله، أو شيء يحتذيه ويصنعه، احتذا فيما تصور من مثاله، بما عنده من محكم أعماله، وأتى به على قياسه، لمعرفته بأصل قياسه، وإحكامه لما قد أحكم من أعماله، فعلى قدر تفرعه في البصر بأصول الصناعات، وتمكنه في المعرفة بها في كل الحالات، يكون إحكامه لتمثيل المثال على مثله، وتشبيه الشكل المطلوب منه بشكله، حتى يكون ما يأتي به مشابها لما يحتذي به، لا يخالفه في شبهه، ولا يفارقه في قياسه، ولن ينال ذلك غيره ممن لم يحكم أصول عمله، ولم يفهم متفرعات أنواع صناعته. فكذلك المتناول للقياس في الأحكام، المتعاطي لذلك من شرائع الإسلام، لا يجوز له قياسه، ولا يصح له مثاله، حتى يكون لأصول الدين محكماً، ولشرائع العلم فهماً، ولمعرفة الكتاب والسنة قائماً؛ فعند ذلك يكون في قياسه كاملاً، ولعلمه محكماً، وعلى ما يطلب من ذلك كله قادراً.

(676/1)

أهل البيت هم أعلم الخلق بالكتاب والسنة

ثم اعلم أيها السائل علماً يقيناً، وافهم فهماً ثابتاً مبيناً، أن العلماء تتفاضل في علمها، وتتفاوت في قياسها وفهمها، وفيما قلنا به من ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ؟[يوسف: 76]، وأنه ليس أحد من المخلوقين أولى بفهم أحكام رب العالمين، ممن اختاره الله واصطفاه وانتجبه وارتضاه، فجعله مؤديا لدينه، قائماً بحكمه، داعياً لبريته، حائطاً لخليقته، منفذاً لإرادته، داعياً إلى حجته، مبيناً لشريعته، آمراً بأمره، ناهياً عن نهيه، مقدماً لطاعته، راضياً لرضاه، ساخطاً لسخطه، إماما لخليقته، هاديا لها إلى سبيله، داعياً لها إلى نجاتها، مخرجا لها من عمايتها، مثبتاً لها على رشدها، مقيماً لها على جواد سبلها، ناصحاً لله فيها، قائماً بحقه سبحانه عليها. وذلك وأولئك فهم صفوة الله من خلقه، وخيرته من بريته، وخلفاؤه في أرضه، الأئمة الهادون، والقادة المرشدون، من أهل بيت محمد المصطفى، وعترة المرتضى، ونخبة العلي الأعلي، المجاهدون للظالمين، والمنابذون للفاسقين، والمقربون للمؤمنين، والمباعدون للعاصين، ثمال كل ثمال، وتمام كل حال، الوسيلة إلى الجنان، والسبب إلى الرضاء من الله والرضوان، بذلوا أنفسهم للرحمن، وأحيوا شرائع الدين والإيمان، لم يهنوا ولم يفتروا، ولم يقصروا في طلب ثار الإسلام ولم يغفلوا، نصحوا المسلمين، واحبوا المؤمنين، وقتلوا الفاسقين، ونابذوا العاصين، وبينوا حجج رب العالمين على جميع المربوبين، ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال: 42].

(677/1)

عملوا فجوزوا، ونصحوا فقبلوا، وتقربوا من الله فقربوا، وأخلصوا لله سبحانه الديانه فأخلص لهم المحبة، طلبوا منه التوفيق فوفقهم، وسألوه التسديد فسددهم، وقاموا له بأمره فأرشدهم، واهتدوا إلى قبول أمره فزادهم هدى، وضاعف لهم كل خير وتقوى، كما قال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ؟وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ؟[محمد: 17].

قصدوا الحق فأرشدوا له، وأئتموا بالصدق فعملوا به، فوجبت لهم حقائق التوفيق، ونالتهم من الله موقظات التحقيق، وقصدتهم منه سبحانه قواصد النعمة، وشملتهم بفضله سبحانه شوامل الحكمة، فنطقوا بالبيان في قولهم، وحكموا بالحق في حكمهم، واهتدوا بالله سبحانه في أمرهم، وثبتوا بزيادة هدى الله على الحق الفاصل، وتناولوا شكائم العلم الفاضل، فنالوا بعطاء الله الأكبر ما لم ينل غيرهم، وقدروا على ما عجز عنه سواهم، فحكموا باختيار الله لهم وتوفيقه، وإرشاده لهم وتسديده في

كل نازلة بالصواب، وبعد عنهم فيها كل شك وارتياب، فكان علمهم – لما ذكرنا، من اختيار الله لهم واصطفائه إياهم، ورضاه باستخلافهم في أرضه، واسترعائه لما استرعاهم من بريته – علماً جليلاً، وكان قياسهم قياساً ثابتاً أصيلاً، إذ هم وأبوهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم أصل كل دين، وعماد كل يقين، ومنه صلوات الله عليه تفرعت العلوم المعلومة، وثبتت أصول الأحكام المفهومة، ومنه ومن ذريته نيلت العلوم الفاضلة، وبُلغت الأصول الفاصلة فمن علمهم صلوات الله عليهم تفرعت الأحكام، ومن بحر فهمهم استقى جميع الأنام. فهم أصل الدين، وشرائع الحق المستبين، فكل علم نيل أو كسب فمن فضل علمهم اكتسب، وكل حكم حق به حكم فمن حكم حقهم علم، فهم أمناء الله على حقه، والوسيلة بينه وبين خلقه، المبلغون للرسالات، الآتون من الله سبحانه بالدلالات، المثبتون على الأمة حججه البالغة، المسبغون بذلك على الأمة للنعم السابغة، لا يجهل فضلهم إلا جهول

(678/1)

معاند، ولا ينكر حقهم إلا معطل جاحد، ولا ينازعهم معرفة ما به أتوا عن الله إلا ظلوم، ولا يكابرهم فيما أدوه إلى الأمة عن الله إلا غشوم؛ لأنهم أهل الرسالة المبلغة، والآتون من الله سبحانه بالحجة البالغة، الذين افترض الله على الأمة تصديقهم، وأمروا باتباعهم، ونهوا عن مخالفتهم، وحضوا على الاقتباس من علمهم.

ألا تسمع كيف يقول الرحمن، فيما نزل من النور والبرهان، حين يقول: ؟فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ؟[النحل: 43]، فأمرت الأمة بسؤالهم عند جهلها، والاقتباس منهم لمفروض علمها. ثم قال سبحانه: ؟وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَ قَلِيلاً؟[النساء: 83]، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا ما يجهلون علمه، ولا ينالون فهمه إلى الله بالتسليم له في حكمه، وإلى الرسول في معلوم علمه، وإلى الأئمة من عترته، فيما التبس من ملتبسه، واشتبه على الأمة من متشابهه، لوجدوه عندالله في كتابه مثبتاً، وفي سنة رسول الله التي جاء بها من الله مبيناً، وعند الأئمة من عترته صلى الله عليه وعلى آله وسلم نيراً بيناً.

(679/1)

ثم أخبر سبحانه أنه لولا فضل الله على الخلق بإظهار من أظهر لهم من خيرته، وتوْلِيَة من وَلِي عليهم من صفوته، إذا لاتبعوا الشيطان في إغوائه، ولشاركوه في غيِّه وضلاله، فامتن عليهم سبحانه

بأئمة هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، صفوة الله من العالمين، وخيرته من المخلوقين، نور الأمة، وسراج الظلم المدلهمة، ورُعاء البرية، وضياء الحكمة، ومعدن العصمة، وموضع الحكمة، وثبات الحجة، ومختلف الملائكة، اختارهم الله على علمه، وقدمهم على جميع خلقه، علماً منه بفضلهم، وتقديساً لهم على غيرهم، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[فاطر: 32]، فأخبر بما ذكرنا من اصطفائهم على الخلق، ثم ميَّزهم فذكر منهم الظالم لنفسه باتباعه لهوى قلبه، وميله إلى لذته؛ وذكر منهم المقتصد في علمه، المؤدي إلى الله لفرضه، المقيم لشرائع دينه، المتبع لرضاء ربه، المؤثر لطاعته؛ ثم ذكر السابق منهم بالخيرات، المقيمين لدعائم البركات، وهم الأئمة الظاهرون، المجاهدون السابقون، القائمون بحق الله، المنابذون لأعداء الله، المنفذون لأحكام الله، الراضون لرضاه، الساخطون لسخطه، والحجة بينه وبين خلقه، المستأهلون لتأييده، المستوجبون لتوفيقه، المخصوصون بتسديده، في كل حكم به حكموا، أو قياس في شيء من الأحكام به قاسوا، حجة الله الكبرى، ونعمته العظمى، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: 33]. وفي طاعتهم وفيما أمر الله به من رد الفتيا بين المفتين وما فيه يتنازع المتنازعون إليهم ما يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا

(680/1)

الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[النساء: 59].

وما جاء من الله تبارك وتعالى لآل رسوله من الذكر الجميل، والحض للعباد على طاعتهم، والاقتباس من علمهم فكثير غير قليل، يجزي قليله عن كثيره، ويسيره عن جليله، من كان ذا علم واهتداء، ومعرفة بحكم الله العلي الأعلى.

وكل ذلك أمرٌ من الله سبحانه للأمة برشدها، ودلالةٌ منه على أفضل أبواب نجاتها؛ فإن اتبعت أمره رشدت، وإن قبلت دلالته اهتدت، وإن خالفت عن ذلك غوت، ثم ضلت وأضلت، وهلكت وأهلكت، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

وفي أمر الأمة باتباع ذرية المصطفى، ما يقول النبي المرتضى: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي الثقلين، كتاب الله وعترتي اهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا، حتى يردا علي الحوض.)).

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم في تفضيلهم، والدلالة على اتباعهم، وما فضلهم الله به على

غيرهم: ((النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم من السماء أتى أهل السماء مايوعدون، وإذا ذهب أهل بيتي من الأرض، أتى أهل الأرض ما يوعدون.)).
وفيما ذكرنا من أمرهم ما يقول صلى الله عليه وآله وسلم: ((مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجاء، ومن تخلف عنها غرق وهوى.)).
وهذا ومثله فكثير عنه صلى الله عليه وآله وسلم فيهم يفهمه من روى عنه عليه السلام ونحن نستغني بقليل ذكره عن كثيره.

(681/1)

ثم اعلم أيها السائل أن الحق لايؤخذ إلا من أحد ثلاثة وجوه: كتاب ناطق؛ أو إجماع من الأمة فيما نقلته عن النبي عليه السلام من السنة التي جاء بها عن الله؛ أو أمر بينته وصححته العقول، وميزت وأخرجت حقه وشرعت صدقه.
ثم اعلم أن القياس يخرج على معنيين: أحدهما ثابت صحيح، والآخر باطل قبيح.
فأما المعنى الباطل منهما؛ فهو قول القائل: قاس فلان ويقيس فلان، يريد بذلك قياساً على غير الكتاب، يضرب بعض القول ببعض، ويقيس برأي نفسه على رأي غيره، ويشبه مذهبه في القياس بمذهب غيره، فيخرج قياسه قياساً فاسداً، لا يجوز هذا القياس في الدين، ولا يثبت في أحكام المسلمين؛ بل من تعاطى قياساً على ماذكرنا، أو قولاً فيما شرحنا، كان محيلاً مبطلاً، فاسد المذهب جاهلاً.

(682/1)

والمعنى الذي يثبت في كل معنى، ويكون دليلاً على النور والهدى؛ فهو أن يكون العالم المتبحر في علمه المتمكن في فهمه، إذا ورد عليه أمر قاسه على كتاب الله، وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ومعنى قولنا قاسه: هو دبره ونظره، وفكر فيه وميزه، واستعمل في استخراجه من كتاب الله سبحانه وسنة نبيه وعقله، فغاص عند نزول النازلة في بحور الكتاب والسنة، حتى استخرج باستدلاله علم حاجته من كتاب ربه وسنته التي أنزلها على نبيئه. فهذا المعنى هو القياس الصحيح، ومعنى اسم القياس هاهنا من قول القايل: قاس، فإنما هو استدل وأصاب، وميز فاستخرج بقياسه وتمييزه الصواب من كتاب ربه، ووقف بحودة تمييز قياسه، وغوصان لبه على طلبه، وجال بما ركب الله في صدره من ثابت لبه، إذ أجاد استعماله في حاجته مما طلب من علم نوازل الأحكام،

ووقف بذلك على معرفة أصول دين الإسلام، فكان بقياسه وتمييزه، راداً لفروع دينه إلى أصوله، فالتأم له بالتمييز والنظر، وجودة انصاف العقل والفكر ما افترق، وارتتق له بذلك في الأحكام ما انخرق. فافهم – هديت – معنى قول القائل: قاس ويقيس، واستعمل لبك في معرفة الفرق بين المعنيين اللذين ذكرنا، حتى يستدل فيهما على الهدى، وتكون من ذلك في قولك كله على الأستواء.
والحمد لله العلي الأعلى، وصلى الله على محمد المصطفى، وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار الصادقين الأبرار.

(683/1)

ثم اعلم من بعد كل علم ومن قبله، وعند استعمالك لعقلك في فهمه، أن الذين أمرنا باتباعهم من آل رسول الله، وحُضضنا على التعلم منهم، وذُكرنا ما ذكرنا من أمر الله برد الأمور اليهم، هم الذين احتذوا بكتاب الله من آل رسول الله، واقتدوا بسنة رسول الله، الذين اقتسبوا علمهم من علم آبائهم وأجدادهم، جداً عن جدٍ، وأباً عن أب، حتى انتهوا إلى مدينة العلم، وحصن الحلم، الصادق المصدَّق، الأمين الموفق، الطاهر المطهر، المطاع عندالله المقدر، محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
فمن كان علمه من آل رسول الله على ما ذكرنا، منقولاً إلى آبائه مقتبساً من أجداده، لم يزغ عنهم، ولم يقصد إلى غيرهم، ولم يتعلم من سواهم؛ فعلمه ثابت صحيح، لا يدخله فساد ولا زيغ، ولا يحول أبداً عن الهدى والرشاد، ولا يدخله اختلاف، ولا يفارق الصحة والائتلاف.
فإن قلت: أيها السائل قد نجد علماء كثيراً منهم ممن ينسب إليه علمهم، مختلفين في بعض أقاويلهم، مفترقين في بعض مذاهبهم، فكيف العمل في افتراقهم، وإلى من يلجأ منهم؟ وكيف نعمل باختلافهم وقد حضضتنا عليهم، وأعلمتنا أن كل خير لديهم، وإن الفرقة التي وقعت بين الأمة هي من أجل مفارقة الأئمة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟
قلنا لك: قد تقدم بعض ما ذكرنا لك في أول هذا الكلام، ونحن نشرح لك ذلك بأتم التمام.
إن اختلاف آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم – أيها السائل عن أخبارهم – لم يقع ولا يقع أبداً إلا من وجهين:
فأما أحدهما: فمن طريق النسيان للشيء بعد الشيء، والغلط في الرواية والنقل، وهذا أمر يسير حقير قليل، يرجع الناسي منهم عن نسيانه، إلى القول الثابت المذكور له عند الملاقاه والمناظرة.

(684/1)

والمعنى الثاني: فهو أكبر الأمرين وأعظمهما، وأجلهما خطراً وأصعبهما، وهو أن يكون بعض من يؤثر عنه العلم تعلم من غير علم آبائه، واقتبس علمه من غير أجداده، ولم يستتر بنور الحكمة من علمهم، ولم يستضيء عند إظلام الأقاويل بنورهم، ولم يعتمد عند تشابه الأمور على فقههم، بل جنب منهم إلى غيرهم، واقتبس ما هو في يده من علمه من أضدادهم، فصار علمه لعلم غيرهم مشابهاً، وصار قوله لقولهم صلوات الله عليهم مجانباً، إذ علمه من غيرهم اقتبسه، وفهمه من غير زنادهم ازدنده، فاشتبه أمره وأمر غيرهم، وكان علمه كعلم الذين تعلم من علمهم، وقوله كقول من نظر في قوله، وضوء نوره كضوء العلم الذي في يده، وكان هو ومن اقتبس منه سواءً في المخالفة لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم والاقتداء، وإن كان منهم في نَسَبِه فليس علمهم كعلمه، ولا رأيهم فيما اختلف فيه الحكم كرأيه. والحجة على من خالف الأصل من آل رسول الله، كالحجة على غيرهم من سائر عباد الله، ممن خالف الأصول المؤصلة، وجنب عنها.

(685/1)

والأصل الذي يثبت علم من اتبعه، ويبين قول من قال به، ويصح قياس من قاس عليه، ويجوز الاقتداء لمن اقتدى به؛ فهو كتاب الله تبارك وتعالى المحكم، وسنة رسول الله، اللذان جُعلا لكل قول ميزاناً، ولكل نور وحق برهاناً، لايضل من اتبعهما، ولا يغوى من قصدهما، حجة الله القايمة، ونعمته الدايمة. فمن اتبعهما في حكمهما، واقتدى في كل أمر بقدوهما، وكان قوله بقولهما، وحكمه في كل نازلة بهما، دون غيرهما فهو المصيب في قوله، المعتمد عليه في علمه، القاهر لغيره في قوله، الواجب على جميع المسلمين من آل رسول الله ومن غيرهم أن يرجعوا إلى قوله، ويتبعوا من كان كذلك في علمه؛ لأنه على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا دخل، ولله الحمد عليه. فمن كان على ما ذكرنا، وكان فيه ما شرحنا، من الاعتماد على الكتاب والسنة، والاقتباس منهما والاحتجاج بهما، وكانا شاهدين له على قوله، ناطقين بصوابه، حجة له في مذهبه، فواجب على كل أحد أن يقتدي به، ويرجع إلى حكمه.

فإذا جاء شيء مما يختلف فيه آل رسول الله صلى الله عليه وآله، ميَّز الناظر المميز السامع لذلك بين أقاويلهم؛ فمن وجد قوله متبعاً للكتاب والسنة، وكان الكتاب والسنة شاهدين له بالتصديق؛ فهو على الحق دون غيره، وهو المتبع لا سواه، الناطق بالصواب، المتبع لعلم آبائه في كل الأسباب.

(686/1)

وإن ادّعى أحد من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه على علم رسول الله، وأنه مقتد بأمير المؤمنين، والحسن والحسين صلوات الله عليهم، فاعلم هديت أن علم آل رسول الله لا يخالف علم رسول الله، وأن علم رسول الله لا يخالف أمر الله ووحيه، فاعرض قول من ادّعى ذلك على الكتاب والسنة؛ فإن وافقهما ووافقاه فهو من رسول الله، وإن خالفهما وخالفاه فليس منه صلى الله عليه وآله وسلم، وكما قال فيما روينا عنه، حين يقول صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((إنه سيكذب علي كما قد كذب على الانبياء من قبلي؛ فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله.)).

وهذا أصل في اختلاف آل رسول الله ثابت، ودليل على الحق صحيح، فاعتمد فيما اختلفوا فيه عليه، واستعمله في ذلك يبن لك الحق حيث هو، ويصح لك المقتبس من علم آبائه صلوات الله عليهم، والمقتبس من غيرهم، وتصح لك الحجة في جميع أقوالهم، وتهتدي به إلى موضع نجاتك، وتستدل به على مكان حياتك، وتقف به على الذين أمرناك باتباعهم بأعيانهم، فقد شرحنا لك شرحاً واضحاً، وبيناهم لك تبياناً صحيحاً، حتى عرفتهم إن استعملت لبك بما بينالك من صفاتهم، كما تعرفهم بالرؤية بأعيانهم، وتقف عليهم بأساميهم وأنسابهم.

والحمد الله على توفيقه وإرشاده، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

كمل الكتاب والحمدلله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله وسلامه

وله أيضاً عليه السلام:

كتاب دعوة وجه بها إلى أحمد بن يحيى بن زيد ومن قِبَله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول، القديم الآخر، الواحد الكريم، الذي لا تراه العيون عيون الناظرين، ولا تحيط به ظنون المتظنين، ولاتقع عليه أوهام المتوهمين، ولا يصفه أحد من الواصفين، إلا بما وصف به نفسه من أنه هو، وأنه باين عن الأشياء، وباينة الأشياء منه، فلم يبن منها سبحانه غائباً عنها، ولم يخف منها في بينونتها خاف عليه منها، بل إحاطته بأسرِّ سرها، كإحاطته بأعلن علانيتها، العادل في قضائه، المعز لأوليائه، المذل لأعدائه، الناصر لمن نصره، الخاذل لمن خذله، البريء من أفعال العباد، المتعالى عن اتخاذ الصواحب والأولاد، داحي الأرض ذات المهاد، رافع السماء بغير عماد، الموفق المسدد لكل رشاد، الزاجر الناهي عن الفاحشات، الحاض الآمر بالحسنات.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي لا تواري عنه ساترات متكاثفات الستور، ولا تستجن عنه بمتراكم أمواجها قعور البحور. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله برسالته، وانتجبه لأمانته، فبعثه في طامة طخيا، ودياجيج ظلمة عميا، وأوائل فتنة دهيا، ودروس من الصالحات، وظهور من المنكرات، فدعا إلى ربه، وأظهر ما أمر به، وفتح فينق الفسق، وأظهر دعوة الصدق، وأعلن كلمة الحق، وأرغم أنف الشيطان، وأدحض عبادة الأوثان، وأخلص التعبد للرحمن، ونهى عن الظلم والعصيان، وأمر بالتواصل والإحسان، وأماط أفعال الجاهلية، ونفى عنهم ظلمة الحمية والعصبية، وبسط لأمته كنفي الرحمة الواسعة، وأكمل الله به على البرية النعمة السابغة، فمضى عليه السلام في أمر الله قدماً، وجرد في أمر الله سبحانه مصمماً، حتى أثبت له على عباده الحجة بالتبيين لهم جميع ما افترض الله عليهم، والإعذار في ذلك والإنذار والتوقيف لهم على معالم دينهم، وجهاد من عَنَد عن سيرته منهم، حتى إذا اعتدل عمود الدين، وتعلق به جميع المسلمين، وسطع نوره، ووضحت وشرعت أموره، وتقشع عن الحق الثبج، وكملت به وبرسوله الحجج، اختار الله لنبيه، صلى الله عليه، دار النعيم والسرور، ونقله من دار التعب والنصب والغرور، فقبضه الله سبحانه سعيداً، قد بيّن للأمة ما له خلقوا، وأوضح لهم ما إليه دعوا، وأوقفهم على ما به أمروا.

(689/1)

فضل الجهاد

وكان أفضل ما افترض الله عليهم، وجعله حجة مؤكدة فيهم الجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن التظالم والمنكر، ولذلك امتدح الله به الأنبياء المرسلين، وذلك قوله: ؟الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ؟[الأعراف: 157]، ويقول: ؟الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ؟[الحج: 41]، ويقول سبحانه: ؟كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ؟[آل عمران: 110] ويقول تعالى أمراً منه لجميع المسلمين: ؟وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ؟[آل عمران: 104].

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ألف الله بين المؤمنين، وجعلهم إخوة عليه متوالين وذلك قوله:

؟وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ؟[التوبة: 71]

(690/1)

وبترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذم الله المنافقين والمنافقات حين يقول: ؟الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ؟[التوبة: 67]. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يُنال إلا بالإقدام والتصميم، والنية والاعتزام الكريم على الجهاد في سبيل الله، وتوطين الأنفس على ملاقاة أهل الظلم والطغيان، فحينئذ ينال ذلك، ويؤدي فرض الله من كان كذلك، وهو الجهاد في سبيله وفي ذلك ما يقول في واضح التنزيل: ؟لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِّنْهُ مَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا؟[النساء: 95 –96] وقال الله تبارك وتعالى: ؟نَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ؟[الصف: 10 – 13] ويقول: ؟وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإن اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ؟[العنكبوت: 69] ولفضل الجهاد ما أمر الله نبيئه بالتحريض عليه للعباد حين يقول: ؟يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ؟[الأنفال: 65]، ويقول تبارك وتعالى: ؟وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْ ِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ

(691/1)

عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ؟[آل عمران: 170].

وما ذكر الله من تفضيل الجهاد فأكثر من أن يحيط به كتاب، وهو معروف عند من رزق فهمه من ذوي الألباب. وكيف لا يكون الجهاد في سبيل الله فُضَل على جميع أعمال المؤمنين، وبه يحيا الكتاب المنير، ويطاع اللطيف الخبير، وتقوم الأحكام، ويعز الإسلام، ويأمن الأنام، وينصر المظلوم، ويتنفس المهموم، وتنفى الفاحشات، ويعلو الحق والمحقون، ويخمل الباطل والمبطلون، ويعز أهل التقوى، ويذل أهل الردى، وتشبع البطون الجائعة، وتكسى الظهور العارية، وتقضى

غرامات الغارمين، وينهج سبيل المتقين، وينكح الأعزاب، ويقتدى بالكتاب، وترد الأموال إلى أهلها، وتفرق فيما جعل الله من وجوهها، ويأمن الناس في الآفاق، وتفرق عليهم الأرزاق.

(692/1)

حظر الجهاد إلا مع من اصطفاه الله

ثم إن الله، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله، حظر الجهاد مع جميع مَن خَلَق من العباد إلا من اصطفى، وأؤتمن على وحيه من عترة رسوله صلى الله عليه وعليهم، الذين هدى بهم الأمة من الضلالة والهلكة، لما في الجهاد من القتل والقتال، وسفك الدماء وأخذ الأموال، وهتك الحريم، وغير ذلك من الأحكام، وذلك فلا يكون إلا بإمام مفترض الطاعة، ولا يكون إلا من آل محمد صلى الله عليه وعليهم، الذين استنقذ الله بهم الأمة من شفا الحفرة، وجمع بهم كلمتها، وألف بين قلوبهم من بعد الافتراق والاختلاف، والتشاجر وقلة الائتلاف، فأصبحوا بنعمة الله على الحق مؤتلفين، ولما كانوا عليه من الكفر مجانبين، يعبدون الرحمن من بعد عبادة الأوثان، ويقرون بمحمد عليه السلام، داخلين في النور والإسلام، ناجين من عبادة الشيطان، تالين لآيات القرآن، يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، ويقرون بالربوبية للواحد الجبار. قد اختار الله لهم منهمأئمة هادين، وجعلهم من ولد نبيه خاتم النبيئين، وفي ذلك مايقول: ؟وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ؟[القصص: 68]، من أهل النبوة وموضع الرسالة، ومعدن الحكمة، وبيت النجاة والعصمة، الذين أمر الخلق باتباعهم، والكينونة معهم دون غيرهم، وذلك قوله تعالى: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ؟[التوبة: 119]. وفيهم وفي آبائهم ما يقول سبحانه: ؟إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ؟[المائدة: 55] فجعل الولاية لهم خاصة، وثبت الإمامة فيهم، وأنزل الوحي عليهم بذلك. وفيهم يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتى؛ إن اللطيف الخبير نبأني أنهما

(693/1)

لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.)) فبين بذلك أنه من تمسك بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى. وفيهم يقول صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما أحبنا أحد فزلت به قدم إلا ثبتته قدم حتى ينجيه الله تعالى يوم القيامة.)). وفيهم يقول: ((إن مثل أهل بيتى فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخل

عنها غرق وهوى.)). وفيهم يقول الله تبارك وتعالى: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ؟[النساء: 59]، فجعل طاعتهم موصولة بطاعة رسوله، وطاعة رسوله موصولة بطاعته، ومعصيتهم مقرونة بمعصية نبيه، ومعصية نبيئه مقرونة بمعصيته، فمن عصاهم فقد عصى الله سبحانه ورسوله، ومن أطاعهم فقد أطاع الله.

(694/1)

الإمام المفترضة طاعته

والذي افترض طاعته ذو الجلال والإكرام، من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله على جميع من خلق وذرأ من الأنام، وبنى على طاعته وموالاته دعائم الإسلام: الورِع الفاضل التقي الكامل الباذل لنفسه لله، العالم الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، الفَهِم بمعاني الكتاب، المتفرع فيما يحتاج إليه من الأسباب، المجرد في أمره، الداعي إلى سبيل ربه، المباين للظالمين، الناهض بحجة رب العالمين، الكاشف لرأسه، المجرد لسيفه، الرافع لرايات الحق، المظهر لعلامات الصدق، الزاهد في حطام الدنيا، الراغب في الآخرة التي لا تفنى، والحافظ للرعية، المواسي لهم، المتحنن عليهم، المقرب غير المبعد، المهون غير المجهد، القارن لهم بنفسه في جميع أمره، الشفيق عليهم، الآخذ لمظلومهم من ظالمهم، المستوفي لحق الله من أيديهم، والراد له في مصالحهم، والمفرق لفيئهم فيهم، المسلم له إليهم، العادل في قسمه، المساوي بين رعيته في حكمه، الطارح الجبرية والتكبر، البعيد من الخيلاء والتجبر، والباسط لكنفه، المنصف لأهل طاعته، المتفقد لجميع معايشهم، الحامل لهم على ما أُمروا به من أديانهم، الممضي لأحكام الله فيهم، القائم بقسط الله عليهم، الرؤوف الرحيم بهم، العزيز عليه عنوتهم، المتعني بالجليل والدقيق من أمورهم، المشبه في ذلك لجده، ولما ذكر الله من أمره، حيث يقول سبحانه: ؟لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ؟[التوبة: 128]، الشجاع السخي، الفارس الكمي.

(695/1)

وجوب طاعة القائم لله

فإذا كان كذلك، ثم دعاهم إلى نفسه، والقيام لله بحقه، وجبت على الأمة طاعته، وحرمت عليهم معصيته، ووجبت عليهم الهجرة إليه، والمجاهدة بأموالهم معه وبين يديه، وكانت طاعته والهجرة إليه، والمجاهدة بأموالهم معه، والتجريد في أمره، وبذل الأموال والأنفس، والمبادرة إلى صحابته، والكينونة

تحت كنفه، فرضاً من الله على الخلق، لا يسعهم التخلف عنه ساعة، ولا التفريط في أمره فينة، إلا بعذر قاطع مبين عند الله سبحانه، من مرض، أو عرج، أو عمى، أو فقر مدقع عن اللحوق به مانع، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ؟[التوبة: 41]، فمن كان على واحدة من هذه الأربع الخصال جاز له التخلف عند الواحد ذي الجلال، وإن لم يكن كذلك وجب عليه فرض المهاجرة والقتال، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا؟[الفتح: 17]، ويقول سبحانه: ؟وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ؟[التوبة: 92]، فجعل الله لمن كان على مثل هذه الحال من الفقر في تخلفه عن الجهاد مع المحق من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العذر.

(696/1)

الوعيد على من تخلف عن القائم

فأما من سلم من ذلك، ولم يكن في شيء من أحواله كذلك، ثم تخلف عنه من بعد أن تبلغه دعوته، وتنتهي إليه رسالته، أو يقع إليه خبره، فهو غادر في دين الله فاجر، ولرسوله معاند، وعن الحق والصراط المستقيم عاند، مشاق لله محارب، إلى النار عادل وعن الجنة مجانب، قد باء من الله باللعنة، وجاهره بالمعصية، ووجب على الإمام إن حاربه حربه وقتله وإهلاكه، وإن لم يحاربه وتخلف عن نصرته وجب عليه إبعاده وإقصاؤه، وإبطال شهادته، وإزاحة عدالته، وطرح اسمه من مقسم الفيء. ووجب على المسلمين منابذته في العداوة والاستخفاف به، والاستهانة بكل أمره، لا يسعهم غيره، ولا يجوز لهم فيه سواه. ألا تسمع كيف يقول العزيز الكريم فيما نزل على نبيه من القرآن العظيم إذ يقول: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَ فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ إِلا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟[التوبة: 38 – 39].

(697/1)

ومن الدليل على ما قلنا به، من هلاك من تخلف من دعوة الحق، أو تثاقل عن إجابة محق، قول الله سبحانه لرسوله: ؟فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا

وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ؟[التوبة: 83 –84]، فأمر الرسول بالرفض لهم، ولم يأذن في الخروج لهم ثانية أخرى، عقاباً عن التخلف عنه والتربص به، وحرمهم الخروج وسهام الغنائم، إذ السهام لا تقع إلا لمن حامى عليها، ولا تقسم إلا لمن كان حاضراً لها، وحرمهم ولاية الرسول وتوليته، وأوجب عليهم العداوة لهم. وبأقل من ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟سَيَقولُ الْمُخَلَّفُونَ إذا انطَلَقْتُمْ إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ؟[الفتح: 15]، يريد بقوله: ؟قَالَ اللَّهُ؟ أي: حكم الله عليكم، وأمرنا به فيكم. وفيما ذكرنا من هلاك المخلفين عن دعوة الحق والمحقين ما يقول أصدق الصادقين فيمن قال لإخوانه وتأخر: لا تنفروا في الحر. فقال جل جلاله عن يحويه قوله وبناله: ؟وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ؟[التوبة: 180]، وكفى في إهلاك الله وإخزائه للمتخلفين عن الحق والمحقين ما يقول لنبيئه محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ؟وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ؟[التوبة: 84]، فنهى رسوله عن

(698/1)

الصلوة عليهم، والوقوف على قبورهم، وحرم عليه الاستغفار لهم، ولم ينه عن ذلك إلا في غوي هالك عنده معذب شقي.

ثم أخبر أن المرتابين الذين هم في ريبهم يترددون، والتردد فهو الشك، والشك فلا يكون في حق إلا من أهل الفجور والفسوق. وممن أضل عند الله، أو أهلك، أو أشد عذاباً عند الله، أو آفك ممن تخلف عن الحق وهو يعرفه، وسوَّف بالإقبال إليه. فكذلك، لعمر أبي، الجفاة الرافضين للحق والمحقين، والمتأولين في ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله، ما لم يجعل الله إلى التعلق به سبيلاً، أشدُّ عذاباً عند الله، وآلم تنكيلاً ممن لم يعرف ما افترض الله عليه في الجهاد، فهو يتكمه في البلاء متحيراً عن ما اهتدى إليه غيره من العباد، فنعوذ بالله من التخلف عن أمره، والصد عن سبيله. فلا صد يرحمك الله أصد، ولا جرم عند الله أشدّ من جرم من تخلف عن الحق، ممن ينظر إليه من السواد الأعظم من الكبراء، وبه تقتدي العوام من العلماء والجهلاء، بل تخلف من كان كذلك ثم تخلف فقد عطل ورفض الحق، وأضعف دعوة الصدق؛ لأن كثيراً من ضعفة المؤمنين يقتدون بأفاعيله، لثقتهم به واتكالهم على رأيه، ونظرهم إلى عزيمته، إذ قصرت عزائمهم، وصغرت عن كثير من ذلك بصائرهم، فهم له أتباع في كل أمره، لايعدلون عن قوله ورأيه، ولا يفعلون إلا بفعله، وإن نهض نهضوا، وإن أقام أقاموا، وإن نصر نصروا، وإن خذل خذلوا، وكلهم مأخوذ بنفسه، إذ هو مقصر عن مدى غيره، والمنظور إليه منهم فمأخوذ بهم إن علم أنهم إليه ينظرون، وإياه يبصرون.

(699/1)

فيا ويل من تخلف عن الله وخالف الهدى، وركن إلى الأولاد والدنيا، أما سمع قول الله تعالى فيما نزل من القرآن الكريم حين يقول لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ؟قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ؟[الفتح: 16] الآية، فأوجب لمن اتبع الجزاء الحسن والثواب، ولمن تخلف عن ذلك أليم العقاب، فنعوذ بالله من البلاء والحيرة والشقاء، والركون إلىما يزول ويفنى، والأثرة له على ما يدوم ويبقى.

(700/1)

ثواب من اتبع القائم

فهذه سبيل من تخلف عن فروض الواحد الجليل، فأما من اتبع ما وصفنا من آل الرسول، فإنه عند الله تبارك وتعالى حق مقبول، فهو عند الله تبارك وتعالى من المسلمين المؤمنين، العابدين، الخاشعين، المؤدين لعظيم ما افترض الله عليهم، المفضلين على جميع المؤمنين في التوراة والإنجيل والقرآن المبين، المهاجرين إلى الله، قد وقع أجرهم على الله، وكرم مئابهم لديه، وأدوا إليه الأمانة، فنجوا وسلموا من الخيانة، كما قال سبحانه: ؟وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وإن اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ؟[الحج: 59]، ومن صح منه هذا الفعل فقد صحت له الولاية من رب العالمين، ومن الرسول والأئمة وجميع المؤمنين، وكان من الذين قال الله سبحانه فيهم: ؟إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ؟[الحجر: 47]، وكان من الآمنين للفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة كما قال أرحم الراحمين: ؟هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ؟[الأنبياء: 103]، وكانوا من البايعين لأنفسهم من ربهم بما بذل لهم من الثمن الربيح حين يقول سبحانه: ؟إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ؟[التوبة: 111]، فيا لها تجارة ما أربحها، ويا لها دعوة ما أرفعها، دنيا يسيره فانية، بآخرة كبيرة باقيه، وحياة أيام تزول بحياة أيام أبداً لا تحول، والنكد والنصب والشدة والتعب بالراحة والسرور، والغبطة له في كل الأمور. فاز والله من بادر

(701/1)

فاشترى الجنة بأيام من حياته، وخاب من تخلف عن مبايعة الله، وسوَّف ويله وتمنى، وعلل نفسه وسهى، حتى نزلت به الداهية الدهيا، ونزل به الموت والفناء، وحصل في دار القيامة والجزاء، ؟وَوَجَدُو مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا؟[الكهف: 49].

(702/1)

حكم الفاسق من آل الرسول

فهذه صفات من تجب طاعته، وتحرم معصيته. ومن خالف ما ذكرنا، وكان على غير ما شرحنا من آل الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم فنكث عليهم، وأساء في فعله إليهم، ومنعهم من حقهم الذي جعله الله لهم، واستأثر بفيئهم، وأظهر الفساد والمنكر في ناديهم، وصير ما لهم دولة بين عدوهم، يتقووا به عليهم، ولا يقبضه منهم ويقسمه على صغيرهم وكبيرهم، وكانت همته كنز الأموال، والاصطناع لفسقة الرجال، ولم يزوج أعزابهم، ولم يقض غراماتهم، ولم يكس الظهور العارية، ولم يشبع منهم البطون الجائعة، ولم ينف عنهم فقراً، ولم يصلح لهم من شأنهم أمراً فليس يجب على الأمة طاعته، ولا يجب عليهم موالاته، ولا يحل لهم معاونته، ولا يجوز لهم نصرته، بل يحرم عليهم القيام معه ومكاتفته، ولا يسعهم الإقرار بحكمه، بل يكونون شركاؤه إن رضوا بذلك من أفعاله، ويكونون عند الله مذمومين، ولعذابه مستوجبين.

فنعوذ بالله من الرضى بقضاء الظالمين، ونعوذ به من الإعراض عن جهاد الفاسقين، الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فإن من أعرض عن جهادهم فقد برئ من الله وبرئ الله منه، وبعد من حزب الرحمن، وصار من حزب الشيطان، ؟أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ؟.

وبعد، رحمك الله ووفقك وأعانك وسددك:

(703/1)

الدعوة وشروطها

فإني أدعوك إلى كتاب الله وسنة نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى ما أمرني الله أن أدعوك إليه، وأخذ به علي العهد والميثاق، من الأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن التظالم والمنكر، وإلى أن نحل نحن وأنت ما أحل لنا الكتاب، ونحرم نحن وأنت ما حرمه علينا، وإلى الاقتداء بالكتاب والسنة،

فما جاءا به اتبعناه، وما نهيا عنه رفضناه، وإلى أن نأمر نحن وأنت بالمعروف في كل أمرنا ونفعله، وننهى عن المنكر جاهدين ونتركه، وإلى مجاهدة الظالمين من بعد الدعاء إلى الحق لهم، والإيضاح بالكتاب والسنة بالحجج عليهم، فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المؤمنين، وإن خالفوا الحق وتعلقوا بالفسق حاكمناهم إلى الله سبحانه، وحكمنا فيهم بحكمه، فإنه يقول سبحانه: ؟وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ؟[البقرة: 193]، والعدوان هنا فهو: الجهاد والعدو على من ظهر منه الاجتراء على الله والاعتداء.

ألا والدعوة مني لك، يرحمك الله، إلى ما تقدم ذكره من الكتاب والسنة، وأشرط لك ولمن معك على نفسي أربعاً:

الحكم بكتاب الله وسنة رسوله جاهداً ما استطعت.

والأثرة لكم على نفسي فيما جعله الله بيني وبينكم.

وأن أؤثركم ولا أفضل عليكم بالتقدمة عند العطاء الذي جعله حظاً في أمواله لكم ولنا قبل نفسي وخاصتي.

والرابعة: أن أكون قدامكم عند لقاء عدوكم وعدوي.

وأشترط لنفسي عليكم اثنتين أنتم شركائي فيهما:

النصيحة لله في السر والعلانية.

والطاعة في كل أحوالكم لأمري، ما أطعت الله، فإن خالفت طاعة الله فلا حجة لي عليكم.

هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين.

(704/1)

الحث على إجابة الدعوة

فإن يطعني من بلغته دعوتي يرشدوا، وحظهم يأخذوا، والفوز العظيم يرتجوا، وإن يتخلفوا عني ويعصوا أمري، ويسوفوا بطاعتي، ويتثاقلوا عن إجابتي، ويركنوا إلى الدنيا – الغارّة لهم كما غرت من قبلهم ممن مضى – أكن قد قدمت لله بما يجب عليَّ، وأكن عند الله إن شاء الله من الناجين، وأكن قد ثبت له عليهم الحجة إلى يوم الدين، وما كان علي إلا ما كان على جدي من قبلي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الرسول الأمين من التبليغ والاجتهاد في الدين، ؟وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ؟. فرحم الله من نظر في أمره، وقاس شبره بفتره، فقد أسفر الحق عن وجهه قناعه، ونادى بأعلى صوته أتباعه، وقامت الحجة للرحمن على كل من خلق من الإنسان، ؟فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلاَلُ؟، ولا دون المعتدل إلا المائل، ولا بعد الجدة والشدة والقوة والشباب إلا الضعف والانبتات والزوال والذهاب، ولا بعد دار الدنيا الفانية إلا الآخرة الدائمة الباقية، وما بعد العمر إلا انقطاع

الأجل، وما بعد الموت إلا البلاء والامحاق، ولا بعد الامحاق إلا يوم التلاق، ؟يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ؟[آل عمران: 30]، ذلك يوم وقوع الجزاء على ما تقدم من العمل في الدنيا، فيفوز المحقون بأعمالهم، ويخسر المبطلون، ويهلك المسرفون بأفعالهم، ؟وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا؟[الفرقان: 23]، ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ؟[الأنعام: 160] ذلك يوم الحسرة والندامة، وطلب الإقالة حين لا إقاله، ؟فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(705/1)

خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ؟[الزلزلة.]، ذلك يوم تشخص فيه الأبصار، وتظهر فيه الأسرار، ويحكم فيه بالحق الجبار، ؟يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ؟[الشعراء: 88 – 91]، وهم يصطرخون فيها نادمين، يقولون: ؟رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ؟[المؤمنون: 107] فيقول لهم الجبار: ؟اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ؟[المؤمنون: 108]، فيطلبون حينئذ الرجوع إلى ما كانوا فيه من الفناء، ويتمنون الموت والبلى، ويقولون: ؟يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ؟[الزخرف: 77]، فحينئذ تقطع قلوبهم حسرات، وتراكم عليهم الغموم والندامات على ما فرطوا فيه من العمل بما أمر هم الله به، والقيام بأكبر فرائضه، من الجهاد في سبيله، والمعاداة لأعدائه، والموالاة لأوليائه.

(706/1)

فليعلم كل عالم أو جاهل، أو من دعي إلى الحق والجهاد فتوانى، وتشاغل، وكره السيف والتعب، وتأوّل على الله التأويلات، وبسط لنفسه الأمل، وكره السيف والقتال، والملاقاة للحتوف والرجال، وآثر هواه على طاعة مولاه، فهو عند اللطيف الخبير العالم بسرائر الضمير من أشر الأشرار، وأخسر الخاسرين. إن صلاته وصيامه وحجه وقيامه عند الله بور لا يقبل الله منه قليلاً ولا كثيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، وإنه ممن قال سبحانه فيه حين يقول: ؟وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً؟[الغاشية: 2 –4]. وكيف يجوز له الإقبال على صغائر الأمور من الصالحات، وهو رافض لأعظم الفرائض الزاكيات، وكيف لايكون الجهاد أعظم فرائض الرحمن، وهو عام غير خاص لجميع المسلمين، وعَملُ من عمِلَ به شامل لنفسه ولغيره من المؤمنين؛ لأن الجهاد عز لأولياء الله، مخيف

لأعداء الله، مشبع للجياع، كاس للعراة النياع، ناف للفقر عن الأمة، مصلح لجميع الرعية، به يقوم الحق، ويموت الفسق، ويرضى الرحمن، ويسخط الشيطان، وتظهر الخيرات، وتموت الفاحشات. والمصلي فإنما صلاته وصيامه لنفسه، وليس من أفعاله شيء لغيره، وكذلك كل فاعل خير فعله لنفسه لا لسواه، فأين بالجهلة العمين والعلماء المتعامين؟ كيف يقيسون شيئاً من أعمال العباد، إلى ما ذكر الله سبحانه من الجهاد. هيهات هيهات، بَعُد القياس، ووقع على الجهلة الالتباس، وحبطت بلا شك أعمال المتخلفين، وخسر الراكنون إلى الدنيا، المؤثرون لما يزول ويفنى، المتشبثون بالأموال والأولاد والأهلين، وهم أحد اليومين لذلك مفارقون، ولما تشبثوا به تاركون، وعما آثروه على ربهم والجهاد في سبيله رائحون. وفي أولئك ومن كان من الخلق كذلك ما يقول الرحمن الرحيم فيما نزل من القرآن العظيم: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا

(707/1)

وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: 24].

فمهلاً أولئك مهلاً عن التخلف عن الله والاجتراء، هلموا إلى الأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن التظالم والمنكر.

هلموا إلى قسم فيئكم عليكم، وإحياء كتاب الله وسنن رسوله فيكم.

هلموا إلى غناء فقرائكم، والأخذ بالحق في أغنيائكم.

هلموا إلى أخلاق المسلمين، والاقتداء بمن مضى من الأئمة المجاهدين.

هلموا إلى الطلب بكتاب الله، والانتصار من أعدائكم.

هلموا إلى نصر الله ونصر الحق والمحقين.

هلموا إلى جهاد الفسقة الظالمين من أهل قبلتكم من جبابرتهم من الأشراف وغيرهم.

ألستم ترون – عباد الله المخلصين، والقائلين في الله بالتوحيد، المقرين بما ذكر الله في الوعد والوعيد – إلى دينكم مقتولاً، وإلى الحق الذي أنزله على نبيكم مخذولاً.

حكم الكتاب معطلاً بينكم، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معدوم فيكم. ترتع أعداء الله في جنى أموال المسلمين، قد أمنوا من تغييركم عليهم، ويئسوا من نكايتكم فيهم، وبسطوا أيديهم عليهم، وحكموا بحكم الشيطان فيهم، ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. حرموهم فيئهم، واصطفوا مع ذلك أموالهم، وأجاعوا بطونهم، وأعروا ظهورهم، وأضاعوا سبيلهم، وأخافوهم على أنفسهم، يحتفون أموالهم، ويقتلون رجالهم، يمنعونهم النصف، ويسومونهم الخسف، هتكاً للحريم وتمرداً على الله العظيم.

إن شهدوا لم يصدقوا، وإن سالموا لم يتركوا، أعزاؤهم عندهم أذلة، وعلماؤهم عندهم جهلاء، وحلماؤهم عندهم سخفاء، وعبَّادهم لديهم سفهاء.

(708/1)

قد جعلوا فيئهم بينهم دولاً، وأولادهم لهم خدماً وخولاً، يشبعون ويجوعون، ويسعون في رضاهم ومصالحهم، ويسعون في هلاكهم وسخطهم، فهم لهم خدم لا يشكرون، وأعوان لا يؤجرون.
هممهم همم حميرهم، هممهم ما واروه في بطونهم، وباشروه بفروجهم، واستغشوه علىظهورهم. نهارهم دائبون في إخمال الهدى والحق، وليلهم في التلذذ والطرب والفسق.
فراعنة جبارون، وأهل خيلاء فاسقون، إن استرحموا لم يرحموا، وإن استنصفوا لم ينصفوا، وإن خوفوا لم يخافوا، وإن قدروا لم يبقوا، وإن حكموا لم يعدلوا، وإن قالوا لم يصدقوا.
لايذكرون المعاد، ولا يرحمون العباد، ولا يصلحون البلاد، رافضون معطلون للنكاح، مظهرون معتكفون على السفاح، المنكر بينهم ظاهر، وأفعال قوم لوط أفعالهم، وأعمالهم في ذلك أعمالهم، يتخذون الرجال ويأتونهم من دون النساء، ويظهرون الفجور علانية والردى، ويأتون في ناديهم المنكر، وبجاهرون بذلك العلي الأكبر.
سفهاؤهم أمراؤهم، وأشرارهم حكامهم، وعظماؤهم أردياؤهم.
الغدر شيمتهم، والفسق همتهم. إن عاهدوا نقضوا، وإن أُمِنوا غدروا، وإن قالوا كذبوا، وإن أقسموا حنثوا.

(709/1)

قد قتلوا الأرامل والولدان، وحرموهم ما جعل الله لهم من السهمان، قد قتلوا الكتاب والسنة، وأظهروا المنكر والبدعة، وخالفوا ما بعث الله به النبي المرسل، وحكموا بغير حكم الكتاب المنزل، أضداد الحق والمحقين، أولياء الباطل والمبطلين، وحزب الشيطان، وخصماء القرآن، وأعداء الرحمن. في الفسق منغمسون، وعن الحق مجنبون، لم ينالوا ما نالوا من أولياء الله إلا بالغدر، ولم يقدروا عليهم إلا بالختر، وعقد مواثيق الله له في أعناقهم، وبسط أمان الله وأمان رسوله له منهم، فإذا ركن إلى عظيم ما يعطونه، ووثق بجليل أيمانهم قتلوه من بعد ذلك غادرين، ومثلوا به ناكثين، لا فيما اعطوه من عقود الله ومواثيقه له ينظرون، ولا في الأيمان المؤكدة التي له يفكرون، اجتراء على الله العظيم، وعدولا منهم عن الصراط المستقيم، عنوداً عن الحق المبين، ومضادة لأحكام أرحم الراحمين،

ومخالفة لسنن الرسول الأمين، ومباينة ومجانبة لشرايع الإسلام، وتشبهاً بفعل أهل الشرك والكفر والطغيان، بل الكفار الطغام أوفى بالعهود منهم، وأحفظ لعهودهم منهم بعهدهم، وأقل اجتراءً منهم في كثير من الأمور على خلافهم، وهم في ذلك يدعون أنهم أئمة المسلمين، وقادة المؤمنين وخلفاء للواحد الكريم وولاة للعظيم الرحيم.

(710/1)

كلاّ!! والذي نفس يحيى بن الحسين بيده، ما ولّى الله أولئك على خلقه، ولا قلّدهم شيئاً من أمره، ولا أجاز لهم أمراً ولا نهياً في شيء من أرضه. وكيف ذلك يكون والله سبحانه يقول لنبيئه، صلى الله عليه، إبراهيم خليله حين سأله أن يجعل ذريته أئمة كما جعله هو صلى الله عليه إماماً؛ فأخبره الله سبحانه إنه لا يجعل الولاية إلا للمتقين، ولا يعقد الإمامة لأحد من الفاسقين، ولا يعقد عقدها للظالمين، وذلك قوله سبحانه: ؟وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماما قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ؟[البقرة: 124] فمنع من عهده وعقده، ومؤكد إمامته كل ظالم من خلقه.

(711/1)

فأي ظلم، يرحمك الله، أو غشم أو فسق أو إثم أعظم مما فيه من هو يدعي أنه إمام للمسلمين أو أمير للمؤمنين، من الذين أماتوا الكتاب والسنن، وأحيوا البدع والفتن، وقتلوا الحق، وأحيوا الفسق، وجلسوا في غير مجلسهم، وتعاطوا ما ليس لهم، ؟أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ؟[البقرة: 16] فأين لكم يا أهل الإسلام، وكيف يرضى من آمن بالرحمن بالظلم والغشم من حزب الشيطان، الذين جاهروا ربهم بالكفر والعصيان، وحادوه في كل شأن، ؟إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ؟[المجادلة: 21]، صدق الله في قوله، لقد حكم الله للحق والمحقين بالغلبة للباطل والمبطلين، ولكن أين الناهضون في أمره، المنجزون لوعده، المتعرضون لنصره،، فإنه يقول سبحانه: ؟وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ؟[الحج: 40] بلى وعسى، إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، عسى الله أن يجعل فيكم يا أهل التوحيد خلفاً من الأولين المجاهدين، الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم لله رب العالمين، فشمروا يرحمكم الله واجتهدوا، واطلبوا النجاة من الله تعالى بجهادهم تنجوا، فإنه يقول سبحانه: ؟فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ؟[آل عمران: 195] فجاهدوا كما جاهد أولئك من سلفكم المؤمنين من الأولين والآخرين، فلقد جاهدوا أعداء الله واحتسبوا، فلقوهم وجالدوهم وصابروهم، والفسقة حينئذ أقوياء أعزاء، جيوشهم جامعة، وأموالهم كاملة، وكلمتهم

(712/1)

مؤتلفة، وجماعتهم غير مختلفة، فصفوا لهم الصفوف، وضربوا وجوههم بالسيوف، ووفوا الله بعهده، فقاموا له فيه بأمره، صابرين محتسبين، ولذلك من فعلهم متخيرين، حتى لحقوا بالله مستشهدين، كراماً طيبين مطيبين، فائزين بالثواب، ناجين من العقاب، قد فازوا بالرضى والرضوان، يتقلبون في عرصات الجنان، ؟تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا؟، ؟وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ قَالُوا إنا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إنا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ انه هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ؟[الطور: 24 - 28]

فاجتهدوا رحمكم الله واستغفروا، وقوموا لله بما أمركم به ولا تقصروا، ولا تركنوا إلى الخفض في الدنيا فتهلكوا، وجدوا في جهاد أئمة الظلم تسعدوا، إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير، فإنهم إخوان من مضى من إخوانهم في ارتكاب الردى، والجري في ميادين الهوى، والصد عن أبواب الهدى، أهل الفسق والبغي، حزب الشيطان، أهل الجرأة على الله بالمخالفة والعصيان.

واعلموا رحمكم الله أن حكم الله فيهم وفيمن كان قبلهم واحد، وسنته في الفسقة الأولين كسنته في الظلمة الآخرين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: ؟سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً؟[الفتح: 23]، وقال سبحانه: ؟سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا؟[الأحزاب: 38].

(713/1)

ألستم ترون رحمكم الله إلى أبواب النصر قد فتحت، وعلامات ما تؤملون من دولة آل رسول الله قد أقبلت، ودلالات ملكهم قد شرعت، وأسباب ما وعد الله به نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد ثبتت، وعلامات هلاك عدوهم قد وضحت، وبوادر الرحمة قد أقبلت، وإياكم قد أجنت وأظلت، ولكم بالنصر والتوفيق قد قصدت، فأقبلوا إليها ولا تدبروا، وتلقوها بقبلولها قبل أن تندموا، ألستم ترون ما قد صار إليه أعداء الله وأعداؤكم من النقص والخذلان والضلال والنقصان. فهم كل يوم يرذلون،

وكل شهر ينقصون، وكل عام يفتنون، وقد تلعبت بهم عبيدهم، واجترأت عليهم ساستهم، فصاروا يسومونهم سوء العذاب، يقتلون من شاءوا منهم، ويقيمون من أرادوا منهم. يجبون الأموال لأنفسهم، وقد تسلط عليهم شرارهم وأعوانهم وعبدانهم، فلا مال عندهم ولا رجال في جوارهم، ولا أمر ولانهي لهم، ليس في أيديهم ولا لهم بلد يجوز فيه أمرهم غير بعض القرى قد أحل فيهم الأعراب واستباحت ما قدرت عليه من رعيتهم، ينهبون حواشيهم، ويخيفون سبيلهم، ويقطعون طريقهم، لا يقدرون على نفيهم وإبعادهم، ولا ينالون مايشتهون من إذلالهم، بل هم الأذلاء الأقلاء، الفساق الضعفة. أشداء على الرعية والمساكين، أذلاء من الأقوياء والمحاربين، يخيفون ويأكلون من تحت أيديهم، ويدارون من نابذهم وتسلط عليهم. قد انهدم عزهم، وانحرقت مهابتهم، وفتكت بهم كلابهم، وقهرهم أشرارهم، وحكم عليهم عبدانهم، وقلت وانتفت من أيديهم الأموال، وتفرقت عساكرهم والرجال، زهداً من الرجال فيهم، ورغبة في خير من يجزل عليهم. قد مال عمود ملكهم، وانهدم باب عزهم، وتغير أساس أمرهم، وأعطت خلافتهم صاغرة قيادها، وزمت إلى من قادها بزمامها، وألقت إليه بسمعها وطاعتها، وذل لطالبها صعبها، ولان لراكبها مركبها، وذل له بعد الصعوبة ظهرها، وبرزت له من بعد شدة حجابها، واستقامت له وأضرعت لدنو نتاجها، ودرت لحالبها بدرة تسر الحالبين، وتنهل الشاربين، ويعلُّ

(714/1)

فيها العالُّون، وينتعش ويشبع في أفوقتها الجايعون. فهي حافل تسحب رجليها مما تدر، ولكن لا حالب لدرتها، ولا منتهز لفرصتها، لقلة المحقين، وذهاب المؤمنين، وذلة المسلمين، وركون هذا الخلق إلى الفسق، وتركهم لاتباع دعوة الحق، وتعلقهم بالفاني من أمر الدنيا، وزهدهم فيما يدوم من الآخرة ويبقى، كأن لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ؟كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ؟[العنكبوت: 57]، وكأن لم يسمعوا ما أخبرهم به عنهم من عاقبة أمرهم، وقوله لهم في يوم حشرهم حين يقول: ؟وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ؟[الأنعام: 94].

(715/1)

فاجتهدوا رحمكم الله، واستبقوا إلى الله وبادروا قبل أن تبادروا فإنه يقول: ؟وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟[الواقعة: 11]، واعلموا أن المسبوق لن يلحق بالسابق، والكاذب لا يكون

عندالله كالصادق، أما سمعتم الله يقول: ؟لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى؟[الحديد: 10]، وقال: ؟وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحسان رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ؟[التوبة: 100]، فابتدروا إلى الله تسعدوا، ولا تتخلفوا عنه فتهلكوا، ويرميكم بالذل والصغار، ويحشركم يوم القيامة إلى النار، قد بذلت لكم النصيحة إن كنتم تحبون الناصين، والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على محمد خاتم النبئين وعلى أهل بيته الطيبين وسلم تسليماً.

تمت الدعوة

وله أيضاً عليه السلام:

(716/1)

جواب مسائل الحسين بن عبدالله الطبري

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

ما التبس من سيرة الإمام صلوات الله عليه

ذكرت – حاطك الله وحفظك ووفقك للصواب وسددك – أنه بلغكم وتناها إلى بلدكم أسباب من فعلنا، وأمور من سيرتنا التبس فيها على كثير من الناس الصواب، ولم يحضرك في كثير منها الجواب، فشنع من لا يفهمها، وأنكر علينا فيها من لا يعرفها، واستعجل بالظن السيء من لا يفقهها، حتى نسب صوابها إلى الخطأ، ونير حقها إلى العداء، فحشاً من قوله، وظلماً في حكمه، وبغياً في أمره، واستعجالاً بالسيئة قبل الحسنة، وبقول الخطأ قبل المعرفة، كأن لم يسمع الله سبحانه فيما يعيب على من فعل مثل هذا الفعال، وقال بالظن كما قال صاحب هذا المقال: ؟لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ؟[النمل: 46]، فنعوذ بالله لنا ولك ولكل مؤمن من ذلك، ونستجير به من أن نكون كذلك. وسنفسر لك إن شاء الله ما جهل فيه من جهل فعلنا، ونشرح لك من ذلك ما لم يقف عليه الطاعن في سيرتنا، حتى يصح لك ولهم في ذلك الصدق، ويبين لك ولهم أن فعلنا هو الحق، فما مثلنا ومثلهم وخبرنا وخبرهم فيما علمناه وجهلوه، وعرفنا مفاصل صوابه وعميوه، إلا كمثل موسى وصاحبه صلى الله عليهما العالم الذي اتبعه موسى على أن يعلمه مما علمه الله رشداً. فأعلمه أنه لا يستطيع معه صبراً، إذ ليس يعلم كعلمه، ولا يقف على ما يرى من فعله، فأخبره أنه لا يصبر إذا رأى منه شيئاً مما لا يعرفه حتى يسأله ويبحثه، ويدخله الشك في فعله، فقال له موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. ثم لم يصبر لما رأى ما ينكره قلبه حتى عاتبه فيه وسأله عنه، فكان أول

ما أنكر عليه موسى عليه السلام: خرق السفينة، فعظم ذلك في صدر موسى، فقال له ما قال، فقال له العالم: ؟أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟[الكهف: 72]، فقال له موسى: ؟لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا؟[الكهف: 73]، فغفرها له، وانطلقا حتى إذا لقيا

(717/1)

غلاماً فقتله، فقال له موسى: ؟لَو شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا؟[الكهف: 74 – 77]، يريد بهذا منه إذ هو خائف لا يؤمن سقوطه فأُجرت في ذلك، فقال العالم لموسى: ؟هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا؟[الكهف:78]، ثم أخبره بمعاني أفعاله، وصواب أعماله التي كانت عند موسى منكرة عظيمة، فاحشة كبيرة، وهي عند الله وعند العالم صواب، وعند موسى صلى الله عليه خطأ وارتياب، إذ لم يعلم وجه أمرها ولم يقف على كنه خبرها، فيصح له نير صوابها كما وضح لفاعلها، فقال فاعلها لموسى: ؟أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا؟ إلى قوله ؟مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا؟[الكهف: 79].

(718/1)

فكذلك حال الإمام فيما شرحت، وحال من ذكرت ممن أنكر فعل الإمام، إذ لم يكن علمه كعلمه، ولا حاله في المعرفة بالنازلات كحاله، وكيف يستوي المتفاوتان أو يتزن الرطل والرطلان؟ لا كيف! وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ؟[الزمر: 76]، ويقول سبحانه: ؟وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ؟[يوسف: 76]، ويقول: ؟وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ؟[العنكبوت: 43]، ويقول سبحانه: ؟أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ؟[الرعد: 19]، ويقول سبحانه: ؟وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وإلى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً؟[النساء: 83]. ومن لم يعرف رحمك الله أمراً أنكره، ومن لم يقف على معنى شيء دفعه. ولو حسن يقين من أنكر فعل الإمام لم يعجل بالعيب في ذلك عليه، غير أن وساوس الشيطان تتمكن في قلوب أهل الشك والريب من الإنسان، والشك والريب فلا يثبت معهما محض إيمان، ألا تسمع كيف يقول في ذلك الواحد الرحمن: ؟إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ؟[الحجرات: 15] فلم يحكم

بحقائق الإيمان إلا لمن بعد منه الارتياب في وجوه الدين والإحسان، فنسأل الله الثبات على دينه والتوفيق لما يرضيه برحمته.

(719/1)

ذكر سبب الزيادة على الحد

ذكرتَ ضربنا من نضربه من بعد الحد الذي ألزمه الله تعالى إياه، فقلتَ: ما سبب هذه الزيادة من بعد تمام الحد؟

واعلم - أكرمك الله - أن الله سبحانه حكم على الأئمة وافترض عليهم حسن النظر للبرية، وأن تفعل في كل معنى ما ترجو به الصلاح للرعية. وهؤلاء القوم الذين ترانا نضربهم بعد الحد في أرجلهم ثلاثين، وأربعين، وعشرين، فهم قوم قد بايعوا على الحق، وأعطونا عهودهم على الصدق وعلى الأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن التظالم والمنكر، ثم نكثوا بعهودهم، وحنثوا في أيمانهم، فعملوا المنكر في أنفسهم، ورفضوا المعروف الذي يأمرون به غيرهم، وردوا الفسق بعد موته، وأحيوا المنكر في دار الحق بعد خموله، فكان أقل ما يجب على من نكث عهده، وحنث في يمينه التي أقسم فيها باسم ربه أن يكون عليه في نقضه لعهده، وحنثه بقسمه أدب لما اجترى به على ربه، وتمرد به في ذلك على خالقه، فأدبناه كما ترى غضباً لله، وانتقاماً لدين الله، وتنكيلاً له عن نقض العهود المعقدة، ورد الفاحشة بعد خمولها في دار الحق، وإظهار الكبائر والفسق. فهذا سبب أدبنا لمن نؤدبه بعد حد الله، وذلك الواجب على كل إمام في دين الله أن يفعله لمن نقض عهده، ونكث بعد قسمه بالله، ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه: ﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾[البقرة: 224]، أن يحلف المرء بالله كاذباً، أو ينقض لله عهداً. وما نهى الله عنه ومنع عباده منه فلا بد لكل من اجترى عليه وفعله من الأدب، وإلا فلم يكن لنهي الله عنه معنى ولا سبب، فهذه حجتنا فيما عنه سألت من ذلك، فتدبر القول فيه يصح لك صوابه، ويزول عنك شكه وارتيابه.

(720/1)

ذكر خرص الثمار

وكذلك ما ذكرت وعنه سألت من خرص النخل وحزرها.

وهذا الأمر لا ينكره مسلم، ولا يدفعه من كان لأحكام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسلماً؛ لأن الأمة كلها بأسرها - إلا أن يكون الشاذ الضعيفَ العلمِ - مجمعة على أن رسول الله، صلى الله

عليه وآله وسلم، خرص وحزر ثمار المدينة وثمار خيبر، وكان يرسل في كل سنة عبدالله بن رواحة الأنصاري فيخرص الثمار كلها، ثم يأخذهم بخرصها، ويحكم عليهم بما حزر فيها، ونحن فكذلك فعلنا، وبه صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك اقتدينا. ثم احتطنا من بعد ذلك باستحلاف من أمرناه بخرص الثمار، فإذا أردنا أن نوجه قوماً يخرصونها من ثقات من نعلم، وأبصر من يفهم بخرص الثمار، ممن قد جرب فهمه، وامتحن في ذلك نفسه، ثم امتحنه فيه غيره حتى صح أنه أقرب أهل بلده إلى المعرفة بما وجهناه له من حزر التمر فيخرصه، ثم نستحلفه بأوكد ما نحلف به: لتنصحن ولتجتهدن ولتخرصن ولتقصدن الحق بجهدك، ولتحزرنه بطاقتك، ولا تعمدن لمسلم غشاً، ولا لمال الله وكساً، ولئن شككت في شيء من ذلك والتبس عليك لتجعلن الحمل على أموال الله دون أموال عباده. ثم ننفذه فيما به أمرناه، فيجتهد ويخرص ويكتب ما يحرز ويخرص. فإن شكى أحد من الناس بعد ذلك غبنًا فيما خرص عليه وحزر استحلفناه على ما أتى من ثمره وصدقناه، وأخذنا منه على ما حلف عليه وتركناه. وكذلك قد نخير من خرصنا عليه نخله فنقول: إن شئت فخذ بما قد خرصنا، وإن شئت أخذنا وأوفيناك حقك على ما خرصنا وقسمنا. فهل على من فعل ذلك حيف أوجور، أوتحامل في شيء من الأمور، أم على من اقتدى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مطعن في مقال من المقال، أو تعنيف في فعل من احتذى به فيه كائناً ما كان من الأفعال. كلا! وفالق الإصباح، ومجري الرياح، إن من كان كذلك لبعيد من الخطأ في كل ذلك. وليس يلزم أهل العلم فيما يفعلون من الفعال إنكار من لا علم له من أهل الجهل، وإنما قول العلماء هو

(721/1)

الحاكم على أقاويل الجهلاء، وليس أقاويل الجهلاء بأهل أن يحكم بها على العلماء، والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وسلام على المرسلين.

(722/1)

أخذ المال من الرعية

ومما سألت عنه وأحببت الجواب فيه: ما كان من مجيء كبراء أهل صنعاء إلينا ومشائخهم، وما سألونا من التقدم إليهم والمصير إلى بلدهم، فأخبرناهم بقلة ذات اليد، وأنا لا نطيق الإنفاق على العساكر، ولا نجد على ذلك سبيلاً، فذكروا أنهم يعينونا ويجتهدون، وأن أهل البلد على ذلك مجمعون. فلما صرنا إليهم كُتِبَ على الناس على قدر طاقتهم، بل دون طاقتهم ودونها، فكتب على

صاحب العشرة الآف مائة، وعلى صاحب العشرين ألفاً مائتان، وعلى صاحب الخمسين ديناراً ديناران، وعلى صاحب الثلاثين دينارٌ، وشبيهاً بذلك، فكلهم إلى ذلك مسارع وكلهم رأى فيه المنفعة لنفسه في ماله وحرمته. وقد علمت كيف كان فعل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه حين دخل البصرة بعد حرب طلحة والزبير، فوجد في بيوت المال من أهل البصرة مالاً كثيراً من الفيء الذي هو للصغير والكبير، والمرأة والرجل، والطفلة والطفل، فدعى كبراء البلد ووجوه أهله، ثم قال لهم: إن في بيت مالكم مالاً، وبأصحابي حاجة شديدة، فاطلقوا لي حتى أقسمه على أصحابي دونكم. ففعلوا واطلقوا له قسمه على أصحابه دونهم، فقسمه على أصحابه، فوقع لكل إنسان منهم خمسمائة درهم فقله. ولم يدع أوساط الناس، ولا النساء ولا الصبيان ولا كل من يملكه، واجتزى برأي كبرائهم إذ كان في ذلك صلاح لهم، ومنفعة لبلدهم، وعائدة في العاقبة عليهم، فافهم هذا المعنى.

(723/1)

وسنشرح لك في ذلك حجة أخرى قوية نيرة بينة عند أهل العلم والفهم راجحة، نحن نقول وكل ذي فهم وبصيرة من العلماء: إن الإمام المحق العادل المستحق له أن يأخذ من المسلمين العفو من أموالهم اليسير الذي لا يضرهم، فيرده على صلاحهم وصلاح بلدهم، ويدفع به العدو الفاجر عن أموالهم وحرمهم ودمائهم، أحبوا أم كرهوا أطاعوا أم أبوا، ثم نقول: إن ذلك من حسن النظر لهم الذي لا يجوز له عند الله غيره، إذ لا يجد منه بداً، ولا عن أخذه مندفعاً، وإلا لم يكن إلا انفضاض عسكره، وهلاك المجاهدين الذين معه، أو أخذ ما يأخذ من رعيته؛ لأنه إن قصر في ذلك انفض العسكر، وافترقت الجماعة، فذل الإمام والمؤمنون، وهلكت الرعية المستضعفون، وقوي عليهم الأعداء الفاجرون، وملكتهم الجبابرة الطاغون، فأخذوا الأموال وقتلوا الرجال، وأهلكوا الأطفال، واصطلموا الأموال، ومات الحق وظهر الباطل والفسق. هذا ما يحل لإمام الحق أن يفعله، ولا يجوز هذا إلا لإمام حق مستحق بموضع الإمامة، نافذ حكمه في الأمة، حاكم بالكتاب والسنة؛ لأن في فعله ذلك نجاة للمسلين، وفي تركه له هلاك جميع المؤمنين، وإذا كان ذلك كذلك، فأخذ جزء من أموال المسلمين فرض عليه في ذلك، فإن قصر فيه فقد شرك مُهلِكهم في هلكتهم، ولم يحسن النظر لهم، وكان قد تحرى في تركهم صلاحاً ورشداً، فوقع من ذلك في هلكه وارتكب إداً.

(724/1)

تمثيل أخذ الإمام الأموال لحماية الرعية

وسنضرب لك في ذلك أمثالاً ونقول فيه بالصواب إن شاء الله مقالاً يصح رشده لكل ذي لب وعلم، ويبين صدقه لكل ذي تمييز وفهم: ما يقول من أنكر علينا ذلك في نفسه لو كان في قرية من قرى المسلمين، وكان أمره فيها نافذاً جارياً، وحكمه وقوله فيهم جائزاً ماضياً، ثم دلف إليها طاغية من طواغي المشركين، أو طاغوت من طواغيت الباغين، ليقتل رجالها، ويسبي نساءها، ويأخذ أموالها، ويخرب ديارها، فوجد هذا الإنسان الرئيس عليها النافذ أمره فيها أعواناً يدفع بهم عن القرية ما قد غشاها، ويزيح عنها من الهلكة ما أتاها، كان الواجب عليه في حكم الله، وفيما يجب للمسلم على المسلم أن يأخذ من أموالهم طرفاً يقوت به هؤلاء الذين يدفعون عنهم؛ حتى يسلموا من الهلكة، أم يخليهم حتى يهكلوا ويستباحوا ويقتلوا؟!

فإن قال قائل: بل يخليهم يقتلوا قبل أن يأخذ منهم يسيراً يحييهم به، فقد أساء في القول، وجار في الحكم، وخالف الحق؛ لأن الله سبحانه يقول في كتابه: ؟وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ؟[المائدة: 2]، ومن فعل ذلك فقد أعان على الإثم والعدوان، وترك المعونة على البر والتقوى.

وإن قال: بل الواجب عليَّ أن آخذ منهم ما أدفع به عنهم أحبوا أم كرهوا، وأقيم فرض الله علي فيما يلزم للمسلم على المسلم، ولا أنظر إلى قولهم إذا أبوا النظر لأنفسهم، واستدعوا الهلكة إليها، إذ كنت مقلداً لأمرهم بنفاذ حكمي عليهم، فقد أصاب في قوله واحتذى، وسلك الطريقة المثلى، فهذه حجة أخرى.

(725/1)

ومن الحجة في ذلك على من أنكره وقال بغيره ورفضه، أن يقال له: خبرنا عنك لو سرت في قافلة من قوافل المسلمين، وأمرك فيهم نافذ، فوجدت في بعض الطريق قوماً قد قطع بهم، وأخذ ما معهم، وتركوا مطرحين جياعاً عطاشاً عراة، لا يطيقون مشياً. إن تركتهم ماتوا، وإن حملتهم نجوا، وإن أطعمتهم وسقيتهم حيوا، أليس كان الواجب عليك في حكم الله أن تأخذ لهم من أهل الرفقة قوتاً يحييهم، وتلزمهم لهم المعاقبة على رواحلهم، حتى يلحقوا بالقرى والمناهل، أو لا تأخذ لهم منهم قوتاً ولا ماءً، ولا مركباً، فيموتوا كلهم ويهلكوا بأجمعهم؟

(726/1)

فإن قال قائل: بل أتركهم يموتون، فقد شرك في قتلهم، وقال بالمنكر من القول فيهم الذي ينكره عليه الجهال فضلاً عن العلماء من الرجال، وإن قال بل أحمل أهل القافلة على أن يواسوهم بما لا يضرهم في الطعام والشراب، والمعاقبة على الركاب، فقد قال بحق من المقال، وانتحل صواباً من الفعال، وأدَّى حقوق الله وحقوق المسلمين، ونجا من قتل إخوانه أجمعين، ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه: ؟مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا؟[المائدة: 32]، فحكم الله على كل مسلم إزاحة الهلكة عن المسلمين بجهده وطاقته. وكذلك يجب على الإمام أن يواسي بين المهاجرين والأنصار، وبين الرعية من أهل الدار، ولا يترك المهاجرين المدافعين عن المستضعفين الدائمين المقيمين لدعائم الدين يهلكون جوعاً بين أهل الأموال والجدة من المسلمين، ومن فعل ذلك كان على أحد وجهين: إمَّا افترق عنه المجاهدون إذا اشتدّ عليهم البلاء، ولم يجدوا قوتاً لأنفسهم ممسكاً، أو صبروا فهلكوا وماتوا جميعاً معاً ضراً وحزناً وجوعاً، فهلك بهلكتهم الإسلام، واجتيح بعدهم الأنام، وكان في ذلك كله آثماً، وللمجاهدين في الله وعلى دينه ظالماً.

فافهم هداك الله ما به قلنا، وفي ذلك احتججنا، فإن الحجج فيه تكثر لو بها نطقنا، ويسير ذلك يغني عند أهل العقل عن كثيره، ويجتزى عن الكثير فيه بيسيره.

(727/1)

عدم جواز العشر لآل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

وسألت عن العشر هل يجوز لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

والقول في ذلك أنه لا يجوز لهم أكله ولا استحلاله، ولا الانتفاع بشيء منه، إلا أن يشترى بأغلى ثمن وأوفاه، فيكون حاله كحال غيره من أموال المسلمين، التي يحرم على المسلمين استحلالها وأكلها، ويحل لهم إذا اشتروها بالأثمان.

وكذلك يجوز للأئمة أن يشتروا الأعشار من جباتها وعمالها بأغلى ما يباع في أسواقهم، وتحتاط في ذلك على أنفسها لهم، وكذلك في الأعلاف من التبنان والقضبان، لا يأخذ منه شيئاً إلا بثمن فوق ما يباع في السوق، يحاسبون على ذلك العمال، ويوفونهم الأثمان في كل حال، فعلى هذى تجوز الأعشار للأئمة ولجميع آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا اشتروها شراً قاطعاً، كما يجوز لهم أكل مال اليتيم إذا اشتروه بشِراً منقطع.

فأما أن يأكله أحد من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يؤدي له ثمناً، ويعتقده حلالاً، فمن فعل ذلك فهو على غير دين الإسلام، وعلى غير شرائع دين محمد عليه السلام، بل قولنا أن نتبرأ إلى الله ممن استحل العشر من آل رسول الله، وقال إنه حلال له من غير آل رسول

الله، بل لو أن رجلاً من آل رسول الله ألجئ إلى أكل العشر استحلالاً أو إلى أكل الميتة إذا كان مضطراً لرأينا له أن يأكل الميتة، قبل أن يستحل ويستبيح شيئاً من العشر.

ثم أقول: والذي نفس يحيى بن الحسين بيده، لو اضطررت إلى أن آكل جفنة مملوءة خبزاً ولحماً من العشر، وأنا له مستحل مستبيح، لم اشتره بثمني، ولم أدفع فيه نقدي، أو أن آكل من الميتة ما يمسك نفسي، ويدفع عن هلكتي، لأكلت من الميتة قبل أن آكل من لحم العشر وخبزه، لأن الله سبحانه قد أطلق لي أكل الميتة عند الضرورة وخوف الهلكة، ولم يطلق لي استباحة العشر ولا استحلاله في حالة.

(728/1)

فأمَّا إذا اشتريت العشر شراءً صحيحاً ثابتاً، ودفعت فيه مالي ونقدي، حل لي وطاب أكله بشرائي له، كما يحل لي مال اليتيم إذا اشتريته، ومال المسلم إذا ابتعته، فافهم هذه الحال التي تجوز فيها الأعشار لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحالة التي لا يجوز لهم أكلها ولا الانتفاع بشيء منها.

وقد يجوز له بحالة أخرى وهو أن يأخذ منها بعض أهلها المستحقين لها من سائر المسلمين شيئاً، فيهدون بعضه إلى آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويدعونهم إلى طعام من أعشار الصدقة فيجيبونهم، فيجوز لهم أكله إذا أجازه لهم أهله، فيكون أخذ المسلمين له باستحقاق ووجوب، ويكون قبول آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له منهم إن أهدوه إليهم قبولاً لهدية إخوانهم المسلمين، مما أطعمهم إياه وأجازه لهم رب العالمين، فقد حل لهم لهذا المعنى، وفي هذا الوجه، حين خرج من معنى الصدقة، وصار من أخيهم المسلم الذي قد ملكه إليهم هدية، وفي ذلك ما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه دخل على عائشة فوجد عندها تمراً فقال: ((من أين لكم هذا؟ فقالت: يا رسول الله صدقة تُصدِقَ بها على بريرة. فقال هو عليها صدقة، ولنا منها هدية. فقدمته بريرة إليه، فأكل منه.))، فعلى هذا الباب قولنا به في هدايا المسلمين إلى آل رسول رب العالمين، مما جعله الله للمسلمين حلالاً من صدقات إخوانهم المؤمنين. فافهم هديت ما عنه سألت، وقف على هذه الوجوه، فقد أكملت لك فيها كلما طلبت، مما يجوز لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من صدقات المسلمين، وأوساخ أيدي المتصدقين، وأعلمتك أي سبب تحل لهم، وفسرت لك متى يجوز لهم به أكلها، والمعنى الذي يدخل في ذلك حتى تحل لهم من بعده.

(729/1)

كيفية القسم للزكاة على أصنافها

وسألت عن المعنى الذي يجوز به قسم الزكاة على أصنافها وتسليم ربعها إلى الفقراء والمساكين. وقلت: كيف كنت في أول الأمر تقسم ذلك على أهله؟ وأنت اليوم ربما قسمت وربما لم تقسم، وربما أعطيت وربما لم تعط. فقد تكلم بعض من تكلم، ورأيتهم ينكرون عليك في بعض الأوقات إذا لم تقسم.

وقد سألتَ عن ذلك فافهم، وإذا فهمت فاعلم أن من لم يعرف شيئاً أنكره، ومن لم يعرف حقيقة أمر عظمه، أما علمت إن جهلوا، وفهمت إن غفلوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أن أتاه مال من البحرين، يقال إنه ثمانون ألف أوقية من أعشار البحرين، ومن جزية ذمتها ومن صواف كثيرة كانت بها، فقسم الثمانين ألفاً في مجلسه على جلسائه، يعطيهم غرفاً غرفاً، وكفاً كفاً، حتى لم يبق من ذلك شيء، وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم علم أن ذلك أصلح للإسلام في ذلك الوقت من القسم على السهام الثمانية.

وكذلك فعل في غنائم حنين، وهب للمؤلفة من خمسين بعيراً، إلى مائة بعير، إلى مائتين إلى ثلاثمائة، وحرم المهاجرين والأنصار في ذلك الوقت، حتى تكلم من تكلم من الأنصار، فكان منه من الفعل ما قد بلغك، وذلك فلم يفعله صلى الله عليه وآله وسلم إلا للصلاح الذي رآه، فأمضى رأيه في الغنائم، ولم يقسمها على أهلها نظراً منه عليه السلام للمسلمين والإسلام.

(730/1)

وكذلك كان فعلنا في العشر نقسم مرة، ونتركه مرة، نتحرى في ذلك الإصلاح للإسلام إذا رأيناه وبان لنا وعرفناه، وإذا استغنى الإسلام والمسلمون، وقلت حاجتنا إلى هذه الأعشار قسمناها على أصنافها، أو من وجدنا منهم، وإذا احتاج المسلمون والإسلام إليها آثرناهم بها على أهلها نظراً منا لهم، ومعرفة بأن ذلك أرجع في كل الأمور عليهم. وذلك أن الدار لا تصلح إلا بالجيوش والأنصار، والخيل والرجال، ولا تقوم ولا تجتمع إلا بالأموال، فنظرنا فإذا بالبلد الذي نحن فيه ليس فيه شيء غير هذه الأعشار، وإن نحن – عند حاجة المهاجرين والأنصار إلى القوت، وما به ندفع الهلكة والموت، من دفع هذه الأعشار التافهة إليهم، وردها دون الاصناف عليهم – دفعناها إلى المساكين وغيرهم من الأصناف المذكورين هلكت الجنود المجندة، وتبددت الجماعة المجتمعة، وافترق المهاجرون، وذل المسلمون، ووقعت البلية وعظمت المصيبة، وشملت الفتنة، ولم تضبط البلاد، ولم يصلح أحد من العباد، وعلا الظالمون، وخمل المؤمنون، وبطل الجهاد، وخربت البلاد، وشمل البلاء، وذل الأمر والرجاء، فهلك في ذلك الضعفاء، وشح الأغنياء، ومات الفقراء ووقع الضياع، وكثر الجياع. وعلمنا أنا إن آثرنا بها من به قوام الدار من أهل الإسلام من المهاجرين والأنصار

استوسقت السبل، وأمنت البلاد، وعاش العباد، وتجر التجار، وعمرت الديار، وزرع الزارعون، وتقلب المتقلبون، واستغنت الرعية، وحسن حال البرية، فعاش بينها أهل الصدقة من هؤلاء الأصناف المذكورين، وسخا الأغنياء بالعطية للطالبين، وتقلب الفقراء والمساكين في دار الأغنياء الواجدين، وتكسبوا معهم، وأصابوا من فضلهم، وحسنت بصلاح دارهم حالهم، واستقامت لعز الإمام أمورهم.

(731/1)

فلهذا المعنى قسمنا الصدقة عند ما يستغني عنها الإسلام والمسلمون، وحبسناها عند ما يحتاج إليها ويضطر الأنصار والمجاهدون، نظراً منَّا للرعية، واحتياطاً في الحياطة للبرية، وأداء إلى الله سبحانه النصيحة لعباده، وإحساناً وأداء إليه ما استامننا عليه من أموال بلاده، فصرفناها في اصلاح الدين والمسلمين، ورددناها على الأصناف من المسلمين حيثما كانوا اجتهاداً لله في النصيحة، وتأدية منَّا إليه ما حملنا من الأمانة؛ إذ كنا عن ذلك مسؤلين، وبإحسان النظر للإسلام والمسلمين مأمورين، وعن التفريط فيما يصلح البلاد منهيين.

(732/1)

مثال يدل على جواز القسمة على ما يراه الإمام من المصلحة

وسأضرب لك إن شاء الله ولمن عقل صواب رشدنا قولاً ومثلاً يبين لك حقائق علمنا، فليس كل متكلم مصيب في قوله، ولا كل منتحل للعلم عالم لكل ما يحتاج إليه، ؟وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ؟[يوسف: 76]، ومن طعن بغير علم على أولياء الله كان آثم أثيم بالقول. وما يذهب إليه الطاعن علينا بما لا يعلم متأول، في رجل مُتَوَلٍّ لأمور أيتام تحت يده، مسكنة صغار من ضعفة لهم أرض بعضها أعناب، وبعضها حرث، فاستغل لهم من ذلك العنب زبيباً، ثم حدث في العنب والحرث حدث من سيل فأخرب الحرث، أو نار أحرقت العنب، وخشبه، أكان الواجب عندك في دين الله وفرضه، وما حكم على ولي اليتامى في حكمه أن يصلح حرثهم وعنبهم بما قد أخذ من الثمن قبل خراب الحرث والعنب وينفقه ويرده عليه، ولو مدوا أيديهم لطلب الصدقة، وبدت منهم في تلك السنة الخصاصة والحاجة، حتى يصلح عنبهم إذا رد فيه ما احترق من خشبه، ويصلح أرضهم إذا عمرت، فتغل أرضهم وعنبهم في كل سنة من بعد صلاحه ما يعيشون به، ويرجع نعيمهم إذا رجعت عليهم، ويكمل حسن حالهم لصلاح أموالهم، أم تترك أرضهم وعنبهم خراباً، ويخليها فاسدةً يبَاباً، وينفق الغلة التي انفقها في صلاح مالهم عليهم فيأكلونها سنتهم، ويهلكون في طول عمرهم، إذ قد

خربت أموالهم؟
فإن قلت: ينفق عليهم هذه الغلة فتخرب أموالهم. فقد قلت قولاً شططا، وحكمت في ذلك بغير الحق حكماً، إذ لم تحسن لها ولا الأيتام نظراً، ومن لم يحسن النظر لأيتامه فقد باء عند الله بغب آثامه، وشهد عليه جميع الرجال بالقول الفاحش والمحال.
وإن قلت: بل يعمر ضياعهم، ويحيي أموالهم بهذه الغلة اليسيرة، ليلحقوا بذلك في أموالهم المعيشة الكثيرة الدائمة الكافية الغزيرة، فقد أصبت في قولك، وقلت حقاً في حكمك، وفعلت ما يصوِّبك فيه الجهلاء فضلاً عن أهل العقول من العلماء.

(733/1)

فإذا قلت بذلك من الحق وتكلمت فيه بقول الصدق، فكذلك فقل في فعلنا في بلاد رعيتنا، ومواضع ضعفتنا، ألا ترى أنا لو قسمنا هذه الزكاة على أهلها في وقت الحاجة حاجة الإسلام والمجاهدين إليها، ونزول الخصاصة بالمدافعين عن أهلها، فافترقوا عنَّا، وانتزحوا من قربنا فوقع الضعف على الإسلام والمسلمين بما وقع من الخصاصة بالمجاهدين، وقوي بذلك أهل الضلال من المضلين، ففسد أمر الرعية واختلفت أحوال البرية، ووقع الضياع عليهم، وكثر الجياع، واختلفت أمورهم، وساءت أحوالهم، وشحَّ بالمعروف أغنياؤهم، فهلك لذلك فقراؤهم، وخافت سبلهم، وخربت أموالهم، وظهرت عليهم أعداؤهم، وإن نحن رددنا زكاة الأمصار على المجاهدين والأنصار دون أهلها من هذه الأصناف المذكورة، ووقت ما ينزل بالمجاهدين الحاجة والضرورة، قوي الحقَّ، وضعف الفسق، وعاش في الدار المستضعفون، وجاد بالمعروف الأغنياء، واستغنى في دار معروفهم الفقراء، وأمنت سبلهم، وحسنت حالهم، وزال ضرهم، فهذا والمثل الذي ضربناه أولاً سيان في القول والمعنى اثنان، والحمد لله على الخلق والاستواء، ففكر فيما ذكرت لك بلبك، وانظر فيه إذا نظرت بخالص مركب عقلك، يبين لك في ذلك الصواب، ويزول عنك فيه الشك والارتياب.

(734/1)

بم تثبت الإمامة في الإمام من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟
وسألت عن إثبات الإمامة في الإمام من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: بما تثبت له أبعقد الناس وإجماعهم عليه، أم برواية رويت عن الرسول فيه، أم بغير ذلك؟
واعلم هداك الله أن الإمامة لا تثبت بإجماع الأمة، ولا بعقد برية، ولا برواية مروية، ولكن تثبت

لصاحبها بتثبيت الله لها فيه، وبعقدها في رقاب من أوجبها عليه من جميع خلقه وأهل دينه وحقه، وذلك قوله سبحانه:؟أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ؟[النساء: 59]، وأولو الأمر الذين أمروا بالكينونة معهم فهم الصادقون بادعاء الإمامة، وهم المستوجبون لها والمستحقون لفرضها، وهم من كانت فيه الصفات التي تجب له بها الإمامة: من ولادة الرسول، والعلم، والدين، والزهد، والورع، والمجاهدة لأعداء الله من كشف رأسه، وسل سيفه، ونشر رايته، ودعا إلى الحق وعمل به، وزاحف الصفوف بالصفوف، وأزلف الألوف إلى الألوف، وخاض في طاعة الله الحتوف، وضرب بالسيوف الأنوف، وأقام حدود الله على من استوجبها، وأخذ أموال الله من مواضعها، وصرفها في وجوهها، وكان رحيماً بالمؤمنين، مجاهداً غليظاً على الكافرين والمنافقين، معه علَمُه ودليله. والعلَم والدليل: الكلام بالحكمة، وحسن التعبير، والجواب عند المسألة، والفهم لدقائق غامض الكتاب، ولدقائق غيره من كل الأسباب التي يعجز عن استنباطها غيره، ويضعف عن تثبيتها سواه، فمن كان في الصفة كما ذكرنا، وفي الأمر كما قلنا فهو الإمام الذي عقد الله له الإمامة، وحكم له على الخلق بالطاعة فمن اتبعه رشد واهتدى، وأطاع الله فيما أمر به واتقى، ومن خالفه فقد هلك وهوى، وأفحش النظر لنفسه وأساء، واستوجب على فعله من الله العذاب الأليم، والخلود في الهوان المقيم، ؟أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

(735/1)

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ؟[السجدة: 18- 20]، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد، كثيراً طيباً مباركاً فيه.

(736/1)

من سيرة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين صلوات الله عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

الانهزام بسبب المعاصي

روى أصحاب الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين رضي الله عنه:

أن آخر حروبه كان بنجران، وأنه كان ذات يوم عليلاً من علته التي توفي فيها، وأن العدو ابتدروا لخيل الهادي إلى الحصن، وخرجت خيل الهادي وكان مريضاً فلم يخرج، فلما تراءت الخيلان كانت

الحملة على أصحاب الهادي، فولوا مدبرين، وقتل رجل من أصحاب الهادي يقال له يوسف بن أبي حرب العنسي، وكان راجلاً، وهو آخر شهيد استشهد من أصحابه، ولم يكن للهادي بعد ذلك قتال حتى توفي رضي الله عنه. فلما أُتي بيوسف قتيلاً، خرج الهادي من منزله إلى أصحابه حين اهتزموا فوبخهم، وقال: حين تخلفت منكم ساعة واحدة وجد العدو فيكم مدخلاً، ولم تعطفوا على أخيكم يوسف حين خرج معكم فتستنقذوه من يد العدو، اما إنكم لو كنتم على حقيقةٍ ما فعلتم هذا الفعل، ولقد فسدت قلوبكم ولن تروا بعدي إماما تقاتلون معه مثلي حيناً من الدهر، هذه ثمرة فساد قلوبكم، وفساد النيات وإظهار الملالة للجهاد، وضعف اليقين، وهذا فعل من باء بسخط من الله في تولية الأدبار بغير عذر ولا إبلاء في العدو.

قالوا: ثم وقع علينا الذنب بما فعلنا، وكثر احتجاجه علينا وتوبيخه لنا، حتى جددنا البيعة له، وأعطيناه الصفقة، وصححنا التوبة.

ثم قال: اعلموا أنه ما نكص قوم على أعقابهم الاّ بمعصية فيهم لله عز وجل.

(737/1)

وأنشأ يحدثنا عن حرب موسى بن عمران النبي صلى الله عليه بأحاديث عجيبة، فكان مما حفظنا عنه أنه قال: إن رجلاً كان يقال له بلعام بن باعورا الحوباني، وكان عالماً بالغاً في العلم، قد قرأ الصحف الاولى، وكان معه أسماء الله تعالى وكان يدعو بها بنية فتجاب دعوته، وكانت بنوا إسرائيل قد عظمته، وذلك في زمان موسى عليه السلام وجعلوه لهم ربانياً، وجبوا إليه. فكانوا إذا قحطوا أو نالهم مكروه أتوه، فدعا لهم بأسماء الله سبحانه فتجاب دعوته، وذلك قبل موسى، فلما أدرك نبوة موسى وسمع خبره أدركه الحسد والنكد؛ فقال: هذا يزيح مرتبتي ورئاستي. فأتاه العدو فقالوا له: ادع لنا على موسى بن عمران. فأجابهم إلى ذلك، فلما ركب أتاناً له يريد أن يدعوا لهم عليه بمكان مجتمعهم كلمته الأتان، فقالت: أتدعو على نبي الله؟! إنك من الغاوين. فرجع وقال: لست أدعوا عليه، ولكني أحتال لكم عليه وعلى أصحابه بحيلة يكون الظفر لكم عليهم والغلب. أشير عليكم أن تهادنوه وتعدوه أن تطيعوه وتسلموا له، فإذا فعلتم ذلك أرسلتم النساء البغايا إلى عسكره متزينات متعطرات، كأنهن يبايعن ويشارين في عسكره، فإن عسكره يصيبون المعاصي ويفسد إيمانهم بمواقعتهم المعاصي، فيرفع عنهم النصر، ويستحقون بالمعصية الخذلان، ولا تثبت أقدامهم عند اللقاء فيهتزمون عنكم. ففعلوا ما أمرهم به حتى نفذت حيلته ومكره فيهم، ونسي ما وعظ به، وأدركه الحسد والبغي الراجع عليه وباله.

(738/1)

ثم إن موسى عليه السلام قاتل ثلاثة أيام بعد انقضاء الهدنه، ومباينتهم له وبدوهم بالحرب لما نفذت مكيدتهم، فكل ما لقي أصحاب موسى العدو لم تثبت أقدامهم وانهد جيشهم؛ فيصيح موسى: عطاف! فلا يعطف أحد. فأقام ثلاثاً على هذا الحال، ثم قال: أنا نبي الله وكليمه لقد عصيتم، وهبط إليه الوحي: أن ائت خباء من أخبية أصحابك فانظر ما فيه. فلما أتى الخباء إذا فاسق على فاسقة، فطعنهما بحربته، فشكهما جميعاً وهما على قبيح فعلهما، ورفعهما وصاح، وكان صيّتاً شديد القلب، شديد القوة: يا بني إسرائيل هذا الفعل الذي يقلبكم على أعقابكم عند القتال، وشالهما حتى نظر العسكر اليهما وهو يهزهما، وهو حديد عجل الكلام قد أزيد على بني إسرائيل أسفاً وغيظا وغيرة على من عصى الله، وشدة في ذات الله عز وجل، فلما رأت ذلك بنوا إسرائل اجتمعوا إليه وقالوا: نجدد البيعة، والعهد لله، ونصح التوبة. فاصطفوا للصلاة والدعاء، وبسط نبي الله كساه، وكان لهم دليلاً على قبول توبتهم أن تجتمع فيه ألوان شتى، فيعلمون أن قد قبلت توبتهم.

(739/1)

في سحر يوم الجمعة عند انفلاق الفجر أمر موسى بالبوق فنفخ، وهو أول من أحدث أبواق الصفر؛ وذلك أن عساكره شكوا إليه أنهم لا يشعرون بحركته فألهمه الله لأبواق الصفر، وقيل والجباجب أيضاً، ثم سار موسى صلى الله عليه بهم واصطفوا بعد التوبة للقتال فثبتت أقدامهم، وانقلب العدو على أعقابهم مدبرين، فمنح الله أكتافهم، وغلب جند الله كما قال سبحانه: ؟وإن جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ؟[الصافات:173]. فلما دخل عليه السلام القرية انبعث إليه بلعام بن باعورا وهو دالع لسانه، قد ختم على فيه من الكلام وهو يلهث كما يلهث الكلب، والخلائق ينظرون كيف غيّر أمر الله فغير الله به. فأقام عبرة ومنظرة للعالمين أياماً على حاله، ثم قضى عليه الموت فذكر الله ذلك لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ؟وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ؟[الأعراف: 175].

قال القوم: فعلمنا أن الهادي رحمة الله عليه قد أزكن أن انقلابنا على أعقابنا تلك العشية كان لسوء فعلنا.

(740/1)

وصف لسيرة الهادي عليه السلام

وحدثنا محمد بن سعيد اليرسمي وزير الهادي رحمة الله عليه قال:

ولما نزل الهادي صعدة كان محله في دار الإمارة، فكان يصلي بالناس الصلوات الخمس بالجماعة لا يقطع ذلك ليلاً ولا نهاراً، ويجلس ما بين الصلاتين، فيعظ الناس ويعلمهم فرائض الدين، وفرائض المورايث، ويتحاكمون إليه، ويبين لهم ما يحتاجون إليه. ثم ينهض فيدور في الأسواق والسكك ونحن معه. فإذا رأى جداراً مائلاً أمر أهله بالإصلاح له، أو طريقاً وعثاً أمر بتنقيته، أو خلفاً مظلماً أمر أهله أنْ يضيئوا فيه بالليل للمارّ والسالك إلى المساجد. وإن رأى امرأة أمرها بالحجاب، فإن كانت من القواعد أمرها بالسترة، وهو أحدث للنساء البراقع باليمن وأمرهن بذلك.

وكان يقف على كل أهل بضاعة فيأمرهم أن لا يغشوا بضائعهم، ويأمرهم بتنقيتها من الغش وتفصيل ما يبيعون، وإيفاء ما يسمون.

فقالوا له أليس التسعير حراماً؟

فقال: أوليس الغش حراماً، والظلم كذلك؟

قالوا: بلى.

قال: فإنما نهي عن التسعير على أهل التقى، وأهل العفة، فإذا ظهرت الظلامات والنجش في البيوع والنقص وجب على أولياء الله سبحانه أن ينهوا عن الفساد كله، ويردوا الحق في مواضعه، ويزيحوا الباطل عن مكانه ويأخذوا على يد الظالم عن ظلمة.

(741/1)

قال: وكان يقف على السجن ثم يدخله ويأمر بتنقيته، ويأمر من كان فيه قارئاً أن يعلم من كان فيه لا يقرأ، ويسألهم عن قصصهم وفيم حُبِسوا. فمن كان محبوساً في دَيْن نظر في جدته وإفلاسه، ومن كان مذنباً تفقد جرمه وأمره، ويفحص عن أحوالهم ثم يرجع وقد أمر ونهى في جميع المصر. فأقام على ذلك أشهراً ما يفتر عن مواعظه، وصدقاته، وعيادته للمرضى، وتنبيهه للقلوب، ودعائه إلى الله عز وجل في السر والعلانية، حتى إن اهل الفسوق والظلم طمعوا فيه لما رأوا من ابتذاله نفسه في ناديهم وبين منازلهم، وفي خروجه بالأسحار إلى المسجد. فتبايع فساق على إصابته غيلة فلم يجسروا عليه، فاشتوروا أن يقتعدوا له في صومعة المسجد، وكان ذلك رأيهم، فلما خرج صلى الله عليه عجلوا فرموه قبل دخوله المسجد وأخطأه السهم الأول، وقد دخلت رجله المسجد، واندفع بكله فولج باب المسجد فأصيب الباب بالنبل، ووقع في كساء كان عليه سهمان، وسلمه الله. فسكت حتى

صلى بالناس وأسفر، ثم أخبرهم فخرجوا فالتقطوا النبل من باب المسجد، ثم قال:
اللهم إني أمَّلت أن أسير فيهم بسيرة الاختلاط بهم، وأن أصلا بنفسي ولاية أمرهم حتى أكون فيهم كأحدهم، لا أحتجب عنهم، ولا أغيب شخصي عن محاضرهم، ولا أترك صلاة بهم، ولا أكلهم إلى غيري، فبدأوا بالمكيدة، وأرادوا النفس بالقتل وإني ضارب الحجاب، ومحترز منهم حتى يحكم الله بيني وبينهم.
وحدثني محمد بن سعيد أيضاً قال: رأيته يفت الطعام للأيتام بيده ويثرده بالسمن، ثم يقول: أدخلوهم. ثم ينظر فمن كان منهم ضعيف المأكل قال: هذا مغبون. فيأكل مع المساكين ثم يعزل له، وكان لا يأكل طعاماً حتى يطعم المساكين منه، ثم يأكله بعد ذلك.

(742/1)

قال: وكان يأمر صاحب بيت مال المسلمين أن يطعم المساكين والزمنى عشياً وغدياً على قدر قوتهم، وعلى قدر ما في بيت مالهم. وكان يأمر بالكسوة لهم في كل وقت تخاط ثياب قد اشتريت للرجال والصبيان والنساء، وكان يأمر في الشتاء من يتولى شراء الصوف، ويقول: إن لكل وقت كسوة، وإن لكل زمان لباساً.
قال: ورأيته يتفقد أهل الذمة ويقول: إن الحكم عليهم جار، وقد أوصى بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول لهم: ما آذاكم من شي فأعلموني به، ومن اطلع على محرمكم أو تعرض لكم أحللت به ما أحل بنفسه، ومن نكث عهد الله وعهد رسوله. فكان لا يزال يُسلم منهم الواحد والاثنان، والمرأة والمرأتان لما يرون من عدله ورفقه.
رحمة الله عليه ورضوانه، وصلواته على جده محمد وعلى آله الطيبين وسلم.

(743/1)

عهد الإمام الهادي عليه السلام لعمّاله

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي وعلى آله الطيبين، وسلم تسليماً، هذا عهد عهده الإمام الهادي إلى الحق أمير المؤمنين يحي بن الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمر بنسخته لجميع العمال الموجهين إلى جميع المخاليف نسخة واحدة، حجة عليهم بالغة، يتخلص بها من أقامها، ويهلك بها عند الله من خالفها، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن

اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال: 42]:
أيها العمال قد استعملتكم على جباية أموال المسلمين، وما استعملتكم حتى سألت عنكم، وبحثت عن أموركم، فذكر لي منكم من الخير ما استجزت به الاستعانة بكم على ضم أموال الله تبارك وتعالى.

(744/1)

الأمر بتقوى الله وبالتواضع
فأول ما أوصي به نفسي وإياكم، وآمرها به وآمركم بتقوى الله عز وجل، والمخافة له في السر والعلانية. وآمركم أيها العمال بالتواضع لله، وترك الكبر على عباد الله، وأن تعرفوا أنفسكم وما مِنْه خُلِقتم، وما إليه تصيرون؛ وكل ما أراكم الله سبحانه محنة وخيراً ازددتم لله تواضعاً وشكراً، فإنكم إن فعلتم ذلك يحسن منقلبكم إلى خالقكم، وسلمتم غداً من عذاب ربكم.

الأمر بتعريف الرعية ما أوجب الله عليها
وآمركم من بعد ذلك بتعريف الرعية بحق الله، وتعليمها ما أوجب الله عليها من معرفته سبحانه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن المنكر والمظالم، وترك معاصي الله، والتعدي في أمر الله.

التحري في اختيار العمال
ثم آمركم أن لا تبعثوا خارصاً، ولاتستعينوا في أموركم مستعاناً، حتى تستحلفوه على كتاب الله: لَيَجتهدَنَّ وينصحن، ولا يحيفن على أحد من المسلمين ولا من المؤمنين، وعلى أنه إن التبس عليه أمر أو شك فيه جعل الميل في ذلك على أموال الله دون أموال عباده من بعد الاجتهاد لنفسه، والامتحان في ذلك لعقله.

(745/1)

أحكام العشور
ثم آمركم أن لا تأخذوا في طعام من الأطعمة كائناً ما كان من الأصناف المصنفة التي تكال بالمكاييل حتى تبلغ سبعة عشر ذهباً إلا ثلثاً. فإذا بلغ كل صنف من الطعام سبعة عشر ذهباً إلا ثلثاً بالمكوك، أُخذ مما يستقى منه بماء السماء، أو بالعيون عُشراً كاملاً، وما يسقى منه بالسواني

نصف العشر، ولا يضم زبيب إلى ذرة، ولا ذرة إلى شعير ولا شعير إلى حنطة.

وآمركم أن تأخذوا من كل ما لا يدخله المكيال من فاكهة أو قصب أو غير ذلك العشر، إذا كان يؤدي كل صنف من صنوف الفاكهة مائتي درهم قفلة في السنة، وكذلك القصب وجميع الخضر العشر كاملاً إذا سقي بالعيون، أو بماء السماء، وما سقي من السواني من ذلك ففيه نصف العشر، وكذلك الحكم في الورس، وكل ما أنبتت الأرض، مما لا يكال.

فأما العسل فمن كان له من النحل ما يستغل في كل سنة قيمة مائتي درهم قفلة عده من الحول إلى الحول ففيه العشر كاملاً في قليله وكثيره، إذا كان يأتي في السنة بمائتي درهم قفلة.

أحكام زكاة الغنم

وآمركم أن تأخذوا ما أوجب الله في الغنم. وليس فيما دون أربعين شاة زكاة على مسلم، فإذا بلغت أربعين ففيها شاة فارهة، لا من خيار الغنم ولا من شرارها، ثم ليس في الغنم غير تلك الشاة حتى تزيد على العشرين ومائة واحدة، ففيها شاتان إلى المائتين. فإن زادت على المائتين شاة واحدة ففيها ثلاث شياه، إلى ثلاث مائة، فإن كثرت الغنم ففي كل مائة شاة، يعد من أولادها ما قد مشى وأكل من الأرض.

(746/1)

أحكام زكاة البقر

وكذلك في البقر؛ لا يجب فيما دون ثلاثين بقرة شيء فإذا وفت ثلاثين ففيها تبيع أو تبيعة. ثم ليس فيها شيء حتى تكون أربعين، فيكون في الأربعين مسنة. ثم لا شيء فيها حتى تكون ستين، فإذا بلغت ستين ففيها تبيعان. ثم لا شيء فيها حتى تكون سبعين، فيكون فيها تبيع ومسنة؛ إلى ثمانين، فيكون في الثمانين مسنتان. ثم في كل أربعين مسنة، وفي كل ثلاثين تبيع.

أحكام زكاة الذهب والفضة

ثم آمركم أن تقبضوا من كل من معه ذهب أوفضة من التجار وأصحاب الأموال ربع عشر ما معهم من ذلك، من ذهب أو فضة أو عروض للتجارة. ولا يجب على أحد منهم في فضة زكاة حتى تبلغ مائتي درهم قفلة؛ ولا تجب في ذهب زكاة حتى يبلغ عشرين مثقالاً، ثم يكون فيه ربع عشره، وما زاد على العشرين فبحساب ذلك.

(747/1)

أحكام توزيع الزكاة

وآمركم إذا قبضتم جميع الزكوات التي سميتُ لكم أن تُخرجوا ربع ما تجبون من كل مخلاف فتقسمونه على مساكين البلد وأهل فاقتهم وحاجتهم. ويخصون بذلك من لا حيلة له مجتداً ولا ملتداً، دون من له حيلة، ولا تعطوا من يجد متعداً حتى يكتفي من لا متعد له، وتنفقوا من ذلك مار الطريق وابن السبيل، ثم تضموا الثلاثة الأرباع الباقية حتى تصيروا بها إلينا إن شاء الله، فنصرفها حيث أمر الله.

الأمر بالنزاهة

وآمركم أن لا تنزلوا على أحد، ولاتقبلوا له هدية، ولاتكلفوهم مؤنة، وانزلوا في منازل بالكراء، واستنفقوا من أموال الله بالمعروف، فقد أخرجت ما في رقبتي، وأعذرت وأنذرت إليكم، والله الشاهد سبحانه عليكم.

(748/1)

أحكام أموال أهل الذمة وأراضيهم

وكذلك من وجدتم من أهل الذمة فخذوا منه ما أوجب الله في رؤسهم مما حقن به دماءهم في الجزية؛ وهي اثنا عشر درهماً على فقرائهم - وهم الذين يملكون أربعة دنانير فصاعدا، ومن لم يملك شيئاً فلا شيء عليه - وعلى أوساطهم أربعة وعشرون درهماً قفلة، وعلى ملوكهم - الذين يملكون ألف دينار فما فوقه ناضاً أوقيمة ثلاثة آلاف عرضاً - ثمانية وأربعون درهماً قفلة. ولا تأخذوا شيئاً مما أمرتكم بأخذه إلا بأحسن الأمر وأرفقه، ثم تجمعون مَن قِبَلكم من أهل الذمة فتخبرونهم أن الله تبارك وتعالى لم يجعل على ذمي في ماله صدقة؛ لأن الصدقة ممَّن أخذت منه تطهرة، وأنه ليس على ذمي في شيء من الزرع ولا الفواكه ولا الذهب ولا الفضة ولا المواشي، ولا شيء مما يؤخذ منه من المسلمين زكاة قليل ولاكثير. وأنهم قد شغلوا أرض الله وأمواله عن العشر، وأنه لا يجوز لنا ترك ذلك في أيديهم، فتخيرونهم: فإن أحبوا أن يبيعوا ما اشتروا من المسلمين هم وآباؤهم وأجدادهم حتى ترجع أموال الله إلى العشر الذي جعله الله على المسلمين معونة للإسلام وأهله فيفعلوا؛ وإن أحبوا أن يقيموا عليها ويتركوا فيها، على أنهم يصالحوننا عوضاً من العشر على التسع مما يكال بالمكاييل مما يسقى بالعيون أو بماء السماء، أو على نصف التسع مما يسقى بالسواني والدوالي ويؤخذ منهم ذلك في القليل والكثير والمد والذهب؛ فأي هذين المعنيين أحبوا فافعلوه لهم.

فإذا صاروا إلى أحدهما فذمة الله وذمة رسوله في رقاب المسلمين لأهل الذمة، ولايكلفون كلفة، ولا يغرمون غرامة، ولا يسآء إليهم بحيلة. فمن تعدى ما ذكرنا فنحن المغيرون عليه، ومن كان بعدنا من عباد الله قايماً بما قمنا به من دين الله، والله على ذلك شهيد، ونشهد لهم عليهم جماعة من المسلمين ومنهم على ما أحبوا ورضوا من أحد هذين المعنيين، والحمدلله رب العالمين، وصلىالله على محمد وآله وسلم تسليماً.

(749/1)

وله أيضاً صلوات الله عليه:

(750/1)

جواب مسألة الرجل من أهل قم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

سألت – عصمنا الله وإياك بعصمته، ووفقنا وإياك لمرضاته، وجعلنا وإياك من أهل طاعته، وختم لنا ولك بمغفرته، ونجانا وإياك من حيرة هذا الدهر برحمته، – عن معرفة الله تبارك وتعالى ما تصرفها في الخلق، وكيف تكوينها في العباد، وما محلها في الأجساد، وهل هي من أفعال المخلوقين، أم هي خلق لأحسن الخالقين، غريزة ركبها في عباده، فجعلها سبحانه كما خلق وركب وجعل فيهم من العقول؟.

(751/1)

المعرفة

واعلم هداك الله أن المعرفة هي كمال العقل والعمل به، فإذا كمل العقل وصح واستعمل تفرعت منه المعارف والأفهام لذوي الفكر والاعلام، ومتى عدمت من الآدميين الألباب، لم تصح فيهم المعارف بسبب من الأسباب، بل تكون بِنَأْيِهِ أنأى من كل ناءٍ، وبدنوه أدنى من كل داني، تحضر بحضوره، وتعزب بعزوبه، محتاجة إليه وهو فغير مضطر ولا محتاج إليها، متفرعة من فروعه، كامنة في

أصوله، كاينة بكينونته، وهو فغير متفرع منها ولا محتاج مضطر إلى كينونتها، بل هو مقيد العماد، راسخ الأوتاد. فكل معرفة كانت من العباد بالأزلي الخالق الجواد فبالعقول استدركها المستدركون من ذوي الألباب، واستخرجها المستخرجون، ووقف على حدود شرائعها العالمون، وعلى ذوي العقول افترضت معرفة الله وعبادته، وهم الذين ينالون بأداء فرائض الله ثوابه، ويستحقون برفضها دون غيرهم ممن سلب لبه عقابه، فالعالمون من ذوي الألباب هم المجازون بالحسنة الحسنات، وبالسيئات من الأفعال السيئات.

(752/1)

العقل

والعقلاء فهم الموقفون للحساب، الخائفون لأليم العقاب، والكاين منهم ما ذكر الله سبحانه حين يقول: ؟يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ؟[آل عمران: 106] وهو يوم تخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا، فتبيض فيه وجوه من جاء بصالح الأعمال، وتسود وجوه من جاء بسيء الأفعال، يكون حال من سلب لبه فيه كحال الأطفال، آمناً إذ ذلك من هائل الأهوال، لا يسألهم الواحد العدل المنان، عمَّا منهم في دنياهم كان، فتبارك العادل بين خلقه الرحمن. وفيما نقله الثقات من ذوي العقول ثقة عن ثقة عن الرسول، عليه السلام، أنه قال: ((لما أن خلق الله العقل قال له: أقْبِل! فأقْبل، ثم قال له: أدبر ! فأدبر ، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، بك أعطي وبك آخذ.))، فقوله: ((بك آخذ وبك أعطي)) دليل على أنه لا يثاب على فعل فعله ولا يعاقب على جرم اجترمه إلا من ركب فيه لب حاضر ، ورأي صادر ، وفي قول الله تعالى: ؟إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ؟[الرعد: 19] أكبر الدليل على أنه لا يكون تذكرة ولا تفكرة تعود إلى معرفة وبيان، وحسن نظر وإتقان، إلا بلب يتفرع منه التذكرة والمعرفة في الإنسان، فتبارك من عِلْمُ خفيات ضمائر القلوب عنده كالإعلان.

(753/1)

تفرع المعرفة عن العقل

فإن قيل لك: ابن لنا ما معنى تفرعها من العقل، وكيف تتفرع؟ وما معنى قولك يستعمل العقل؟ وكيف يستعمل، ومثِّل ذلك لنا بمثل تقبله عقولنا، وتفهمه أنفسنا.

فقل: مَثلُ العقلِ في الآدمي كمثل الاستطاعة فيه، فالاستطاعة هي سلامة أدواته، فإذا استعملت الأدوات فيما تصلح له تفرعت أفعاله منها، كمثل ما يتفرع من الكف من الحركة مما يؤدي إلى رفع

أو وضع، أو ما يتفرع من حركات الرِجْل من مشي أو عدو، أوركوب، أو نزول، أو غير ذلك. وكل أداة ففعلها متفرع منها، وتفرعه فهو خروجه، وكلُّ فعلِ أداةٍ فغير كائن بغيرها من الأدوات، ولن يوجد إلا بوجودها، ويتغير بتغيرها، ويزيد بزيادتها، ويكمل بكمالها، ويعدم بعدمها، ويدخل عليه من الضرر ما يدخل عليها. وكذلك تفرع المعرفة من العقل وكسبها به كتفرع الحركات من الأدوات، توجد بوجوده، وتعدم بعدمه. والعقل فهو خلق الله وتركيبه في عباده، والمعرفة فهي أفعال المخلوقين، متفرعة من العقول، فكل من أعمل عقله في شيء من آيات الله قاده إعماله لعقله من معرفة الله تبارك وتعالى إلى أبين بيان، وتبين له بما يتفرع من المعرفة بالله أنوار البرهان، فيثيب اللهُ من قبلَ ما دل عليه مما تفرع من مركب لبه الذي جعله الله فيه، من المعرفة بالله عز وجل، فإذا ميز وأعمل النظر في صغير آيات الله دون كبيرها، فعلم أن لها خالقاً كريماً، ومدبراً عليماً، فقبل ذلك بأحسن القبول، فاستوجب من الله الزيادة والتوفيق. ويعاقب من كابر لبه وأنكر آيات ربه واستوجب بذلك منه الخذلان، وتمكنت منه وساوس الشيطان، كما يثيب من عمل بكفه خيراً، ويعاقب من اكتسب بها شراً. وأما استعمال العقل فهو الفكر به، والنظر والتمييز بين الأشياء، والبصر فيها وفي تركيبها وتدبيرها وحسن تقديرها، حتى يقوده ويدله ما يتفرع من لبه عند استعماله له على معرفة علاَّم الغيوب، ومقلب ما يشاء من القلوب.

(754/1)

فإذا ثبت عنده أن له خالقاً ومصوراً، ولجميع الأشياء فاطراً، ومدبراً وجب عليه أن ينظر في كتاب الله تبارك وتعالى، ويسأل العلماء عمَّا ذكر الله من كرسيه وعرشه، ويده ووجهه، حتى يبينه كل عالم بما يحضره من الجواب. والسؤال فواجب عليه، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وهم آل محمد صلى الله عليه وعليهم. فإذا أنبي عمَّا يسأل وجب عليه أن يتفكر بعقله، فيضيف إلى الله سبحانه من الأشياء ما هو أولى به، وينفي عنه الشبهات التي تكون في خلقه، ويعلم أن ليس كمثله شيء كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الشورى: 11]. فإذا علم أن الله واحدٌ أحدٌ، وأنه مباين للأشياء كلها، مخالف لها غير مشاكل لما خلق، لا يحويه مكان، ولا يشغله شأن عن شأن، وهو بالمرصاد كما قال سبحانه وجب عليه أن يعلم أنه عدل لا يجور، فإذا علم ذلك فقد أكمل معرفة ربه سبحانه.

(755/1)

المعرفة بالتقليد

فإن قال قائل: فإنا نجد المعرفة باينة من العقل لا تدل على صفات الله، ولا يقف صاحبها عليها من غير تعريف ولا سؤال، فقال: إن المعرفة إنما هي تعليم من بعض لبعض، مستغنية بنفسها غير محتاجة إلى العقل.

قيل له: فأخبرنا عمن عمل شيئاً يجب على من أضافه إلى الله أن يكون ناسباً إلى الله الجور والظلم؟ وما يجب على من اعتقد أن يكون الله مشبهاً بخلقه؟ فقال بذلك واعتقده، هل يكون بالله عارفاً، ولله موحداً؟

فإن قال: نعم، كفر. وإن قال: لا. قيل له: أفرأيت إن اختلفت عليه الأقاويل، فأمره قوم باعتقاد ما يلزمه به التشبيه والتجوير لربه، وأمره آخرون باعتقاد التوحيد والقول بالعدل، فالتبس عليه أمره، وعمي عليه رشده، ما الذي يجب عليه في ذلك؟

فإن قال: إنه يجب عليه أن يقلد أحد الفريقين قولَه ويقول به، وزعم أنه إذا قلد قوماً قولاً ثم عمل به واعتقده نجا من إثمه، وكان عليهم وزره، وجب عليه أن يقول: إن كل من أمر بدين من الأديان من اليهودية، أو النصرانية، أو أي دين كان من أديان الكفر وأشار به فقبله منه قابل، وقلده إثمه، ودخل فيه، فأحل ما حرم الله، وحرم ما أحل الله، كان بذلك بريأ من الوزر، وكان جميع ذلك الأمر على من أمره به دون من قبله. ولوكان ذلك كذلك لم يعذب الله إلا المؤسسين لأنواع الشرك من القرون الأولة، ولكان كل من عمل بعملهم ناجياً من سخطه وعقابه، ولكان كل من قال على الله بالحق ودان بدين محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين وسلم غير مثاب عليه، ولكان الثواب واجباً في القياس للرسول، ولم يكن لمن عمل به ثواب ولا محمدة، ولم يكن المذنب بإجرامه بآهل بالعقوبة من المحسن في أعماله، ولكان المطيع والعاصي في الثواب والمجازات على العقاب سيان، إذ كانا من جميع أفعالهما بريان.

(756/1)

ثم يُسأل فيقال له: أخبرنا عن إبليس إذا أمر العباد، ووسوس وزين لهم المعاصي، حتى يكونوا لها عاملين، ولعظائمها مرتكبين، على من أثمها؟

فإن قال: على إبليس دونهم.

قيل له: فإنا نجد الله قد أخبرنا في كتابه أنه من أطاع إبليس، فإنه من العاصين المعاقبين على ارتكاب ما يأمره بركوبه، ويزينه له ويوسوس له به، فقال سبحانه في ذلك: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: 85]، فهل وجب عندك على من أطاع إبليس وعمل بما يأمره به من المعاصي عقوبة النيران؟

فإن قال: لا، كفر. وإن قال نعم، ترك قوله وخرج من حد التقليد، فلا يجد بداً من أن يقول: إن الواجب عليه عند التباس الأقوال، واختلاف الأفنان، أن يرجع إلى عقله في ذلك فيفكر به، ويميز فينظر بعقله ويتخير لنفسه، فيتفرع له من عقله من المعرفة ما يقول على الله به الحق، ويذكره بما يشبهه من الذكر الذي لا يكون إلا له سبحانه فيعلم أن المعرفة كلها خارجة متفرعة من العقل، وأنه لا يكون معرفة إلا بالعقل ومن العقل.

(757/1)

ومن الدليل على أن المعرفة هي ثبات العقل وكماله، بأن علمنا أن شراب الخمور، وأهل الدعارة والشرور، إذا شربوها زالت عنهم الألباب، وأنها مضطرة إليه محتاجة، تعزب بعزوبه، وتحضر بحضوره، وتتفرع في ثباته وتعدم عند عدومه، فعدمت بزواله منهم المعارف حتى يطيح عنهم واضح البيان، ويزيح بما قد كان مؤدياً لهم من بين اللغة واللسان، وحتى تلتبس عليه حلايله من أخواته، وأمهاته من خالاته، ويأتي على لسانه من القذف والفحش والمنكر والدنأة في النادي والجماعات ما يفضحه ويشينه، وما لعله لو عرض مفروجاً عليه عند ثبات لبه وتفرع معرفته سوءَ ما كان منه إذ كان لا معرفة له بما سلف منه في حال كينونته ويأتي متيقظاً واحداً من أفعاله في عزوب لبه ما فعل ذلك أبداً، بل لعله يود أنه كان ميتاً فانياً، مفقوداً نائياً، ولا تبين منه الأشياء الفواضح، والأفعال الطوالح، ففي أقل ما ذكرنا دليل على أن المعرفة لا تثبت ولا تكون إلا بالعقل ومن العقل.

(758/1)

إلهام البهائم

فإن احتج فقال: قد نرى البهائم التي نعلم نحن وأنت أنها عدمت العقول تعرف أولادها وأمهاتها وتعرف طعامها وشرابها من غيره، وتعرف ما يضرها مما ينفعها فتعتزل المضار وتتبع المنافع.
قيل له: إنما كلامنا في المثابين والمعاقبين، من الجنة والآدميين من المأمورين والمنهيين الذين ينالون الطاعة والمعصية بما ركب فيهم من الاستطاعة، فيكونون متخيرين لأحدهما يثابون على طاعة إن كانت منهم، ويعاقبون على معصية إن جاءوا بها، ولا يكون تخير الواحد من الأمرين إلا من ذي لب واضح، وعقل راجح، فأمَّا البهائم فإنها غير مأمورة ولا منهية، ولا مثابة ولا معاقبة، وإنما عدمت الثواب والعقاب بما سلبته من الألباب، وأما ما يكون منها من شيء فعلى غير معرفة ثابتة ولا تمييز، وإنما يكون ما يكون منها من معرفة الذكر للأنثى، ومعرفتها لأربابها، ومعرفة الذكر بما

يكون لاقحاً من الإناث فهو أعرف وأكثر من معرفة الطعام والشراب والأمهات والأولاد، فإنه منها على الإلهام وإنهن لملهمات لذلك إلهاماً، كما يلهم الطفل في صغره معرفة الثدي وطلبه له، وبكاه وسكوته وحزنه وسروره وكل ما كان من الطفل بغير تمييز ولا عرفان، وإنما هو طبع وإلهام، حتى إذا كمل من عقله ما يحوز به التمييز من الأشياء ميز حينئذ فاختار، فأخذ وترك، وعرف ما ينفعه مما يضره، فاجتنب ما يضره، وطلب ما ينفعه، وهو في صغره لو وضع قدامه تمراً وجمراً، وملحاً وسكراً، لكان حرياً بالأخذ للضار له منهما، لعدم عقله وذهاب معرفته وفهمه، ففي أقل مما ذكرنا إن شاء الله ما بين وكفى عن التطويل وشفى من كان مسترشداً تابعاً للهدى، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وملائكته وجميع الأنبياء والمرسلين من خلقه على محمد عبده ورسوله النبي الإمام الهادي المهدي، وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار الصادقين الأبرار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(759/1)

الدليل على أن الله خلق الأشياء لا من شيء

وقلت: ما الدليل على أن الله خلق الأشياء لا من شيء؟

والدليل في ذلك أنه لا يخلو أن يكون خلق أصل الأشياء ومبتداها من شيء، أو من غير شيء. فإن خلقها من شيء أزلي، فقد كان معه في الأزلية والقدم غيره من الأشياء، ولو كان ذلك كذلك تعالى الله عن ذلك لم تصح له الأزلية، وإذا لم تصح له الأزلية لم تصح له الوحدانية، وإذا لم تصح له الوحدانية لم تصح له الربوبية؛ لأن من كان معه شيء لا من خلقه فليس برب للأشياء كلها، إذ لم يكن لكلها خالقاً، فمن ههنا صح أنه خلق الأشياء لا من شيء، وابتدع تكوين ابتداعها من غير شيء.

(760/1)

العلة في بعثة الرسل

وقلت: لأي علة بعث الله الرسل؟

وبعثهم ليكونوا حجة على خلقه، وليبلغوا مِن عنده ما تعبدهم به من فرضه، إذ مفروضاته سبحانه معقول ومسموع، فما كان من المسموع فلا بد فيه من مُسمِع يؤديه وناطق به عن الله بما فيه، وهم الرسل عليهم السلام، المؤدون إلى خلق الله رسائله، والمبلغون إليهم عنه مراده منهم، فلهذا المعنى

من تأديتهم عنه بعثهم.

تمَّ ذلك والحمدلله كثيراً.

وسئل صلى الله عليه عن رجل اشترى شيئاً فوجد به عيباً ثم استعمله بعد ما وجد فيه العيب، فقال: ليس له رده، وليس له إلا أرشه، وهو نقصان الثمن بالعيب، وقال إذا جاء المشتري يرد بعيب وكان العيب مما يحدث مثله في تلك الأيام، ثم أقام عند المشتري فعلى المشتري البينة أنه اشتراه وبه ذلك العيب، فإن لم يكن له بينة؛ فعلى البائع اليمين ما باعه هذه السلعة وفيها هذا العيب، وقال صلى الله عليه: إذا اشترى رجل جارية فوجدها ولد زنا من أمة الرجل الذي باعها فليس هذا عيب يرد به، وقال إن البول عيب في الكبير، وليس هو عيب في الصغير.

تمَّ ذلك والحمدلله وحده، وصلوات الله على محمد وآله.

وله ايضاً صلوات الله عليه:

(761/1)

جواب مسائل أبي القاسم الرازي رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

المساواة والتفضيل في العقل

قال الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

سألت يا أبا القاسم أكرمك الله بكرامته، وأتم ما بك من نعمته، وجعلك ممن اهتدى فزاده نوراً وهدى، فجمع لك بذلك خير الآخرة والدنيا، فقلت:

أخبرني عن عقل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هل كان مثل عقل أبي جهل؟

(762/1)

استواء العقول في ما تقام به الحجة

الجواب في ذلك:

إن كنت تريد بقولك هل هو مثله؟ أي: هل يعمل عقله إذا استعمله كعمل غيره فيما جعل له وركب عليه، أو هل يستدرك به أداء فرض الله الذي افترضه الله عليه، وينال به بلوغ ما أوجب الله عليه، من تمييز الأمور وفهم واجب الفرائض، وهل يستدرك به معرفة الخالق بما يرى من أثر صنعه، وينال به التمييز بين طاعته ومعصيته، فيكون بذلك بالغاً من أداء حجج الله، واستدراك الدليل على

الله، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليستدرك بأصل حجة عقله من أداء فرضه... فكذلك نقول: إن أبا جهل قد كان يستدرك وينال بأقل قليل عقله أكثر مما افترض عليه من دينه، وفوق ما يحتاج إليه من الدلائل على معرفة ربه. فقد كان فيما أعطاه الله من أصل الحجة، وثبت فيه من العقل لأداء الفريضة، وفي الاستدلال إن استعمل عقله بالغاً بعقله ما كان يبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بما أعطى من مبتدأ حجة العقل من المعرفة بأداء فرض الله، والوقوف على دين الله، الذي لم يرض من العباد إلا بأدائه.

ولولا أنه قد ساوى بينهم فيما ينالون به معرفة ما افترضه عليهم، وأداء حججه التي احتج بها عليهم، ما كانت تجب له عليهم حجة، ولكن الله عز وجل أعطى كلاً ما ينالون به أداء حجته، فساوى بينهم في إقامة الحجة عليهم، وإثبات البراهين في صدورهم بما يبلغون به فرضه، وينالون به معرفته.

(763/1)

فإن كنت أردت هذا المعنى، فقد ساوى الله بين الخلق كلهم، فيما يكون به بلوغ حجته، وتمام منته، ونهاية أداء فرضه من العقول المركبة في صدورهم الثابتة في قلوبهم، وأثبت بذلك عليهم كلهم حجته لأن العقول المركبة فيهم من هذه الحجج اللازمة لهم من فعل الله لا من فعلهم، ومن صنع الله عز وجل لا من صنعهم، وتدبيره جل جلاله لا من تدبيرهم؛ فمبتدأ ما أعطاهم الله من حججه منه لا منهم. فلما أن صح أن هذه العقول المركبة في الخلق فعل الله، كان فعل الله في ذلك مشتبهاً، وكان تدبيره في إثبات الحجج عليهم متساوياً، فاشتبهت وتساوت حجج الله على خلقه، التي ركبها في صدور عباده، بعدله فيهم وإحسانه إليهم في مبتدأ أمرهم، كما استوت عليهم فروضه، ووجبت عليهم شرائعه، ولزمتهم بها عبادته. فكانت أصول ما أعطاهم من حججه فيهم سواء كما كانت فروضه عليهم كلهم سواء، فتساوى المعنيان من الله في ذلك معنى الفرض والمعنى الذي ينال به الفرض، فكانت فرائض الله على عباده كلهم سواء، وجاء ما تعبدهم به منها سواء على المساوات والاستواء. وكذلك جاءت أصول ما أعطاهم الله من حجة العقل التي ينالون بها أداء هذه الفرائض على قياس ذلك سواء، فاستوت المفروضات عليهم، والحجة التي ينالون أداءها بها فيهم، فساوى الله سبحانه بينهم في إثبات الحجة عليهم، وإكمال البراهين فيهم، وإيجاد السبيل لكلهم، إلى أداء فرضه وبلوغ طاعته، فكان ما أعطوا من أصل حجته العقل في ذلك بينهم سواء، كما كان الفرض عليهم كلهم سواء.

(764/1)

تفضيل الله لمن يشاء في الزيادة في العقول

ثم فضل الله تبارك وتعالى من يشاء بعد المساواة بينهم، والاكتفاء بما شاء بعد ذلك من الأشياء، فلم يكن لعباد الله حجة على الله، كما لم يكن لهم حجة فيما خلق وجعل وفطر من الأشياء، وفعل من جعله لبعضهم أهل جمال وهيئة، وجَلَد وهيبة، وجعل بعضهم أهل لطافة ودمامة، وأهل قلة وسماحة، فمن تكلم فيما فضل الله به بعض الخلق على بعض في زيادات العقل، وجب عليه أن يجيب فيما فضل الله به بعضهم على بعض فيما ذكرنا من زيادة الخلق في حسن الألوان وعظم الأبدان، والكمال والبيان... لا يجد من ذلك بدأ؛ لأن المعنى فيهما واحد مؤتلف، متساو غير مختلف.

وليس في ذلك للخلق على الله حجة، ولا يلحق به سبحانه لمتعنت تجوير ولا ظلم، ولا يثبت به عليه حيف ولا غشم؛ لأنه حكيم يمضي ما كان فيه الحكمة على كره من كرهه، وإرادة من أرداه؛ لأن الحكمة هي رأس الحق وأصله، والحق فلا يتبع أهواء العباد، ولو اتبعه لفسدت البلاد والعباد، كما قال ذو العزة والأياد حين يقول: ؟وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ؟[المؤمنون: 71].

(765/1)

الحكمة من التفاوت في الخلق

فإن قال قائل: وما في التفاوت بين خلقه في الخلق والأجسام والألوان من الحكمة؟

قيل له: في ذلك أحكم الحكمة، لما فيه من الدليل على صانعه، والشهادة على جاعله، والنطق بوحدانية فاعله، وحكمة مدبره؛ لأنه لما أن تصرفت خلقهم، واختلفت ألوانهم، وتباينت صورهم، دل ذلك من حالهم على جاعلهم، وشهدت بذلك حالهم على وحدانية فاعلهم، وبعده من شبههم، واقتداره على فطرهم، ونفاذ إرادته في تأليفهم، فصح له بذلك عند خلقه القدرة، وثبتت له الواحدنية، وصحت له دون غيره الربوبية. فهذا باب الحكمة، وتفسيرها وشرح أمرها وتثبيتها في ظهور ما أظهر الحكيم من خلقه، وتفضيل من فضَّل في الألوان والأجسام، وما له كانت الأمور من الله سبحانه كذلك، وأتى تدبيره جل جلاله على ذلك، وفي ذلك من قولنا وما يشهد لنا عليه كتاب ربنا، ما يقول الرحمن فيما نزل من النور والبرهان: ؟وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ؟[الروم: 22].

فافهم ما به قلنا من تسوية الله سبحانه بين عباده فيما أعطاهم من أصول حججه المركبة في صدورهم، كما ساوى بينهم فيما ألزمهم من أداء فرضه، وما قلنا به في الزيادة من الله سبحانه في ذلك لمن شاء من خلقه.

(766/1)

نوع التفاوت بين عقل رسول الله وعقل أبي جهل

وإن كنت تريد بقولك: هل كان عقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل عقل أبي جهل؟ أنه مثله في المساواة والموازنة، والكمال والاستواء، ومواد زيادات الله له في الهدى والعطاء، والتفضيل في كل الأشياء، والزيادة في الفهم وجودة التمييز... فلا!! ولا كرامة لأبي جهل!! لا يكون عقله في ذلك كعقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الزيادات والتفضيلات، والخصائص والكرامات، والتوفيق والتسديد، ما لا يكون مع أحد، وذلك لكرامة الله لنبيئه، واستحقاق نبيه لذلك من الله بفعله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فلما أن فعل ما ارتضاه الله منه من إخلاص النية وجودة البصيرة، استحق من الله الزيادة.

(767/1)

ما يفضل الله بسبب علمه بحال العبد مستقبلا

فكانت زيادات الله وعطاؤه لنبيه على صنفين؛ فصنف ابتدأه بما ابتدأ لما قد علم من رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الاستواء، وأحاط به علمه قبل خلقه للدنيا من إيثار محمد صلى الله عليه وآله وسلم على غيره، وإخلاصه له في حميع أموره، وأنه يكون على الاستواء وعلى الغاية في الانتهاء، اختياراً منه لذلك، وأثرة منه لربه عن غير جبر من الله له، ولا إدخال له قسراً في طاعته، بل يكون ذلك منه اختياراً، وأثرة لله لا اضطراراً. فلما علم الله منه ذلك، وأنه يكون في جميع الأمور كذلك، ابتدأه بالكرامة على ما قد علم من غاية فعله، وصيرورة أمره، وابتدأه بما هو أهله، عن غير عمل كان منه لربه، ولا جبر من ربه على شيء تقدم من فعله، بل على ما قد علم من صيرورة أمره، وما علمه مما سيكون من اجتهاده في طاعة ربه، وتقديمه لإرادته على إرادة نفسه.

(768/1)

والصنف الثاني: فزيادات من الله لنبيه على جزاء فعله، وما ظهر من نصيحته، وبان من اجتهاده في التثبت لباب اهتدائة، فزاده الله من بعد فعله لذلك تثبيتاً وهدىً، وزيادة التقوى، كما قال الله سبحانه: ؟وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ؟[محمد: 17]، فكان اهتداء رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أعظم الاهتداء، وتقواه أكبر التقوى، فكانت زيادة الله له أعظم من كل زيادة، وهدايته له أكبر من كل هدايه، فكانت هذه زيادة من الله على طريق المجازاة للنبي على فعله، وكانت الزيادة الأولة منه على ما قد علم من صيرورة أمره. فاجتمعت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث خصال: ابتداء الله لإعطائه ما أعطاه من حجة العقل التي ساوى بين العباد فيها في الابتداء لتقوم له بذلك عليهم الحجة في بلوغ أداء فرائضه، واستدراك معرفته، والإقرار بوحدانيته؛ وكرامة الله له وزيادته في ابتدائه بما ابتدأه به على قدر علمه لصيرورة أمره واجتهاده في طاعة ربه، واقتدائه فيما أمر بالاقتداء به وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ؟[محمد: 17]، فكملت له صلى الله عليه وآله وسلم هذه الثلاث الخصال، واجتمعت، والتأمت وتمت مع غيرها من توفيق الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وتسديده وتأييده ومعونته، فعاد ذلك كله زيادات في عقله، وصار له حبيباً في كل أمره.

(769/1)

فكيف يلحق به أبو جهل اللعين، أو يشابهه أو يساويه في شيء من عطاء رب العالمين؟! وأبو جهل فلم يستحق من الله تعالى زيادة في شيء من أمره، لا بنية صالحة نواها، ولا بطاعة لله من ذلك أتاها؛ فيستحق على نيته ابتداءً، وعلى ما ظهر من عمله بالصالحات جزاء، فلم يكن معه – عليه لعنة الله – غير ما كان من ابتداء حجة الله المركبة في صدره، المجعولة في قلبه؛ لتكمل بها عليه الحجة، فترك استعمالها، ورفض النصفة لها؛ فصار بذلك ظالماً لما في صدره من حجج الله، فاستوجب لمكابرته لحجج الله عذاب الله وسخطه، وخذلانه ولعنته. فكابر أبو جهل ما زُرع في قلبه، ورفض ما أُمر به من أمر ربه، فاستأهل من الله جزاء سيء فعله، وحاق به كسب عمله، وصار في الضلالة متحيراً، وفي اللعنة من الله متصيراً، بما كان له من حجج الله في صدره مكابراً. فلن تستوى حال من كان عند الله مرضياً مهتدياً، وكان له ولياً موالياً؛ وحال من كان مسخوطاً عند الله مخيباً، وله سبحانه عدواً معادياً في كل حال من الحال، وفي كل قول وفعال. لا يستوي ولي الله وعدو الله عند الله في حالة، ولا تتقارب منهما عنده منزلة، لا في ثواب ولا في عطاء، ولا في زيادة ولا هدى. حال أولياء الله عند الله حال الكرامة والثواب، وحال أعداء الله عند الله حال الخذلان والعقاب. فالحمد لله الذي ميز بين خلقه، وصدقهم في ذلك ما أوجب لهم من وعيده ووعده.

(770/1)

تسويغ التفضيل بغير العمل

فإن قال قائل: كيف يكون الابتداء من الله على غير عمل ولا جزاء؟

قيل له: كذلك الله يفعل ما يشاء، ويعطي من يشاء على ما يعلم منهم من الاهتداء.

فإن قال: أليس بكمال العقل وتمامه تُنال فرائض الله، وتبلغ إرادة الله في قولكم، إذ كان قد فضل بعضاً على بعض في الزيادات في العقل الذي ينال به كل فعل، ثم كلفهم كلهم – بعد أن فضل منهم بالزيادة في العقل من فضل – فرضاً واحداً، وألزمهم شرائع سواء، لم يرض من أحد منهم بترك خصلة واحدة من ذلك، ولم يوجب على المفضل بالعقل في الفرض زيادة ركعة واحدة من ذلك، ولا صيام يوم واحد، ولم ينقص عن المنقوص في عقله من ذلك الفرض قليلاً ولا كثيراً، فأين النصفة والعدل مع ما ترون من الفعل؟

قيل له: إنك جهلت المعنى، فأتى قولك على غير الاستواء. إن الله تبارك وتعالى قد عدل بين خلقه، وساوى بين عباده، فأعطاهم كلهم من حجج العقل ما بأقل قليله ينالون آداء فرضهم وتمييز أمورهم، والاستدلال على خالقهم، فساوى بينهم فيما يستدركون به معرفة أمره، ويستدلون به على التمييز بين أموره، ويقفون به على معرفته. فلم يوجب على أحد أمراً ولا نهياً، ولم يجعله عنده على شيء معاقباً إلا وقد أعطاه من حجة العقل ما ينال به ما ينال غيره، ممن زاده الله بسطة وآتاه كرامة. فلما أن ساوى بين خلقه في مستدركات حججه، وبالغات معرفة أداء فرضه، زاد من شاء من فضله، وأعطاه ما شاء من كرامته، من بعد أن قطع عنه حجة غيره بما ركب في صدره من مؤكدات حججه، التي بأقل قليلهن وأصغر صغيرهن يستدرك أكثر مما افترض عليه، وينال فوق ما ألزم، وجعل فيه فرضا لازماً موكداً، وأمراً واجباً مشدداً، فزالت عن الله لهم الحجة، وسقطت عنه سبحانه معاني المظلمة، وثبت له بذلك معاني الحكمة، وصحت له النصفه، وبان عدله في خلقه، بما ساوى بينهم فيه من حجته.

(771/1)

فإن قال قائل: بين لي قولك، واشرح لي لفظك بحجة يقف عليها عقلي، وتكون ظاهرة في صدري؟

قيل له: مثل زيادة الله لمن شاء من فضله، وتفضيله لمن شاء من عباده على من قد أعطاه أكثر من حاجته، وثبت في صدره من وافر حجته، ما بأقل قليله يؤدي إليه ما ألزمه من فرضه، مثل رجل له غلامان، فدفع إلى أحدهما شمعة كبيرة متوقده، ودفع إلى الآخر شمعتين، ثم قال لهما: يحرق كل واحد منكما بيتاً من حشيش بما معه من النار.

فإن قال صاحب الشمعة: أعطيتني شمعة واحدة، وأعطيت صاحبي شمعتين، ثم ساويت بيننا في إحراق الحشيش، فقد ظلمتني في ذلك وجُرْت علي أنْ كلفتني مثل ما كلفت صاحبي، وقد زدته شمعة

على شمعتي.

هل ترى أيها السائل هذا القائل صاحب الشمعة الواحدة صادقاً في قوله، أو مصيباً في لفظه، أو ترى له حجة على سيده، وقد أعطاه من النار ما بأقل قليله يحرق بيوتاً كثيرة؟

فإن قال قد كان العبد في ذلك مصيباً، وبالحق محتجاً، والسيد له ظالم، وفي تكليفه له غاشم، حين كلفه من الإحراق مثل ما كلف صاحبه، وقد أعطى صاحبه شمعتين، وأعطاه شمعة واحده، كان في قوله ذلك محيلاً، وعن الصواب عادلاً، ولم يقل من ذلك حقاً؛ لأن قليل النار يأتي من إحراق الحشيش على ما يأتي كثيرها، ويتفرع منها من الالتهاب عند احتراق الحشيش ما لا يكون لصاحب ثنتين ولا ثلاث ولا أربع فضلٌ في عمله على صاحب الواحدة وفعله، وكل ينال بما أعطى أكثر مما كلف وأعطي.

فإن قال: لا أرى لصاحب الشمعة الواحدة على سيده حجة في دفعه إلى صاحبه شمعتين؛ لأن المكلف به الذي كلفهما إياه ينال بأقل من واحدة.

فلذلك قلنا: إنه لا حجة لصاحب الواحدة على سيده، وصاحب الواحدة ظالم لسيده غير محتج بحق على مالكه؛ لأنه قد ساوى بينه وبين صاحب الثنتين، فيما دفع إليه من النار، التي بأقل قليلها ينال من إحراق بيوت كثيرة ما ينال صاحب الثنتين والثلاث والأربع لو كان.

فإذا قال: بالحق ورجع إلى الصدق.

(772/1)

قيل له: عند إقراره بذلك، ومعرفته بالأمر إذ كان كذلك، قد أصبت المعنى، وقلت بالحق، وثبت على الاستواء، وثبت لك بذلك ما أحببت معرفته من عدل الله سبحانه في ذلك وحكمته ولطيف صنعه وقدرته.

فعلى هذا المثال يخرج ما تقدم منا من المقال، فيما أعطى الله العباد من حجة عقولهم، وساوى بينهم فيما ركب من ذلك في صدورهم، فجعل كل من لزمه عقاب على فعله، أو ثواب على عمله في حجة العقل سواء. فكل قد ركب فيه ما بأقل قليله ينال به أكثر مما افترض الله عليه، ويستدل به على حاجته منه وفيه، ويميز به بين أعماله، ويهتدي به إلى فواضل أفعاله ويصل به إلى الاختيار في الحالين، والتمييز بين العملين، وسلوك ما شاء من النجدين، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فلم يكن لمن أعطى من حجة العقل ما ذكرنا على الله سبحانه حجة في شي من أموره، ولا بسبب من أسبابه، بما فضل به عليه غيره من بعد المساواة فيما يحتاج إليه، كما لم يكن لصاحب الشمعة الواحدة على سيده في إحراق ما أمره بإحراقه حجة، بإعطائه لصاحبه شمعتين، إذ المعنى في ذلك واحد في الواحدة والثنتين، والدرك بالجزء الواحد لما أمر به من

النار في إحراق الحشيش كالدرك بالجزئين، فهذا معنى ما عنه سألت، فافهم الجواب في ذلك إن شاء الله بحمدالله، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

(773/1)

كيفية أخذ الوحي عن الله

وسألت أكرمك الله وحفظك، وأعانك على طاعته ووفقك، فقلت: كيف يأخذ جبريل عليه السلام الوحي عن الله، وكيف يعلمه، وكيف السبيل فيه من الله حتى يفهمه؟

واعلم هداك الله: أن القول فيه عندنا كما قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه سأل جبريل عن ذلك، فقال آخذه من ملك فوقي، ويأخذه الملك من ملك فوقه.

فقال: كيف يأخذه ذلك الملك ويعلمه؟

فقال جبريل: يُلقى في قلبه القاءً، ويلهمه إياه إلهاماً، وكذلك هو عندنا، أنه يلهمه الملك الأعلى إلهاماً؛ فيكون ذلك الإلهام من الله إليه وحياً، كما ألهم تبارك وتعالى النحل ما تحتاج إليه، وعرفها سبلها حين كان منها من ذلك في بناء شهودها، وتسوية ما تسوي لأولادها، وما تجتنيه من الأشجار، مما تعلم أن فيه الشراب الذي ذكر الله أنه شفاء، سماه الله سبحانه شفاء للناس، من العسل الذي يخرج من أجوافها، فقال تبارك وتعالى: ؟وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ؟[النحل: 68].

فكما جاز أن يُلهم النحل ما تحتاج إليه فتفهمه حين فهمت الأشجار وميزت الثمار، فعرفت ما يخرج منه العسل فقصدته، وعرفت ما لا عسل فيه فتركته، مع عجائب كثيرة من أمرها، ودلائل على أثر الصنع في فعلها، يستدل به من جعل له لب، ويعرف أثر صنع الله فيه من كان له قلب... فكذلك فعل الله في الملك يلهمه ما أراد إلهاماً، ويلقيه في فهمه إلقاء، فيكون فعل الله في ذلك منيراً ساطعاً عند كل من كان ذا عقل نافع، لا يمتنع من قبوله عقل عاقل، ولا يكون عند ذي تمييز بحائل.

(774/1)

فإذا ألهمه الله ما أراد سبحانه، ثبت في قلبه بغاية الثبات كلما وقع من ربه في الحالات أثبت وأوضح في قلبه من كلام لو سمعه من غيره؛ لأن هذا الإلهام من الله فعل مفعول في الملهم، وما كان من فعل الله والقائه إلى عبده، فهو أثبت وأوضح من إلقاء مخلوق إلى مخلوق مثله.

فهذا معنى ما عنه سألت من وصول حكم الله ووحيه، إلى المؤدي عنه من ملائكته ما أراد وشاء من فرضه، فأعْمل فكرك في تدبيره، يوصلك ذلك إن شاء الله إلى فهمه، ويوردك إلى ما أردت من علمه.

(775/1)

كيفية الحساب ومعناه

وسألت: كيف يحاسب الله العباد يوم القيامة؟ وما معنى الحساب في يوم المعاد؟

والقول في ذلك إن الله ذا الجلال والإحسان قد جعل مع كل إنسان ملكين في كل حال عن اليمين وعن الشمال، يحفظان عليه فعله، ويحصيان عمله، ويكونان شاهدين عليه بكسبه، محصيين ما يكون من صنعه، فإذا كان يوم القيامة، ويوم الحسرة والندامة، أتى به ملكاه إلى من أمره الله من الملائكة بمحاسبة العباد. ومحاسبتهم فتوقيفهم على أفعالهم، وتعريفهم ما كان من أعمالهم، ثم يشهد حافظاه عليه، ووقفاه على ما كان من أمره، وبكّتاه بمعاصيه لربه، ووقفاه على جرأته على خالقه، فلم يذرا مما تقدم منه شيئاً إلا أوقفاه عليه حرفاً حرفاً، فهذى معنى محاسبة الرب لعباده.

فإن قلت: فما معنى ذلك إذ كان العقاب لازماً على المعاقبين، والثواب واجباً للمثابين؟

قيل لك: لأن في تعريف المعاقب ما تقدم من فعله، وتوقيفه على ما أتى به من عمله حسرة عليه في يوم الدين أيما حسرة، وفي تحسره جزاء عظيم من عذابه، وكان توقيفه سبباً لتحسره وغمه، وكان تحسره وغمه زيادة في عذابه وخزيه.

وكذلك: معنى توقيف الله الصالحين على فعلهم، وإعلام حفظتهم لهم ما حفظوا عليهم من عملهم، فكان ذلك سروراً للمؤمنين، وإيقاناً من المتقين بنجاح فعلهم، وحسن موقعه عند ربهم، وبشارة سابقة إليهم من الرحمن، بما أعدّ لهم من الفضل والجزاء و الخير والإحسان، فكان ذلك زيادة من الله في ثوابهم، وبشارة سبقت إليهم في يوم معادهم.

فهذا معنى ما عنه سألت من الحساب ومعناه، وما أراد الله بذلك وشاءه.

(776/1)

معنى يوم القيامة

وسألت فقلت: ما يوم القيامة وأي شي معنى القيامة؟

القول في ذلك: أن يوم القيامة يوم جعله الله تبارك وتعالى وقتاً لحشره، وحيناً لبعثه ونشره، أبان فيه

وعيده ووعده، وأبان فيه ما حتم به من حكمه، أنصف فيه المظلوم، وأظهر فيه الحق المعلوم، فأوصل وعده إلى أوليائه، ووعيده إلى أعدائه، وأقر كلاً في داره؛ ليعلم كلاً صدق قوله، ويرى إنفاذ ارادته: ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟[النحل: 89 - 90].

فمعنى القيامة هي: قيامة هذه الأشياء التي ذكرنا، وقيامها فهو ظهورها، وظهورها فهو كينونتها. من ذلك ما يقول القائل: قد قامت الحرب بينهم. يقول: لقحت وبانت، وظهرت واستقامت، ومن ذلك ما يقول القائل: قام السوق. يريد استوى، وقام أمره، وحضر ما يُطلب فيه ويبتغى من البيع والشراء.

فهذا معنى ما أحببت علمه من ذكر الحساب والقيامة

وقلت: هل ما ذكر الله من ذلك وما شرح في يوم المعاد فعلٌ يكون ظاهراً، أو هو مثل ضربه للعباد؟ ولن يكون ذلك أبداً مثلاً، وفيه وعيد الله ووعده، وثوابه لأوليائه، وعقابه لأعدائه، بل أمر لاحق، وبجميع الناس واقع، ؟وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ؟.

(777/1)

وجوب الهجرة في سبيل الله

وسألت فقلت: من يجب عليه النفير في سبيل الله؟

واعلم هداك الله أن النفير والهجرة في سبيل الله واجب على كل من عرفه، ممن عدم أربعة أشياء وكان سالماً منها، وهي: العرج، والعمى، والمرض، والفقر. فمن لم يكن من أهل هذه الأربعة الأشياء؛ فالهجرة عليه والنفير واجبان، والجهاد والقيام لازمان، لا يفكه عن فرضها، ولا يزيحه عن واجب أمرهما إلا القيام بهما، والأثرة لهما، أو الكفر لمن افترضهما، كما قال الرحمن الرحيم في ما نزل من القرآن الكريم، حين يقول تبارك وتعالى: ؟انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟[التوبة: 41].

ثم قال سبحانه قطعاً منه لحجج المتعللين، وإعذاراً وإنذاراً إلى العالمين، وتثبيتاً لفرضه الأكبر، وإقامة لدينه الأوفر، وحضاً على ما به قوام الإسلام، وصلاح دين محمد عليه وآله الصلاة والسلام: ؟إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟[التوبة:39]..

ثم قال سبحانه إبانة منه للمتخلفين، وتسمية منه لهم بأسماء الفاسقين، وإخراجاً لهم بذلك من معاني المؤمنين: ؟قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ؟... إلى قوله: ؟فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ؟[التوبة:24]، فجعل المتخلفين عن جهاد الظالمين في الحكم عنده سبحانه من الفاسقين.

(778/1)

وما ذكر به من ذلك أولئك ومن كان من الخلق كذلك فكثير في القرآن معلوم عند أهل المعرفة والبيان، يطول شرحه لو شرحناه، ويجزي ما ذكرناه عما تركناه. فكيف لا يكون من منع الجهاد وتعلل بالأموال والأولاد من أشر العباد عند ذي العزة والإياد، وقد هتك الدين، وباين رب العالمين، وشرك في دماء المسلمين، وقوى بذلك جميع الفاسقين، فكان بخذلانه للدين وقعوده عن المحقين شريكاً للكافرين، ومعاضداً للفاجرين، إذا كانت بخذلانه نيته وسطوته على المحقين بتخلف المتخلفين مظاهرة، فكان محل الخاذل، بخذلانه وقعوده عن الله سبحانه، محل المحارب بمحاربته، لاينفك الخاذل للمؤمنين من المشاركة للفاسقين فيما نالوه من المتقين في حكم أحكم الحاكمين. فليتق الله ربه، وليقس بفتره شبره، وليترك عنه التعلات، وليحذر من الله النقمات؛ فقد وضح الحق لطالبه، واستنار الرشد لصاحبه، فلا عذر في تخلف المختلفين، ولا حجة في تأويل المتأولين، ولا بد من النصرة لرب العالمين، أو الكفر بما أنزل على خاتم النبيئين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وسلم.

(779/1)

معنى كلام الله لموسى

وسألت عن قول الله سبحانه: ؟وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا؟[النساء:164]، فقلت: كيف كان الكلام من الله عز وجل لموسى عليه السلام؟ وما معنى قوله: ؟تَكْلِيمًا؟؟

واعلم هداك الله أن الله تبارك وتعالى لم يوحِ إلى أحد من الأنبياء إلا على لسان الملك الكريم جبريل عليه السلام، وكذلك إلى موسى صلى الله عليه، وقد كان منه الإيحاء إليه على لسان جبريل، حتى كان في هذا الوقت الذي ذكره الله – جل جلاله عن أن يحويه قول الله أو يناله – فكان من الله إليه ما ذكر الله سبحانه من الكلام له عليه السلام، وكان معنى ذلك أن الله خلق له كلاماً في الشجرة، سمعه موسى بإذنه كما كان يسمع ما يأتي به الملك إليه من وحي ربه، فكان فهم موسى وسماعه لذلك الكلام الذي شاء الله إسماعه إياه لما أراد من كرامته واجتبائه، كفهمه لما به كان يأتيه جبريل عن الله من وحيه سواء سواء، فلما أن لم يكن بين الله سبحانه وبين موسى صلى الله عليه لهذا الكلام المخلوق في الشجرة مؤد يؤديه إليه، كما كان يكون فعله في غيره مما ينزله عليه، جاز أن يقول: ؟كَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا؟، يريد أسمع موسى وأبلغه ما كان يريد من الكلام والوحي إسماعاً بلا مؤد لذلك إليه، فلما أن لم يكن بين الله وبين موسى مؤد للكلام إلى موسى، وكان المتولي لجعل

الكلام وفعله وخلقه على ما سمعه موسى من البيان والكفاية والتبيان، قال الله سبحانه: ؟وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا؟[النساء: 164]. ومعنى تكليماً: هو تأكيد للإخبار منه عز وجل بما كان من عجيب فعله، وعظيم قدرته، وظاهر برهانه، وما ازاداد موسى به بصيرة إلى بصيرته، من خلقه لكلام ينطق بغير لسان، كما ينطق به ذو اللهوات والأدوات واللسان والآلات، فهذا معنى قوله: ؟تَكْلِيمًا؟، لا ما يقول به الجاهلون، وينسب إلى الله الضالون، من تشبيهه بخلقه، ونسب الكلام إليه على طريق التكلم به، كما يعقلون في كلام

(780/1)

الآدميين، ويعرفون من كلام المخلوقين، تعالى عن ذلك أرحم الراحمين، وجل أن يكون كذلك رب العالمين.

(781/1)

معنى النفخ في الصور

وسألت عن الصور، فقلت: ما هو؟ وكيف هو؟ وعلى أي وصف هو؟

واعلم رحمك الله أنه ليس ثَمَّ صور ينفخ فيه كما يقول الجاهلون، ويلفظ به العمون، وإنما الصور الذي ذكر الرحمن، فيما نزل من واضح النور والبرهان، هو جمع (الصُوَر)، و(الصُوَر) جمع (الصُورَة)، فالعرب تقول (صورة) و(صورتان) و(صُوَر)، ثم تجمع (الصُوَر)، فيكون جمعها (صُور)؛ هذا معنى (الصُور). ونَفْخ الله فيها في النفخة الأولى، فهو إفناؤها، وهو نفخه فيها وهي الأبدان والصُوَر - صُوَرالمخلوقين وأبدان العالمين - لما أردا من هلاكها وفنائها ودمارها؛ فواقَعَها وحل بها من الله سبحانه ما أزالها، وحق بها منه ما أبادها، وواقعها منه ما أتلفها فصارت بنفخ الله فيها، وما وعدها من الموت والفناء إلى الزوال والانقضاء؛ فهذا معنى ما ذكر الله من النفخة الأولى في الصُوَر المصورة، والأجسام المفتطرة.

ومعنى النفخة الأخرى فهي نفخة الله الثانية في الصور والأبدان المتمزقة البالية، لما أراد من حياتها ونشرها، وتجديدها وبعثها من بعد موتها، فكان نفخه بالحيوة فيها نفخة ثانية أخرى من بعد النفخة المهلكة الأولى. فكانت النفخة الأولى للهلكة والوفاة، وكانت النفخة الأخرى للنشور والحياة، قال الله تبارك وتعالى: ؟وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إلا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ؟[الزمر: 68]. فأخبر سبحانه أن النفخ على المعنيين، وأن له حالين

مختلفين، إذ كان حال الأولى ما أوجبه الله من حال الهلاك والانقضاء، وحال النفخة الأخرى ما جعل الله فيها وبها في حال الحيوة بعد الفناء. فافهم ما قلنا، واعرف من ذلك ما شرحنا، من شرح النفخ ومعناه، وأنه ما واقع الصور الأولى والأخرى من مراد الله وفعله، وما حكم به سبحانه في خلقه.

(782/1)

الروح

وسألت عن الأرواح، فقلت: ما هي؟ وكيف هي؟ وقلت: كيف يميت الله الجسم ولا يميت الروح والله عدل لا يجور؟

فكذلك الله سبحانه عدل في فعله، حكيم في صنعه، لا يجور على أحد من خلقه. فأما ما قلت وسألت عنه من صفة الروح وتفسيره، فالروح: شيء خلقه الله قواماً للأبدان، وحياة للإنسان، به تعمل الجوارح المجعولات، وتتصرف الاستطاعة المخلوقة، تعدم الجوارح الاستطاعة بعدمه، وتثبت فيها استطاعتها بوجوده، شيء خلقه الله وصوره وجعله بحكمته، وافتطره لحياة الأبدان والأعضاء، ويعيش به ما جعل الله في الأبدان من الأشياء، به تبصر الأعين المبصرة، وبه تسمع الآذان السامعة، وبه تنطق الألسن وتشم الأنف، وتبطش اليدان، ويميز القلب، وتمشي الرجلان، جعله الله قواماً لما حوت الأبدان، ودليلاً على قدرة الرحمن – فهذه صفة الروح ونعتة، وبيان ما عنه سألت منه وشرحه – ضعيف محدود، تضمه الأبدان المؤلفة، وتجمعه الأعضاء المتفرقه، ويحويه الجسم ويحده، مخلوق مجعول، وكائن بتدبير الله مفعول، فهذة صفة الروح، وبيان ما عنه سألت وشرحه.

فإن قلت: انعته لي بصفة غير هذه أقف عليه بها من لون، وطول، وعرض، وغير ذلك من الصفات؟

قلنا لك وأجبناك: بأن الذي ذكرت محجوب عنا، استأثر الله بعلمه، وأبى أن يطلع أحداً على قدرته. فقال: لمن سأل نبيئه عما سألت من الروح وتقديره، وصفته بغير ما وصفناه: ؟وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي؟[الإسراء: 85]، فلم ينبه عليه السلام، ولاإياهم في علم الروح وصفته على غير ما ذكرناه من نعته. وقال: ؟قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي؟، يقول: من فعل ربي وتدبيره وخلقه وصنعه، والشاهد له بالحكمة، ولم يصف الروح بغير ما وصفنا، ولم يستدل عليه بغير ما دللنا.

(783/1)

وليس في نعت ذلك لأحد حجة، ولا لأحد إلى علم كيفيته حاجة، وليس عزوب علم ذلك على الآدميين، إلا كعزوب علم غيره من الأشياء، مثل معرفة صورة ملك الموت، وصورة مالك خازن النار، وصورة إبليس وجنده، فهم خلق من خلق الله، قد اطلع على تكوينهم وتقديرهم وشكلهم، ومثلهم من الملائكة والشياطين، وحجب علم ما علمته أشكالهم من تصويرهم وتقديرهم عن الآدميين، فليس من الآدميين خلق يصف ما ذكرنا بطول ولا عرض، ولا جسم ولا لون، فهؤلاء مخلوقون يصفهم بما ذكرنا شكلهم، ويعرف ذلك مثلهم، قد عجز عن وصفهم الآدميون، وانحسروا عن تحديدهم، وعجزوا عن شرح ألوانهم، وهم خلق من خلق الله قد أظهره، وفعل من فعله قد بينه، لم يحجب عن أمثالهم منه شيئاً، ولم يستر عن أشكالهم منه جزأ، عَجز عقلُك - وعقول أشكالك أيها السائل - عن صفتهم، وانحسَرْتَ ونظراؤك عن تحديدهم، وانقطعتَ وهُمْ عن تقديرهم، فكيف تريد أن تحيط بصفة ما ستر الله علمه، وتقف على تحديد ما منع الله الخلق فهمه، ولم يبين من علم كيفيته في نفسه قليلاً ولا كثيراً للملائكة المقربين، ولا للأنبياء المرسلين، ولا لأحد من المخلوقين. هذا طلب منك للمحال، وجري في ميادين الضلال، وتشبث بفاسد من المقال. وقد وصفنا لك الروح وبيَّناه بالدلائل التي بينه الله لنا بها، وهدانا سبحانه إليها، حتى عرفتَه بغاية المعرفة المفهومة، واستدللتَ عليه بأدل الدلائل المعلومة، التي دلتك على تحديده، وأوقفتْك على تقديره، وشهدتْ لك على أثر صنع الله في تدبيره، وأوضحتْ لك أنه فعل من الله مجعول، وأنه مبعض معمول، تضمه الأعضاء، وتحوزه الأجزاء، وتحويه الأبدان بأبين البيان وأنور البرهان؛ فميز قولنا وتدبر شرحنا، يبن لك أمرك، ويصح لك من ذلك محبوبك

وقلت: كيف يميت الله البدن، ولا يميت الروح وكل يموت؟

(784/1)

فأما معنى خبر الله من إحياء الروح، فإن ذلك بحكمة الله وفضله، وما أراد من الزيادة في كرامة المؤمنين، وأراد من الزيادة في عذاب الفاسقين، فجعل الأرواح حية باقية إلى يوم الدين؛ ليكون روح المؤمن من بعد فناء بدنه في البشارات والسرور، والنعيم والحبور، بما يسمع من تبشير الملائكة بالرضاء والرضوان، من الواحد ذي الجلال والسلطان، وما أعدّ له من الخير العظيم، والثواب الجسيم، كل ذلك يتناهى إليه علمه، ويصل به من ربه فهمه، فيكون ذلك زيادة في ثوابه ومبتدأ ما يريد الله من إكرامه، حتى يكون يوم القيامة المذكور، ثم ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيقع بهذا الروح من الموت ما يقع بغيره في ذلك اليوم، فيموت ويفنى، كما فني البدن أولاً.

وكذلك تدبير الله في إبقاء روح الكافر بعد هلاك بدنه، لما في بقاء روحه من الحسرة والبلاء بما يعاين ويوقن ويبلغه من أخبار الملائكة وذكرها لما أعد الله له من الجحيم، والأغلال، والسعير،

وشرب الحميم، وما يصير إليه غداً من العذاب الأليم، فروحه في خزي وبلاء، وحسرات تدوم ولا تفنى، وحلول العويل به والشقاء، فيكون ذلك زيادة في عذابه وبلائه، ومقدمة لما أراد الله من إخزائه، حتى ينفخ في الصور، فيحق بهذا الروح ما حق بغيره من الفوت، ويواقعه ما واقع جسمه من الموت، ثم ينفخ النفخة الثانية من بعد موت كل شيء، وهلاك كل حي، ما خلى الواحد الأحد، الفرد الصمد، المميت الذي لا يموت، المحيي الذي لا يخشى من شيء فوتاً.

ولوكانت الأرواح تموت مع موت الأبدان، لكان في ذلك فرج وراحة للكفار، وغفلة وفرحة للأشرار، ولكان ذلك غما وكآبة على المؤمنين، ونقصاناً وتضعضعاً لسرور الصالحين.

(785/1)

فافهم ثاقب حكمة الله وتقديره، وصنعه في ذلك وتدبيره، وما جعل في تأخير موت الأرواح من الكرامة للمؤمنين، والهوان للفاسقين، فإنك إن أفكرت في ذلك بخالص لبك، واستعملت فيه ما جعل الله من مركب فكرك، صحت لك آثار الحكمة في ذلك، وبان لك الأمر من الله سبحانه كذلك.

(786/1)

فضل الملائكة على الأنبياء

وسألت أكرمك الله عن الملائكة والأنبياء صلوات الله عليهم فقلت: أيهم أفضل؟

والجواب في ذلك أن الملائكة أفضل من الأنبياء. والحجة في ذلك أن الفضيلة لا تكون إلا بفضل الأعمال، فلما وجدنا الملائكة أفضل أعمالاً وأكثر عبادة، حكمنا لها بالفضل على من دونها عملاً. ألا تسمع كيف يشهد الله لها بكثرة العبادة ودوام الطاعة، حين يقول الله عزوجل: ؟وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ؟[الأنبياء: 20]، فذكر سبحانه عنهم ما ذكر من عبادتهم ودوام طاعتهم، في التسبيح له والتقديس في الليل والنهار لا يفترون، ومن كان عابداً لله الليل والنهار لا يفتر خلاف من هو يفتر في الليل والنهار، ويشتغل بلذّات نفسه وشهوات قلبه، من الجماع، والمآكل، والمشارب، والنوم، والجلوس، والحديث. فلما أن صح عندنا أن الملائكة مأمورة منهية كالأنبياء، مختارة للطاعة كاختيار الأنبياء، قادرة على ضد الطاعة لو أرادته، بما جعل الله فيها من الاستطاعة والتمكين، ثم وجدناها قد استعملت ذلك كله أثرة لله، وإقبالاً على طاعته، ففرغت أنفسها الليل والنهار في عبادته لا تفتر، حتى شهد الله لها بذلك، كانت عندنا أفضل من الأنبياء بما ذكرنا من فضل عملها، ودوام طاعتها.

ومن الدليل على فضل الملائكة على الأنبياء قول الله عز وجل: ؟لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ؟[النساء: 172]، فقال سبحانه: ؟لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ؟، ثم قال: ؟وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ؟، فذكر الملائكة بعد المسيح، فعلمنا أنها أكبر منه وأعظم وأفضل، وفي أقل مما ذكرنا ما كفى من كان ذا فهم واجتزاء.

(787/1)

معنى قوله تعالى ؟وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ؟

وسألت عن قول الله سبحانه: ؟وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ؟؟

وهذا رحمك الله فمثل ضربه الله لهم مما تعرفه العرب وتمثل به. وذلك أن العرب تقول لمالك الشيء: هو في يده؛ وهو في يمينه؛ تريد بذلك تأكيد الملك له؛ لأن كل ما كان في يد المالك فهو أقدر ما يكون عليه، واليد في لسان العرب هي: الملك، ألا تسمع كيف تقول العرب: بلاد كذا وكذا في يد فلان؛ وقرية كذا وكذا في يد فلان. وتقول العرب: بنو فلان في يد فلان؛ يريدون: في طاعته وملكه، لا بين أصابعه، ولا في كفه، فأرادوا بذلك الملك ونفاذ الأمر فيهم، لا المقبض بالأصابع والضم لها عليهم، فأخبر الله تبارك وتعالى أن مقدرته على ماذكر من السموات المطويات فوق مقدرتهم على ما هو في ملكهم.

فأما قوله: ؟مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ؟، فإخبار منه لهم أن السموات مطويات في ملكه، متصرفات في أمره، مجموعات في حكمه، كما يجمع الشيء المطوي جامعه، ويحوزه ويضم عليه طاوية، فمثل لهم أمر نفاد حكمه في السموات وقدرته عليهم بما يعرفون من مقدرتهم على ما يطوونه وينشرونه، من كتب أوصحف، أوغير ذلك من المطويات المملوكات. فهذا ما عنه سألت من قول الله سبحانه في السموات إنهن مطويات.

(788/1)

معنى قوله تعالى: ؟كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ؟

وسألت عن قول الله سبحانه: ؟كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ؟[المدثر: 38]؟

فمعنى قوله سبحانه ؟رَهِينَةٌ؟: أي مرتهنة، ومعنى مرتهنة: مأخوذة، ومعنى مأخوذة: هو مجازاة بعملها، مكافاة على فعلها. فأخبر سبحانه أن كل نفس بكسبها مأخوذة، وكسبها فهو عملها، وأخذه لها سبحانه بعملها فهو انفاذ وعده ووعيده لها: ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ

آمِنُونَ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟[النمل: 89 – 90]، ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ؟[الأنعام: 160].

(789/1)

الفرق بين الاسم والمسمى

وسألت عن الفرق بين الاسم والمسمى؟

والفرق بينهما بقاء الاسم وفناء المسمى، وتناسخ الاسم واشتراك المسميين فيه. فلما أن رأينا الاسم الواحد ينتقل في المسميين علمنا أن الاسم غير المسمى، وأنه دلالة على المسمى وعلامة له، ليست به ولا هوبها. ومن الدليل على ذلك أنك تسمى بالاسم مسمى، ثم يموت المسمى فيبلى والاسم باقٍ لم يفن، ولو كان الاسم هو المسمى لعدم الجسم، ولزال بزواله، ولتغير بتغيره، ولما أمكن أن يكون لغيره، وهذا الأمر فأبين ما يكون، ولن يغلط في الفرق بين الاسم والمسمى حتى يقول إن الاسم هو المسمى إلا جاهل عمٍ، وضال غوٍ لا يفرق بين علامة ولا معتلم، ولا دلالة ولا مستدل عليه، ولا عرض ولا جسم، فافهم ما قلنا به في ذلك وشرحناه يبن لك إن شاء الله صدق ما قلناه.

(790/1)

كيف تكون وسوسة إبليس إلى الآدمي؟

وسألت عن وسوسة إبليس: كيف تكون منه إلى الآدمي؟

والوسوسة منه فإنما هي المقاربة والمداناة، والمؤالفة والمساواة. وذلك أن إبليس اللعين بُني على الفطنة والذكاء، والسرعة والمعرفة بمعاني الأشياء التي ربما عرفها الآدميون، واستدركها منهم الفطنون. فيعرف إبليس اللعين في حركات الإنسان ووجهه، دلائل يستدل بها على ما أضمر في قلبه من المعاصي لربه، فإذا رأى تلك الدلائل والعلامات في وجهه، استدل بهن على بعض ضميره، فإذا رأى في علامات وجهه إضمار المعصية، وتبين له أنه قد همّ بغير الطاعة، واستبان ذلك من شواهد حركات الآدمي – كما استدرك كثيراً من ذلك الآدميون بعضهم من بعض، بما يرون من شواهد ذلك ودلالاته وعلاماته، حتى ربما فطن الإنسان لصاحبه ما يريد منه، وما يريد في كثير من أمره، وكذلك يستبين منه الغضب والرضى، والسرور والغم، يبين كل واحد من هذه الأشياء في وجه صاحبه، حتى يعرفه أهل الفطنة والفهم، بما يظهر من شواهده في وجه مضمره، وكل يتبين الفزع

والرعب في وجه المرعوب والفزع لمن كان ذا فطنة، فكذلك وعلى ذلك وبالشواهد في وجوه أولئك يعرف إبليس اللعين ما أضمره صاحب المعصية والخطيئة من الآدمي - دانى قلبه وقاربه ولاصقه. وإبليس فهمُّه وإرادته ومعناه المعصية واللعنة، فإذا قارب هذا الشكل من إبليس شكل المعصية التي هي في قلب الآدمي، قويت نية الآدمي بالمعصية، لمقاربة ما في قلبه من المعصية لشكله، وهو إبليس، فيقوى الشكل بمقاربة شكله، والجنس بمقاربة جنسه، كما يقوى كل شيء بمدناة مثله أو مقاربة شكله.

(791/1)

فهذا معنى وسوسة إبليس، هو بالمقاربة والمداناة، لا بالمكالمة والمناجاة. ومثّل قوة المعصية في قلب الآدمي بمداناة شكلها من هذا اللعين الجني مثل الجمر؛ جعلت منها في بيت فيه جماعة خمسين رطلاً جمراً متوقداً يقد بعضه في بعض، ثم أتيت بمائة رطل أخرى جمراً متوقداً فألقيته إلى جنب ذلك الجمر الأول، فقوي عمل الأول بعمل الآخر، وقوي عمل الآخر بعمل الأول، واشتد عملهما وصعب أمرهما، حتى لا يطيق من في البيت أن يجلس فيه ولا يقوم، مع شدة ما فيه من حر النار وتلهبها، وقوة بعضها ببعض، فقوي عمل الجزئين لمقاربة أحدهما لصاحبه، إذ هما شكل واحد ومعنى واحد، ولو أفرد كل واحد منهما وفرق بينهما لم يكن عملهما متباعدين كعملها متقاربين. فعلى هذا ومثله من قوة الشكل بشكله تكون وسوسة إبليس لصاحبه الآدمي، المضمر لما أضمر إبليس، المشاكل له بالإضمار في عمله، والمقارب بإضماره له في فعله؛ فافهم معنى ما ذكرنا من معاني الوسوسة، وفطنة إبليس لما يفطن به في الأدمي من المعصية.

وقد قال غيرنا في ذلك بأقاويل، فزعموا أنه يجري في الآدمي مجرى الدم (في الأبشار) فاستحال ذلك عند من فهم؛، لأنه لا يجوز أن يدخل جسم في جوف جسم، فيجري في عروقه، ويجتمع في بدن واحد روحان، روح ساكن، وروح متحرك. هذا محال، أن يستجن في جسم واحد روحان. ولا يدخل في جسم جسم؛ لأن هذا لا يعرف في الأجسام ولا يتهيأ، ولا يثبت في العقول، فلما لم تقبله العقول استحال أن يكون شيئاً معقولاً.

(792/1)

وقال قوم: يلقى إبليس روح الآدمي عند جولانه في وقت منامه، فيأمره وينهاه، ويزين له ما يريده ويشاؤه، وقالوا: لا تكون الوسوسة من إبليس إلا من بعد النوم، يلقى روح الآدمي عند خروجه من

بدنه، وجولانه بعد نومه، فيكون منه إليه ما ذكرنا، ويلقي إليه ما قلنا. فاستحال هذا من قولهم أيضاً، كما استحال القول الأول؛ لأنا نظرنا في هذا المعنى فوجدناه باطلا، وبطلانه أنا وجدنا الآدميين ربما أتوا في أنواع المعاصي وألوانها في مجلس واحد بألوان وهم أيقاظ غير نيام، فلما أن وجدناهم يعملون في مجلس واحد ألواناً كثيرة من المعاصي التي يخطر بعضها على قلوبهم بعد بعض، وتحدث في صدورهم حادثاً بعد حادث، وخاطراً بعد خاطر، لم يتعملوا قبل ذلك المجلس في شيء منها، ولم يضمروا جنساً من جنوسها، علمنا أن ذلك بوساوس الشيطان ومقاربته. ورأينا من كان كذلك يقظان غير نائم، والمعاصي تأتي منه أولاً فأولاً في مجلسه ذلك من قذف المحصنات، وشرب خمر، وقتل مسلم، وأخذ مال يتيم ومسكين، وضرب مؤمن، وسفك دم حرام، وشهادة زور، وكذب وبهتان، وتشبيه الله سبحانه وتجويره في فعله، وإكذاب لوعده ووعيده، وغير ذلك من ألوان الفسق، مما يأتي به كفرة الخلق، فلما رأينا هذه الأشياء تكون من فاعلها في أوقات وساعات لم يدخل بينها منه نوم ولا غفلة، استحال عندنا أن تكون وسوسة إبليس من بعد النوم وخروج الروح؛ لأن هذه المعاصي كلها في افتراقها وتشتيت أصنافها كانت منه في يقظة لا نوم فيها، واستحال عندنا قول من قال بهذا الثاني كما استحال قول من قال بالقول الأول ولم نجد باباً أصح ولا أثبت ولا أقوى ولا أجدر أن لا يكسره أحد أبداً مما قلنا من مداناة الشكل لشكله، وقوة الشبه لشبهه، ووجدناه ثابتاً عند أهل العقل، لا ينكره ولا يجحده من وهب لباً وفطنة وفهماً.

(793/1)

خلق الملائكة والشياطين

وسألت فقلت: من أي شي خُلِقت الملائكة، ومن أي شي خلقت الشياطين؟

الجواب في ذلك: أن الملائكة فيما سمعنا وبلغنا – والله أعلم وأحكم – خلقت من الريح والهواء.

وأما الشياطين فخلقت مما قال الله وحكى من مارج من نار.

والمارج فهو: خالص لهب النار، والذي هو يمرج من لهبها، ويتقطع في الهواء منها عند ارتفاع اللهب وعلوه، فيذهب في الهواء قطعاً قطعا، وينفصل من اللهب تفصلاً يستبان ذلك ويعرف عند تأجج النار وتوقدها، وعظمها وارتفاع لهبها. فعند ارتفاع اللهب وعلوه، يخلص خالصه، ويمرج مارجه، ويتقطع المارج من اللهب، وينفصل مارج النار من لهبها، ويذهب في الهواء متقطعاً، وذلك فهو مارج النار الذي ذكر الرحمن أنه خلق منه الجان.

والجان فهي: الجن، والجن فهي الشياطين، وإنما سميت جناً وجاناً لاستجنانها عن أبصار الآدميين، واستجنانها فهو غيبتها، فلما كانت بغيبتها مستجنة سميت باستجنانها جاناً. ألا تسمع كيف قال إبليس في آدم عليه السلام حين يقول: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾. فهذا دليل

على ما به قلنا، وأدل منه قول الله تبارك وتعالى: ؟وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ؟[الرحمن:15]
وهذا مما لا شك فيه ولا امتراء، والحمد لله العلي الأعلى.

(794/1)

تبديل الأرض والسموات

وسألت عن قول الله سبحانه: ؟يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟[ابراهيم: 48]؟
تأويل تُبدَّل: هو تغير، وتغييرها هو نسف ما على وجهها من الجبال، وبعثرة ما فيها من القبور. وبعثرة القبور فهو إخراج ما فيها من الموتى، وردهم بعد الفناء أجساماً أحياء، وتسوية تفاوتها، ودكها دكاً، كما قال الله العلي الأعلى: ؟يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ؟[إبراهيم: 48] إلى آخر الآية. وتبديل حالها تسوية خلقها، وعدل متفاوتها، وقشع أوشاجها وتجديد بهجتها، واستواء أقطارها، حتى تكون الأرض مستوية فيحاء معتدلة الأرجاء، لا تفاوت فيها ولا اختلاف، بل تكون في ذلك اليوم كلها على غاية الاستواء والائتلاف، لا يرى شيء من آلة الدنيا فيها، ولا أثر فعل من أفاعيل الدهر عليها، فهذا تبديلها وتغييرها. وكذلك تبديل السموات فهو رد الله لها إلى ما كانت عليه في الابتداء، ثم يردها على ما هي عليه اليوم من الاستواء، من بعد أن تصير كالمهل. والمهل فهو: شيء يكون كالدهن يخرج من صفو القطران، فذكر الرحمن أنها تكون في يوم الدين كالمهل السائل بعد التجسيم الهائل، فهو قوله سبحانه: ؟يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ؟[الدخان: 10] يريد أنها تعود إلى ما كانت عليه من الدخان، ثم ترد سموات مطبقات، كما خلقت من الدخان أولاً سموات مقدرات مجعولات، تبييناً منه سبحانه لقدرته، وإظهاراً لنفاذ أمره فيما افتطر من فطرته.

(795/1)

فهذا معنى ما ذكر الله من تبديل الأرض والسماء، لا أنه يذهب بهما ويخلق سواهما من غيرهما، وإنما تبديله لهما وتغييره نقلهما من حالة إلى حال، والأصل واحد مستقيم غير فانٍ ولا معدوم. مَثَّلُ ذلك مثل خلخال من ذهب أو فضة كُسِر فصُيِّر خلخالاً أوسع منه قدراً، أو أصغر منه قدراً، فكان قد بدلت خلقته، وغيرت صنعته، ونقلت حالته من حال إلى حال، ومن مثال إلى مثال، فبدل تصويره، وأصلُ فضته ثابت لم يبدل ولم يغير، وإنما غير منها خلقتها وتقديرها، وصورتها وتمثيلها، والأصل ثابت قائم موجود من العدم سالم. وكذلك تبديل ما يبدل من الحديد، فيكون أولاً سيفاً، ثم يرد خنجراً، ثم يجعل الخنجر سكيناً، ثم ينقل السكين فيجعل أوتاداً وسككاً، فهو ينقل من حال إلى حال،

وهو الحديد الأول لم يتغير ولم يبدل، وإنما المتغير منه تصاويره وتقاديره، ونقل أحواله ومقاديره، فهو الحديد الثابت يجعل مرة سيفاً كما ذكرنا ويقلب ثانياً صنفاً من الصنوف التي ذكرنا، فهو وإن تغيرت أحواله، واختلفت مجعولاته، فهي الحديدة المعروفة الأولة، الأصلية المفهومة.
وكذلك ما ذكر رب العالمين، في تبديله السموات والأرضين، فهو نقله لهما من حالة في التصوير إلى حالة، ومن صفة في التقدير إلى صفة، وهن في أصلهن اللواتي كن لم يبدل أصلهن، ولم يحل ولم ينقل عما كان ولم يزل، فافهم ما أجبناك به فيما عنه سألت وفسرناه لك فيما شرحت وقلت.

(796/1)

هل العمل من الإيمان؟
وسألت فقلت: من أين يلزم أهل القبلة الكفر وقد سماهم الله مسلمين ومؤمنين؟
الجواب في ذلك يطول ويكثر، وسنجيبك عليه إن شاء الله بجواب مختصر نجمل لك فيه المعنى، ونوقفك على الاستواء حتى تفهم في ذلك مرادك، ويتبين لك إن شاء الله جوابك، بأصل جامع لهذه الأشياء لا يدفعه إن شاء الله أحد من العلماء.
من ذلك أنا وجدنا الله تبارك وتعالى ألزم من ألزمه من أهل الكبائر القتل على ما يجترم من كبائر عصيانه، وكذلك فِعله فيمن قتل مؤمناً ظلماً متعمداً، وكذلك حُكمه فيمن قطع الطريق، وسفك الدماء، وكذلك حكمه فيمن عاند أئمة الحق من الباغين، فأوجب عليهم الحرب والقتال، والقتل والنكال، حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويرجعوا إلى حكم الله. فلما وجدنا حكمه سبحانه - فيمن بغى من أهل القبلة وتعدى - القتل والقتال حتى يرجعوا إلى الحق في كل قول وفعال، علمنا أنهم في ذلك الوقت - وقت وقوع القتل بحكم الله عليهم ووجوب الهلكة فيهم - لله أعداء مباينون، وحرب لله سبحانه محاربون؛ لأنه سبحانه لا يوجب الحرب والقتل على ولي من أوليائه، ولا يحكم به سبحانه إلا على عدو من أعدائه، ولم نجد الله سبحانه عادى إلا كافراً، ولا والى إلا مؤمناً. فلما أن قتلهم بحكمه، ومثَّل بهم سبحانه بأمره، علمنا أنهم من الموالاة أبرياء، وأنهم له بأحق الحقائق أعداء، وأنه لن يعادي سبحانه مؤمنا تقياً، ولن يباين بالمحاربة له عبداً زكياً. فصح عندنا بإباحة الله لدمائهم، وافتراضه ما افترض على المؤمنين من جهادهم، أنهم على غير ما ارتضى، وأن فعلهم على خلاف ما أحب وشاء. ومن كان فعله على خلاف إرادة الله فليس من المؤمنين، ومن كان اختياره غير ما اختار الله فليس من المتقين، ومن ترك فرائض الله وسعى في ضدها من حرام الله فليس من المهتدين، ومن كان كذلك فهو لله من العاصين، ومن عصى الله وفسق في دينه، وخالف أمره في نفسه أو غيره، فلم يحكم في فعله بحكم الله، ومن

لم يحكم بما أنزل الله فهو من الكافرين، وفي ذلك ما يقول أحكم الحاكمين فيما نزل من الكتاب المبين: ؟وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ؟[المائدة: 44]، فأخبر سبحانه بالدلالة على الكافرين، ووصفهم بالعدول عن شرائع الدين، ومن عدل عن شرائع الدين ولم يحكم في فعله بحكم رب العالمين، فهو في حكم الله عنده من الكافرين، لا يسميه ذو عقل وبيان فيما أتى به من المعاندة لحكم الله من العصيان إلا بما سماه الله سبحانه من الكفران.

ومن الحجة في ذلك: أنا لم نجد أصل الكفر والشرك – من عبادة الأوثان، وعبادة الشيطان، وعبادة النجوم، والأنصاب والنيران، والدعاء مع الله إلها آخر – غير المعصية، بل وجدنا هذه الأنواع كلها من المعصية لله سبحانه فيما صح عندنا أن من عبد من دون الله غيره أنه لم يعبده إلا بمعصية الله سبحانه؛ لأن الله جل ذكره نهاه أن يعبد معه غيره، فتعدى أمره فكان له عاصياً، وكان بعصيانه له كافراً، إذ نهاه أن يعبد معه سواه، فعبد معه غيره.

وكذلك اليهود والنصارى لم نجد أصل كفرهم وشركهم إلا معصية الله في محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولوا طاعوا الله في محمد والتصديق بما جاء به من عند الله لكانوا مؤمنين، فثبت عليهم الشرك لمعصية الله وترك طاعتهم لمحمد، وهم بالله مقرون وله فيما أمر به عاصون، فلما أن عصوه في أمره كانوا عنده كافرين، وفي حكمه فاسقين.

وكذلك من ينتحل اسم الإسلام والإيمان، وهو مقيم لله سبحانه على كبائر العصيان، فحاله عندنا حال من ذكرنا من العاصين، وإن كانوا بمحمد من المقرين، فهو مقر بلسانه جاحد بفعله، عن الله معرض بقلبه، وقد أبى الله عز وجل أن يكون من كان كذلك أو على شيء من ذلك مؤمناً، حتى يقيم شرائع الإيمان بفعله، ويصحح القول بعمله وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى: ؟إنما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ؟[الحجرات: 15]، فدل بقوله إنما المؤمنون الذين آمنوا وفعلوا، على أن من لم يفعل ذلك فليس من المؤمنين، ومن لم يكن من المؤمنين فليس من المتقين، ومن لم يكن من المؤمنين المتقين فهو من الكافرين الفاسقين. وفي ذلك ما يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أنه قال: ((الإيمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول.))، فبين أن العمل أصل الإيمان، وأن من لم يكن له عمل زكي فليس بمؤمن تقي، ومن لم يكن مؤمناً مرضياً فهو كافر

شقي. والاحتجاج في هذا فكثير، وقليله يجزي عن كثيره، لبيانه لمن علم، ووضوحه لمن فهم، وفي الأقل مما به احتججنا من القول كفاية لأهل المعرفة والعقول.

ومما يقال لمن زعم أن من قال بلسانه وترك العمل بجوارحه مؤمن أن يقال له: خبرنا عن من قتل النفس التي حرم الله، وزنى، وشهد شهادات الزور، وأكل الربا، وقبل الرشا، وظلم المسلمين، وعطل أحكام رب العالمين، وشرب الخمر، وترك الصلاة، وأفطر شهر رمضان، ولم يؤد زكاة، وركب الذكور من الغلمان، ولم يحل حلالاً فيفعله، ولم يحرم حراماً فيتركه... هل يكون من كانت فيه هذه الصفات مؤمنا حقاً عندك؟

فإن قال: نعم.

(799/1)

قيل له: فالواجب في القياس والحق أن يكون من أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وحج البيت، وأتم الصيام، وحافظ على الصلاة، واجتنب الزنى، ولم يركب الذكران، ولم يشهد شهادات الزور، ولم يأكل الربا، ولم يقبل الرشا، ولم يسفك الدماء على غير حلها، ولم يأكل أموال المسلمين، ولا أموال اليتامى، ولم يحرم لله حلالاً فيتركه، ولم يحلل له حراماً فيفعله، وكان بالله عارفاً، وعن محارمه واقفاً كافراً في قولكم حقاً؛ لأن هذين المعنيين المتضادين لا بد أن يفترق معناهما، ويختلف سبيلهما، فيكونان باختلافهما متباينين، ويكون أهلهما والفاعلون لهما أيضا مختلفين، فيجب ما وقع لفاعل أحدهما من اسم وقع ضد ذلك الاسم لفاعل الصنف الآخر. والاسمان المتضادان فهو الإيمان والكفر، وحيث شئت من هذين الصنفين فأوقع اسم الكفر، فليس يقع معه اسم الإيمان، وحيث وقع اسم الإيمان فلن يقع معه اسم الكفر؛ لأن الاسمين مختلفان متضادان، ولا يجتمعان في معنى واحد، كما لا يجتمع ليل ولا نهار في حالة واحدة، ولا حياة ووفاة على جسم واحد في حالة واحدة. فلا بد لمن سئل عن مثل هذا القول أن يقول الحق، فيعلم أن الإيمان مع الطاعة، وأن الكفر مع المعصية، فيكون من أهل الحق، ويرجع إليه ويعتمد عليه، أو ينبذ الحق بعد وضوحه، ويعاند الصواب بعد شروعه، فيزعم أن من كانت فيه هذه الشروط المنكرة الفاحشة من معاصي الله والمحاربة له مؤمن بالله، فيزعم أن الله حضَّ على معاصيه، ورضي بالمعصية لعباده، وجعل العاصين المتكبرين على رب العالمين إخوة للملائكة المقربين، وأنهم عند الله خيرة مصطفون؛ لأن الله عز وجل يقول في كتابه: ؟إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ؟[الحجرات: 10]، والأنبياء والملائكة أخوة للمؤمنين من الآدميين، ومن زعم أن أهل المعاصي إخوة للملائكة المقربين، فقد زعم أنهم صفوة الله وخيرته، وأحباؤه وأهل ثوابه وسكان جنته، ومن زعم أن الله أسكن جنته المحاربين له العاصين، وأنه آخا

بينهم وبين الملائكة المقربين، فقد لزمه ووجب عليه في القياس والحق اللازم أن يقول إن الله باعد بين المطيعين العابدين من عباده القائمين القانتين، الحاكمين بكتابه، المحتذين بحذو أنبيائه، وبين رسله وبين الملائكة، فلم يجعلهم لهم إخوة بطاعتهم له، وأنه يسكن أولياءه وأهل طاعته ناره، ويصليهم جحيمه، ومن قال بهذا ولزمه فقد خرج من حد الإسلام، وصار عند الله من الجهلة الطغام، وكان عند الله أَوْلى بالعذاب ممن جعله الله من المؤمنين أهلاً للثواب. فميِّز رحمك الله ما قلنا، واستعمل فكرك فيما ذكرنا ينجَلِ لك بذلك الصواب، وينكشف عن قلبك سجف الارتياب.

إقامة الحد على من لم يشمله عطاء الإمام

وسألت فقلت: كيف تقيم الحد على من لم تشمله جزايتك من العطاء والكسوة، ولم يستمع ما فيه حياته من العلم؟

وهذا قول مختلف؛ لأن معنى من لم ينله الإحسان من العطاء والكسوة في مُضِيّ الحكم عليه خلاف من لم يسمع ما فيه حياته من العلم والهدى، وسنبين لك إن شاء الله القول في المعنيين، ونوضح لك القول في المسئلتين، ونوضح لك فعل الإمام في الحالين.

فأما من لم تبلغه الدعوة، وتقم عليه بذلك الحجة، ويعلم ما يحل وما يحرم، وما يجب به عليه الحد عند الإمام، فلا نذيقه بأسنا، ولا نقيم عليه حدودنا، حتى نُعلمه ما به تقوم عليه الحدود، وتلزمه العقوبات اللازمة.

فإذا علم ذلك وأتى عليه، وعرف ما له وعليه فيه، وأتى قولنا على سمعه، وثبت إعذارنا وإنذارنا في قلبه، ثم أتى بعد ذلك ما عنه نهاه الواحد الرحمن، واجترى على ما يجب فيه الحد في القرآن، أقمنا عليه بما أوجب الله من الأدب من بعد أن فهم وأبصر، وأيقن وخبر.

فأما أن نقيم الحدود على من لا يعلم حلالا من حرام، ولم يقف على ما فيه الحدود من الآثام، فليس ذلك قولنا، ولا – ولله الحمد – طريقتنا، وكذلك فعل الله في خلقه وحكمه على بريته، وحجته على خليقته، فلا تقع ولا تجب إلا بعد تعريف الله عباده إياها، وإيقافه لهم عليها.

فأما ما قلت من إقامة الحد على من لم ينله منا الكسوة والعطاء، فليس الكسوة والعطاء يوجبان حجة. والحدود ماضية على من لم ينل ذلك منا من بعد ما ذكرنا من التفهيم له، والهداية إلى الحلال والحرام والتوقيف، ولسنا ندفع عنه بعد تعريفه ما يجب عليه فيه الأداب حدود الله ببطؤ مايؤمل منا

من الرفد في كل الأسباب؛ لأن الرفد، وإن أبطأ مصيره إليه، لا يدفع عنه حداً إن وجب في حكم الله عليه.

(802/1)

وكيف يندفع عنه حكم الله الجاري عليه على يدي الإمام في أمر يلزمه الحكم عليه في الآخرة عند ذي الجلال والإكرام، والمعنيان كلاهما من الله حكم لازم على الفاعل؟ فكيف يلزم الله عبداً من عباده على فعل من أفعاله حكماً حكم به عليه، وجعله واجباً بفعله عليه في دار الآخرة الباقية، ويزيله عنه في دار الدنيا الفانية؟ فهذا ما لا يكون ولا يصح في العقول، بل كل ما كان عليه العبد من الفعل معاقباً في الآخرة فعقوبة الله له عليه في الدنيا لازمة، وما سقطت عقوبة الله عنه فيه في الآخرة كانت عقوبته ساقطة عن فاعله في الدنيا. ألا ترى كيف أزحنا عن الجاهل بالحلال والحرام، ومن لم يعرف ما تجري عليه فيه الحدود من الفعال العقوبة في الدنيا، بتركنا له وطرحنا عنه ما ألزمناه غيره ممن فهم أمرنا، ووقف على ما يلزم فيه أدبنا، وتجب به عليه حدود ربنا. وإنما طرحنا ذلك عنه ولم نحكم به فيه؛ لأن الله سبحانه أسقط عمن كان كذلك عقوبة الآخرة، فلما سقطت عنه عقوبة الله في الآخرة زالت عنه في الدنيا عقوبة الأئمة.
فافهم الفرق بين المعنيين، وقف بصافي فكرك ولبك على الحالين.
فأما ما يذكر عن جدي صلوات الله عليه محمد بن إبراهيم القائم بالكوفة، الذي صحبه أبو السرايا، من تخليته للسارق الذي خلاه، وتركه لم يقطع يده، وقوله في ذلك: ((لم يذق عدلنا فنجري عليه حكمنا.)).
وإنما أراد بقوله: (عدلنا) أي: تعليمنا وتفهيمنا، وتوقيفنا له على حلال الله وحرامه، حتى يعلم ما يجب به عليه القطع من غيره، وما يجب به عليه الحدود كلها.

(803/1)

وكذلك فعلنا نحن أيضاً في بعض ما دخلنا من القرى، فأتينا بسكران من جانب المسجد، وكان ذلك في وقت ما دخلنا، فسألناه عن فعله فذكر أنه لم يعلم أنا نحرم الخمر، ولا أنا نحد عليها، ولا أنه يكون منا أدب فيها، فأزحنا عنه الحد بما أدلى به من جهله، وعرفنا له الحق علينا من أمره. وذلك أن سيرتنا والواجب علينا إذ دخلنا بلداً أن نكتب كتابا نبين فيه للأمة ما نقيم فيه الحدود عليها، ثم نقرأه عليها في أسواقها، ومساجدها، ومواضعها، ومجتمعاتها، فإذا أثبتنا ذلك لها، وأعذرنا وأنذرنا

بالحق إليها، جرت بعد ذلك أحكام الله سبحانه عليها، ومضت حدوده سبحانه فيها. وإنما فعلنا ذلك لعلمنا بكثرة الجهال، وغلبة الضلال، وقلة الهدى، وتراكم الغفلة والهوى، وذلك لفقدان الدعاء، وعدم أهل التقوى، وبعد الأئمة الهادين، وقرب الأئمة الفاسقين، الذين لا يلزمون أنفسهم تعريف الأمة رشداً، ولا اكتسابها براً ولا هدى. فلما كانت أئمتهم كذلك، كانوا هم أشر من ذلك، فعموا عن الدين، وجهلوا فروض رب العالمين، ولم يعلموا حراماً من حلال، من قول ولا فعال. شابهوا أئمتهم في فعلهم، واقتدوا بهم في أديانهم، فهم بأديان أئمتهم يقتدون، وفي عمى كبرائهم يعمهون. لم يروا محدودا على حد فيخافوا ما ناله، ولم يروا مهتدياً فيتبعوا حاله. ضلاَّل أشقياء، متجبرون أردياء، قد غرقوا في الضلال المبين، وجنبوا عن طريق الحق واليقين. أتباعكل ناعق، سيقة كل سائق، لا يعرفون سبيل رشد فيتبعوه، ولا طريق هلاك فيتجنبوه. قد اتخذهم كبراؤهم سنداً، وجعلوهم لهم يداً، يطفئون بها نور الهدى، ويقتلون بها أهل التقوى، ويظهرون بها الفحش والردى، ويخملون بها نور الإسلام، ويظهرون بها أفعال الطغام، ويحاربون بها من دعى إلى دين محمد عليه السلام. يتبلغ الجبارون المتكبرون بأتباعهم المتحيرين، وينالون بهم معصية رب العالمين.

(804/1)

فلما أن علمنا أن هذه حالهم، ووقفنا على أنها سبيلهم، لم نستجز بعد ملكهم والقهر لهم، والعلو بعون الله على جبابرتهم، أن نقيم الحدود فيهم مع ما قد علمنا من جهلهم، حتى نبين لهم ما ندعوهم إليه، وما نوقفهم عليه، ثم نمضي الحدود بعد الإنذار والإعذار، ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟.

(805/1)

تسبيح الأشياء وسجودها لله تعالى

وسألت أكرمك الله: عن قول الله سبحانه: ؟وإن مِّن شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ؟[الإسراء:44]؟

واعلم أن معنى هذا وأحسن ما يؤول في فهمنا، أن الله تبارك وتعالى أراد بذلك أنه ليس من شيء إلا وفيه من أثر صنعه وتدبيره وتقديره ما يدل على جاعله ومصوره، ويوجب له سبحانه على من عرف أثر صنعه فيه التسبيح والتهليل، والإقرار بالوحدانية والتبجيل، عند تفكر المتفكر، واعتبار المعتبر، بما يرى من عجائب فعله جل جلاله، فيما خلق من عروق الأشجار الضاربة في الثرى، وفروعها

الباسقه في الهواء، وما يكون منها من ثمار مختلفة شتى. فإذا نظر إلى أثر تدبير الجبار فيها، أيقن بالصنع، وإذا أيقن بالصنع أيقن بالصانع، فإذا استدل على الصانع ثبتت معرفته في قلبه، ورسخت وحدانيته في صدره، فإذا ثبتت المعرفة في قلب المعتبر، وصحت في جوارح الناظر، نطق لسانه بالتسبيح لجاعل الأشياء، وظهرت منه العبادة لصانعها.

فهذا معنى: ؟وإن مِّن شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ؟، لمَّا كان في الأشياء كلها الدليل على جاعلها، وفي الدليل على جاعلها ما يوجب الإقرار به، وفي الإقرار به ما يوجب ذكره بما هو أهله من التقديس والتبجيل، والتسبيح والمعرفة والإقرار بقدرته جاز أن يقال: يسبح؛ إذ كان بسببه التسبيح من المسبِّح المستدِّل على ربه، بما بين له في كل شيء من أثر صنعه، فقال: ؟وإن مِّن شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ؟، وهو يعني بالتسبيح تسبيح المسبحين لسبب أثر الصنع من المعتبرين بذلك، فجاز ذلك، إذ كان بسبب أثر الصنع في هذه الأشياء كان التسبيح فيها من المسبحين، المقرين بالله المعترفين.

(806/1)

وما التسبيح إلا كقول الله عز وجل: ؟زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ؟[النمل: 40]، وليس الله يزين لأحد قبيحاً، ولكن لما كان سبب زينة الدنيا وما فيها من الله خلقاً وجعلاً، وكان منه الإملاء للفاسقين، والتأخير الذي به تزينت أعمالهم، جاز أن يقال: زينا ولم يزين لهم سبحانه قبيحاً من فعلهم.

كذلك قوله سبحانه: ؟ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا؟[الكهف: 28]، فليس الله سبحانه يُغفل قلب أحد عن ذكره، ولا يصرفه عن معرفته، ولكن لما أن كان منه سبحانه ترك المعاجلة للمسيء على فعله، والتأخير له في أجله، جاز أن يقول: أغفلنا، إذ كانت الغفلة هي الإعراض والترك للحق والتوبة والإنابة، فجاز من قِبَل إملاء الله وتأخيره للمسيء المذنب أن يقول: أغفلنا على مجاز الكلام، ومثل هذا كثير في القرآن، يعرفه ذو الفهم والبيان.

ومما حكى الله عز وجل عن ولد يعقوب عليه السلام: ؟وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا؟[يوسف: 82]، فقالوا: القرية، والقرية فإنما هي البيوت والدور، وليس البيوت والدور تُسأل، وإنما أراد أهل القرية؛ لأنها من سبب الأهل، والأهل من سببها، فجاز ذلك في اللغة العربية. وكذلك قولهم: ؟الْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا؟، والعير فإنما هي الجمال المحملة، وليس الجمال تسأل ولا تجيب ولا تستشهد، وإنما أرادوا أهل الجمال وأرباب الحمولة، فقالوا: سل العير، وإنما أرادوا أهلها.

فكذلك قوله سبحانه: ؟وإن مِّن شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ؟[الإسراء: 44]، يريد وإن من شيء إلا وهو يوجب التسبيح على من اعتبر ونظر، وفكر في أثر صنع الله بما فيه، فجاز أن يقال: وإن من شي إلا يسبح بحمده، لما أن كان أثر الصنع فيه موجباً للتسبيح لصانعه على المعتبرين من عباده.

فأما قوله: ؟وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ؟[الإسراء: 44]، فهو ذم لمن لم يعتبر، ويستدل بآثار الصنع في الأشياء، فقال: ؟لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ؟، يريد: لا تفقهون ما به من أثر الصنع فيها، الذي يوجب التسبيح للصانع والإجلال والتوقير، وكان ذلك ذماً لمن لا يعتبر ولا يتفكر، ولا يحسن التمييز في أثر صنع الله، فيعلم بأثر صنعه ما يستدل به على قدرته، ويصح لربه ما يجب بمعرفته من توحيده، والإقرار بربوبيته.

وأما قوله: ؟وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ؟[الرحمن: 6]، فقد قال بعض العلماء: إن معنى السجود سجود ظلال الأشياء ووقوعها على الارض. وقال بعضهم إن هذا على المَثَل يقول: إنه لو كان في شيء من الأشياء من الفهم والتمييز مثل ما جعل الله في الآدميين والشياطين والملائكة المقربين إذا لعبد الله كل شيء وسبحه بأكثر من عبادة الآدميين وتسبيحهم. فجعل هذا مثلاً كما قال سبحانه: ؟إنا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان انه كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ؟[الأحزاب: 72] أراد تبارك وتعالى أنه لو كان في السموات والأرض والجبال من الفهم والتمييز ما في الآدميين، ثم عرض عليها ما عرض على الآدميين من حمل الأمانات التي قبلها الآدميون؛ لأشفقت السموات والأرض والجبال من حملها، ولما قامت بما يقوم به الآدمي من نقضها، مع ما في الأمانة من الخطر وعظيم الأمر على من لم يؤدها على حقها، ويقم بها على صدقها.

والأمانة على صنوف شتى: فمنها قول الحق وفعله، ومنها أداء الشهادة على وجهها، ومنها أداء الحقوق إلى أهلها من النبيئين والمرسلين والأئمة الهادين، ومنها الودائع من الأموال وغيرها، ومنها ودائع العهود والعقود من متابعة المحقين، ومعاهدة الأئمة القائمين، ومنها العقود التي قال الله تبارك وتعالى فيها وفيما عظم من خطرها وأجلَّ من أمرها: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ؟[المائدة: 1]، فكل ما ذكرنا فهو أمانة عند العالمين، واجب عليهم تأديتها عند رب العالمين.

وأحسن ما أرى والله أعلم، وأحكم في تأويل قوله سبحانه: ؟وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ؟، أنه أراد بقوله يسجدان ومعنى يسجدان: فهو لما فيهما من التدبير، وأثر الصنع والتقدير لله الواحد القدير، فإذا رأى المعتبرون المؤمنون ما فيهما من جليل صنع الله وعظيم جعله لهما، وما سخرهما له وجعلهما عليه من جولان النجم في الأفلاك، تارة مصعداً، وتارة منحدراً، وتارة طالعاً، وتارة آفلاً، تقديراً من العزيز

العليم، لما أراد من الدلالة على الدهور والأزمان، والدلالة على عدد الشهور والسنين والأيام للإنسان، فإذا رأى ذلك كله مسلم تقي، أو معتبر مهتد، سجد له بالمعرفة والإيقان، واستدل عليه سبحانه بذلك الصنع في كل شأن، فعبده عبادة عارف مقر، عالم غير منكر، فسجد له متذللاً عارفاً، مستدلاً عليه سبحانه بما أبصر من الدلائل في النجوم عليه.

(809/1)

وكذلك حال الشجر، وما فيه من عجائب الصنع والتدبير، وما ركَّبه الله سبحانه عليه من التقدير في ألوان ثمارها وطعومها، واختلاف ألوانها، وهي تسقى بماء واحد، وتكون في أرض واحده، كما قال الله سبحانه: ؟وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ؟[الرعد: 4]، فكل ذلك من اختلافها دليل على قدرة جاعلها، ووحدانية فاطرها. فهذا أحسن المعاني عندي – والله أعلم وأحكم – في يسجدان: أنه يسجد من أثر الصنع فيهما، وأثر القدرة في تقديرهما كلُّ مؤمن عارف بالله، مقر بصنع الله وحكمته، يستدل عليه بأثر قدرته. فافهم ما به قلنا في قوله: ؟يَسْجُدَانِ؟، وتفكر فيما شرحنا، وميز قولنا يبن لك فيه الصواب، ويزح عنك فيه الشك والارتياب.

(810/1)

علم العبد أنه صادق عند ربه

وسألت فقلت: متى يعلم العبد أنه صادق عند ربه؟

والجواب في ذلك أنه إذا علم من نفسه أنه مطيع لله غير عاص، صادق غير كاذب، وقائم بحجته غير مقصر، ومؤمن لنفسه من عقوبة ربه، بما يكون منه من طاعة خالقه، وترك جميع ما يسخط سيده، فهو – إذا أيقن من نفسه بذلك – صادق عند ربه، مقبول ما يكون من عمله محمود في كل فعله.

(811/1)

وسألت عن لقاح العقل؟

ولقاح العقل فهو التجربة؛ لأن كل شيء يحتاج إلى العقل، والعقل محتاج إلى التجربة ومضطر إليها، غير مستغن عنها.

(812/1)

رياضة النفس

وسألت عن رياضة النفس: ما هي وكيف تكون؟

واعلم رحمك الله ووفقك، وهداك للرشد وسددك، أن رياضة النفس على صنوف، يجمع الصنوف المختلفة أصل واحد تكون فيه مؤتلفه، وهو ترغيبها فيما أعد الله للمتقين، وجعل سبحانه في الآخرة من الثواب للمؤمنين، وحكم به من الفوز لأوليائه الصالحين، والترهيب لها بما أعد الله للعاصين من العذاب المهين، وشراب الحميم، وطعام الزقوم، وما أشبه ذلك من ألوان العذاب المقيم، فهذا أصل رياضة النفس.

ومن فروع ذلك ما روي عن بعض الصالحين فيما كان يرهب به نفسه مما يشبهه بعذاب رب العالمين، من أنه كان ربما لذع نفسه بالنار إذا طمعت أو همت بالمعصية أو طغت، فإذا وجدت حرقة النار قال: هذا جزعك من هذه النار الصغيرة، فكيف تدعيني إلى ما يدخلني وإياك النار الكبيرة.

ومن رياضة النفس: ما ذكر عن بعض الصالحين من أنه كان يخلو ثُم يخاصم نفسه بأرفع ما يكون من الصوت، كما يخاصم الخصم خصمه، ويحاور الضد ضده، فيقول: فعلتِ بي كذا وكذا، وفعلتِ بي كذا وكذا، وهذا هلكتي وهلكتك، وتلفي وتلفك، فلا يزال كذلك حتى تتكسر له نفسه، وتراجع له.

ومن رياضة النفس: ما هو فرع للأصلين اللذين أثبتناهما، وذكرناهما لك وفسرناهما: تذكرها للموت والفناء، وخروجها مما تميل إليه من لذات الدنيا، وانتقالها من دار سرورها ورخائها، إلى دار فنائها وبلائها، وما يكون من تمزق بدنها في الثرى، ثم ما يكون من بعده من الحسرة في يوم الدين، والمحاسبة لها من رب العالمين.

ومن رياضتها: تذكيرها هول الوقوف في يوم الحشر، وما في كتاب الله من وصف حال يوم النشر.

(813/1)

فهذا وما كان متفرعاً من الأصلين فهو رياضة النفس وتوقيفها، وردها إلى الحق وتعريفها، وأصل ذلك كله وفرعه والذي هو عون لصاحبه على نفسه فهو إخلاص النية إلى ربه، والاستعانة به على نفسه، فإن من خلصت له نيته، وصلحت له علانيته، أصلح الله له سريرته، وقوَّاه على إرادته بالتوفيق والتسديد، والمعونة والتأييد؛ لأنه إذا كان منه ما ذكرنا من إخلاص النية والإرادة، والإقبال إلى الله والتوبة، فقد اهتدى وإذا اهتدى فقد قبله الله سبحانه فزاده هدىً، ومن زاده هدى فقد أوجب له الحياطة في كل معنى، ومن حاطه الله وهداه؛ فقد أعانه على طاعته وتقواه.

(814/1)

علم العبد أنه مجتهد في إرضاء الله

وسألت فقلت: متى يعلم العبد أنه مجتهد في رضاء الله؟

فالجواب: إنه لا يعلم بحقيقة العلم أنه مجتهد لله فيما يرضيه حتى يعلم أبداً أنه لا يعصيه، فإذا وثق من نفسه أنه لا يأتي لله معصية، ولا يترك له فريضة، فعند علمه بذلك من نفسه يعلم أنه مجتهد في رضاء ربه. فعلمه باجتهاده في رضاء ربه تابع لعلمه بالائتمار بأمره، والانتهاء عن نهيه، وعلى قدر ما يكون الائتمار من العبد بأمره والانتهاء عن نهية يكون الاجتهاد منه في رضاء خالقه.

(815/1)

علم العبد أنه قد استوجب الجنة

وسألت فقلت: متى يعلم العبد انه قد استوجب الجنة من الله سبحانه؟

الجواب في ذلك: إذا علم بحقيقة العلم أنه قد أخلص التوبة النصوح إلى الله، وأنه لا يدخل في معصية من معاصي الله، وأنه لا يدع شيئاً من فرض الله، ثم علم أن ذلك منه بإخلاص واستواء، وثبات ونية وتقوى؛ فليعلم عند ذلك أنه من المؤمنين، وقد أخبر الله بمحل المؤمنين فقال سبحانه: ؟أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟[السجدة: 18]، فإذا أيقن بذلك من نفسه وعلمه، فليعلم أنه قد صار من أهل الجنة كما ذكر الله في كتابه في هذه الآية التي ذكرنا.

(816/1)

المساواة في الحق بين الغني والفقير

وسألت فقلت: أكان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما يساوي بين الأغنياء والفقراء في الحق؟

وكذلك لعمري كان صلى الله عليه وآله وسلم. فإن كنت تريد بقولك: يساوي بينهم في الحق، أي: يساوي بينهم في الحكم، وينصف كلا من صاحبه فكذلك لعمري كان صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن كنت تريد بقولك يسوي في الجوائز في العطاء والرزق، فنعم، قد كانوا عنده في ذلك سواء، فيما يجب لهم ويجرى عليهم، مما تجب التسوية بينهم فيه، مثل قسم الفيء وقسم الغنائم. وأما في أرزاق المرتزقين، وسهام الأجناد المتجندين، فلا يستوون في ذلك، ولا يكونون في الحق سواء كذلك، بل الأرزاق للمرتزقين على قدر ما يرى إمام المسلمين من جزايتهم وعنايتهم، وحاجتهم إلى ما كفهم وأغناهم، وقام بأسبابهم، فعليه في ذلك حسن النظر لهم، والتمييز في كل ذلك بينهم.

(817/1)

أخذ الجزية من العروض

وسألت فقلت: أكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ من أهل الذمة ثوباً عسكرياً وغيره من العروض من الإنسان منهم؟ ومن أين جاز أن يؤخذ اليوم منهم ثمانية وأربعون درهماً، وأربعة وعشرون، واثنا عشر؟

القول في ذلك: أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم لما أمره الله بأخذ الجزية من جميع أهل الذمة أخذ منهم ما أمر به، فكان ما أمر به أن يأخذ من ملوكهم ثمانية وأربعين درهماً، ومن أوساطهم أربعة وعشرين درهماً، ومن فقرائهم اثني عشر. ولم يكن في دهره ولا في أرضه ولا في دار هجرته في ذلك الوقت من ملوكهم أحد، وكان كل من كان معه في دار هجرته فقراء وأوساطاً، أصحاب اثني عشر وأربعة وعشرين، وكانت الدارهم تعسر بهم، ولا يتهيأ في ذلك الوقت معهم، فكان يأخذ منهم عروضاً من ثياب وغيرها بالقيمة التي يقومها من يفهمها ويبصرها. وكذلك فعل من كان بعده أخذوا من أهل الجزية حين وصلوا إلى أهل اليسارة منهم أخذوا الثمانية وأربعين درهماً التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله، وأمر بها فيهم بأمر الله، وكذلك أيضاً لو عسرت اليوم عليهم الدارهم لأخذنا من كل إنسان من تجارته وبضاعته عرضاً بقيمة الدراهم، إذا صح عسرها عليهم، وثبت امتناعها منهم.

(818/1)

كلام أهل الجنة لأهل النار

وسألت عن كلام أهل الجنة لأهل النار في قولهم: ؟هَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ؟. فقلتَ: أمثل هو مضروب، أم قول مقول؟ وقلتَ: هل يقرب بينهما حتى يكلم بعضهم بعضاً؟

واعلم - هديت ووفقت - أنه قول مقول منهم، وعمل معمول من فعلهم.

فأما ما سألت من القرب بينهم حتى يسمع بعضهم قول بعض، فليس ذلك كذلك فيهم، ولا ذلك فعل الله تبارك وتعالى بهم، وكيف يسمع أهل الجنة كلام أهل النار، وهم لا يسمعون حسيس النار.

فحسيس النار أشد حساً وأبعد صوتاً من كلام أهلها الذين ذكر الله عنهم، وشرح سبحانه أنه يكون منهم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ؟لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ؟[الأنبياء: 102]، فأخبر أن المؤمنين لا يسمعون لها حسيساً، وأنهم عنها مبعدون. وإنما كلامهم لأهل النار، وكلام أهل النار لهم عند قولهم: ؟أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ؟[الأعراف: 50]، فهو بالرسائل التي تبلغها الملائكة عنهم، وتمشي بها بينهم، وذلك منها صلوات الله عليها فبإذن لها من الله فيه، وتقدير منه سبحانه لها عليه. وإنما جعلهم الله كذلك، وأذن لهم في ذلك؛ ليكون ذلك سروراً للمؤمنين، ومعرفة منهم بما نزل بالمكذبين الضالين، فيتجدد لهم بذلك البهج والسرور، وتكثف لهم به الغبطة والحبور، ويكون من علم أخبار المؤمنين، وما هم عليه من عطايا رب العالمين، حسرة في قلوب الكافرين، وعذاباً لهم مع عذاب النار، وأسفاً لما فاتهم من كريم القرار ونعيم الدار، التي جعلها الله ثواباً للأبرار. فافهم ما عنه سألت، وقف من الجواب على ما طلبت.

(819/1)

اجتماع أهل البيت الواحد في الجنَّة

وسألت فقلت: هل ترد على المؤمنين أزواجهم اللواتي كن معهم في الدنيا؟

واعلم رحمك الله أنهن إن كن مؤمنات مثلهم، متقيات لله كهم، جمع الله بينهم في الآخرة الباقية، كما جمع بينهم في دار الدنيا الفانية. وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن ذلك فقال: نعم يجمع الله بين جميع أهل البيت إذا كانوا مؤمنين في دار ثواب المتقين.

(820/1)

تفسير قول الله سبحانه: ؟وإن يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ؟

وسألت عن قول الله سبحانه: ؟وإن يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ؟[الحج (47]؟

والمعنى في ذلك فهو إخبار من الله سبحانه عن نفاذ قدرته، وإمضاء مشيئته، وسرعة فعله، يخبر سبحانه أنه ينفذ في يوم واحد ما ينفذه جميع الخلق إذا اعتونوا عليه في ألف سنة، من محاسبة المحاسبين، وتوقيف الموقفين على ما تقدم منهم من أعمالهم في دنياهم وحياتهم. فهذا معنى ما عنه سألت من قول الله سبحانه: ؟وإن يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ؟[الحج: 47].

(821/1)

كيفية المناصفة بين العباد في الآخرة

وسألت عمن ظُلِم في الدنيا من دنانير أو دراهم، كيف يكون لحوقه لحقِّه من ذلك في الآخرة وليس في الآخرة دراهم ولا دنانير؟

القول في ذلك: إن الله سبحانه يعطي المظلوم إذا كان مؤمناً من الثواب على ما امتحن به من ذهاب ماله في الدنيا فيصبر لله سبحانه على ذلك صبراً حسناً، فآتاه من الثواب والجزاء أكثر مما لو رد إليه أموال الدنيا، ويعرفه سبحانه أن ذلك جزاء على ما كان من صبره، واحتسابه بما ذهب في الدنيا من ماله، ويستوفي له من ظالمه الفاسق الردي بالزيادة في العذاب الأليم، حتى يعلم الخائن أن ذلك نزل به خصوصية على مظلمة المؤمن، ويطلع الله المؤمن على ما أنزل بظالمه، ويعلمه أن ذلك الذي حل به من الزيادة في العذاب هو من أجل ما غصبه من ماله، فظلمه به في حقه.

فهذا حال المؤمن المظلوم، وحال الفاسق الظالم عند الجزاء في الآخرة التي تبقى.

فإن كان الظالم والمظلوم فاسقين، عذبهما على كفرهما وفسقهما، وزيد في عذاب الظالم من الفاسقيْن لصاحبه، حتى يعلم كلاهما أن تلك الزيادة نزلت بالظالم لتعديه في حكم ربه، وتناوله لما حرم الله عليه من ظلمه، ومنع منه من غشمه. فافهم، هديت، ما به قلنا، فيما عنه سألت وشرحنا.

(822/1)

خروج أكثر من إمام في عصر واحد

وسألت عن الأئمة: يخرج واحد واثنان، وثلاثة وأربعة، في عصر واحد يكونون أكفياء، زعمتَ، في العلم والجسم والورع، فقلت: من المستحق منهم؟

واعلم رحمك الله أن الأمر لأفضلهم فضلاً، وأبرعهم معرفة وعلماً.

فإن قلت: قد استووا في ذلك، فلن يستووا ولن يشتبهوا عند من جعل الله له لباً وتمييزاً وفهماً، وذلك أنهم إن استووا في الورع فلن يستووا في العلم، وإن استووا في العلم فلن يستووا في سائر الخصال، وإن التبس أمرهم في ذلك عند الجهال لم يلتبس أمرهم في التعبير والكلام، والتبيين والشرح لشرائع الإسلام، فيكون أولاهم بالإمامة - وإن اشتبهوا في العلم والورع والمعرفة - أجودهم شرحاً وتبييناً وأهداهم إلى تفهيم الرعية ما تحتاج إليه، وما لا غنى بها عنه، ولا عذر لها فيه. فمن كان له الفضل في شيء مما ذكرنا، كان أحق الجماعة بالإمامة من ربنا. فافهم ما قلنا وتبين في مسألتك ما شرحنا.

(823/1)

من هم أهل الأعراف؟

وسألت عن قول الله سبحانه: ؟وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ؟[الأعراف: 46].

الجواب: في ذلك أن الأعراف: هو ما ارتفع من الأرض وعلا، وشمخ منها في الهواء، فتلك أعراف الأرض. والرجال التي عليها في يوم الدين فقد قيل: إنها رجال من المؤمنين، وقيل: إنها الحفظة التي كانت من الملائكة المقربين، حفظة في الدنيا على العالمين التي قال الله في كتابه وذكرهم وما بيَّن من حفظهم لمن كان من الخلق معهم، حين يقول: ؟عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ؟[ق:] وهذا فأشبه المعنيين عندي، والله أعلم واحكم.

ومعنى: ؟يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ؟: فهو معرفة أولئك الحفظة لمن كانوا يحفظون.

ومعنى يعرفون: فهو يتعرفون ويتفهمون، حتى يوقنوا بهم ويعرفوهم، ويقفوا عليهم ويثبتوهم معرفة.

ومعنى بسيماهم: فهو بحليتهم التي كانوا يعرفونها في الدنيا، ومعناهم في صفاتهم وخلقهم، وبنيتهم المعروفة من صورهم.

(824/1)

رفع اليدين في الصلاة

وسألت عن رفع اليدين في التكبير؟

وهذا أمر لا يجيزه في الصلاة علماء آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الصلاة إنما هي خشوع وتذلل لذي الجلال والطول. وإرسال اليدين والكف عن رفعهما أكبر في الدين لصاحبهما. وقد قيل إن رفع اليدين فعل جاهلي كانت قريش تفعله لآلهتها وأصنامها، عند الوقوف تجاهها والسلام

منهم عليها، فإن يكن ذلك كذلك والله أعلم، فلا ينبغي ولا يجوز لمسلم أن يفعل ما يُفعل للأصنام مع ما في ذلك من قلة الخشوع لله؛ لأن الصلاة التي فرضها الله فرض معها الخشوع والتذلل، فلما كان ترك رفع اليدين في الصلاة إلى الخشوع أقرب، ففعله دون غيره على المصلي لله أوجب.

(825/1)

تفسيرقول الله تعالى: ؟إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ؟ وحكم صلاة الليل

وسألتَ عن قول الله سبحانه: ؟إن رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ؟إلى قوله ؟.... فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ؟[المزمل: 20]، فقلتَ: إن بعض الناس زعم أن هذا فرض من الله، وقال بعضهم: نافلة.

واعلم رحمك الله أن الله عز وجل لم يعنِ بما ذكر في الصلاة في أول هذه السورة وآخرها إلا صلاة العتمة المفروضة، فجعل الرخصة فيها لمن كان ذا علة، من مرض أو عرض، أو سفر أو خوف، فجعل هذه الأوقات لمن كان كذلك وقتاً. ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ؟عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ؟[المزمل: 20]، فأوجب على كل مريض وعلى كل مسافر وعلى كل مجاهد فعل ذلك، وإقامة الصلاة في هذه الأحوال كلها، ولا يجب ما أوجب الله من ذلك على من كان من الخلق كذلك إلا وهو فرض مؤكد، وأمر مشدد. ولا يُعرف لله في الليل فرض صلاة مفروضة إلا ما ذكرنا من العتمة والعشاء، وقد شرحنا ذلك وفسرنا، واستقصينا فيما شرحنا من تفسيره في سورة المزمل.

(826/1)

عدم ثبوت التراويح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وسألت عما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنه صلى التراويح في شهر رمضان ليلة واحدة، ثم أمر الناس بالانصراف إلى بيوتهم.

وقد روى ذلك بعض الناس وذكره، ولسنا نصحح شيئاً من ذلك ليلة ولا ليلتين، ولا نعرفه عنه ولا نرويه، ولم يبلغنا أنه صلى بالناس صلى الله عليه وآله وسلم تراويحاً ليلة ولا ليلتين، ولاساعة ولا ساعتين، ولا ركعة ولا ركعتين، ولم يروه أحد من علمائنا، ولم يأثره عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم أحد من آبائنا، ولو كان ذلك شيئا كان منه لروته آباؤنا عن آبائها وجدودها، ولما سقط عنهم شيء منه، ولأتوا به مصححاً عنه.

(827/1)

التزوج من امرأة لا تعرف الدين

وسألت: عن الرجل يتزوج امرأة لا تعرف الدين، ومذهبها على خلاف مذهبه، وهي في فن سوى فنه، فعلَّمها ما يجب عليها من دينها، وما هو الحق اليقين عند ربها، فلا تتعلم ولا تقبل ولا تفهم، فقلت: هل يجوز له أن يمسكها على ذلك؟

فالواجب عليه أن لا يبقي غاية في نصحها والتأني بها، وتعريفها وتفهيمها، فإن عرفت وفهمت، وتابت ورجعت، فذلك الواجب عليها، وإن أبت الدين، ولجّت في مخالفة اليقين، فلا يجوز له إمساكها، ولا يسعه الإفضاء اليها حتى ترجع إلى الحق الذي افترضه الله الواحد الخلاق، أو يوقع – إن غلبته بينه وبينها – الواجب على مثلها من الفراق.

(828/1)

حمل العرش

وسألت عن قول الله سبحانه: ؟وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ؟[الحاقة: 17]؟

ومعنى العرش: فهو الملك، والملك: فهو ما خلق الله وذرأ في الآخرة كلها والأولى، وما فيها من جميع الأشياء.

ومعنى ثمانية: فهو لا يخلو من أن يكون ثمانية أصناف من الملائكة، أوثمانية آلاف.

وحملها للعرش الذي هو الملك فهو قيامها فيه ونهوضها. وقيامها به فهو أمرها ونهيها، وإنفاذ أمر ربها، وإيصال الثواب إلى المثابين، والعقاب إلى المعاقبين، وما يكون من فعل الله في ذلك اليوم في المخلوقين. فأخبر سبحانه أنه يقوم بحساب الخلق في ذلك اليوم، وإيصال ثوابه وعقابه إليهم، وإنفاذ جميع أمره فيهم هذه الثمانية التي ذكرنا أولا كانت من الملائكة آلافاً أو أصنافاً.

ومعنى قوله فوقهم: فهو منهم، غير أن (فوق) قامت مقام (مِن)؛ لأنها من حروف الصفات، فهما يعتقبان؛ أراد سبحانه: ويحمل عرش ربك منهم ثمانية، ومعنى منهم: فهو من الملائكة.

فأخبر أن الثمانية هم القائمون بأمر الله في ذلك اليوم ونهيه، وجميع ما يكون من فعله في خلقه، دون غيرهم من الملائكة المقربين، وقد شرحنا تفسير هذه الآية في كتاب على حده شرحاً مبيناً،

مفسراً مستغنياً بما مضى في الكتاب عن تكراره في هذا الموضع من شرح [ذلك]، وذلك كفاية لمن فهم واهتدى لمعرفة ربه فعلم.

(829/1)

شرط مصالحة النبي لنصارى بني تغلب

وسألت عما ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صالح أهل الكتاب على أن يكون أولادهم مسلمين، لا يعلِّمونهم اليهوديه ولا النصرانية، وقلت: قد نقضوا العهد، فهل للإمام أن يبدئهم؟

وقلت: إنه يقال إنهم الذين عنى الله بقوله: ؟قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ؟[التوبة: 123]، دون غيرهم.

واعلم هداك الله: أن اليهود ليسوا في شيء من هذا، وإنما أولئك الذين صالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن لا يصبغوا أولادهم، ولا يدخلوهم في شيء من أديانهم، هم نصارى بني تغلب دون غيرهم من النصارى. وذلك أن بني تغلب عرب، وليسوا من بني إسرائيل، فأَنفوا حين أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجزية من جميع أهل الذمة، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ منهم كما يأخذ من العرب العشر، فأخبرهم صلى الله عليه وآله وسلم أن العشر لا يكون إلا صدقة، وأن الصدقة لا تؤخذ إلا من أهل الصلاة؛ لأنها تطهرة لهم وتزكية، فسألوه أن يأخذ منهم ضعفي ما يأخذ من المسلمين على طريق الصلح لسلامة أنفسهم ونجاة رقابهم، لا على طريق الزكاة والتطهرة، فصالحهم صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، وعلى أن لا يصبغوا أولادهم، وأن يكون أولادهم بعدهم مسلمين. فأخذ منهم من أموالهم في كل أربعين شاة شاتين، وفي كل ثلاثين بقرة تبيعين أو تبيعتين، وفي الإبل في كل خمس شاتين، وفيما يكال الخمس مما سقي سيحاً أو بماء السماء، أو العشر فيما سقي بالسواني أو الدوالي والخطارات، وفي النقد من الذهب في كل عشرين مثقالاً مثقالاً، وفي مائتي درهم من الفضة عشرة دراهم، نصف العشر من الذهب والفضة، أضعف عليهم ما يجب على المسلمين من الزكاة المفروضة. وشرط عليهم أن لا يدخلوا أولادهم في شئ من دين اليهودية ولا النصرانية، وعلى ذلك أعطوا العهد. فواجب على أهل الحق إذا أعلى الله كلمتهم أن تُسبى نساؤهم، وتقتل

(830/1)

رجالهم، وتؤخذ أموالهم، إلا أن يدخلوا في الإسلام كلهم، فيرى رأيه؛ لأن القرن الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يفوا له بعهده، فانتقضت عهودهم، ووجب ما ذكرنا من الحكم عليهم. غير أن الباطل قد شمل وظهر، والمنكر قد علا وقهر، وعطلت الأحكام، ودرس الإسلام، وظهر الفسق، ومات الحق، فإلى الله في ذلك المفزع والمشتكى، عليه توكلنا وهو العلي الاعلى.

(831/1)

تبيين من المراد بقوله تعالى: ؟قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ؟التوبة:123

فأما ما ذكرت من أنهم الذين قال الله سبحانه: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ؟[التوبة: 123]، فغيرهم أَوْلى بهذه الآية منهم من هو أقرب إلى الإسلام، وأضر على دين محمد عليه وآله السلام من أولئك الكفرة الطغام. و؟الَّذِينَ يَلُونَكُم؟، فهم الذين بينكم ومعكم ممن يدعي الإسلام وهو كافر بالله ذي الجلال والإكرام، كاذب فيما يدعيه، ثابت من الكفر فيما هو عليه من جبابرة الظالمين، وفراعنة العاصين، الذين قتلوا الدين، وخالفوا رب العالمين، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وانتهكوا محارمه، ولم يأتمروا بأمره، ولم ينتهوا عن نهيه، وحاربوه في آناء الليل وأطراف النهار. فراعنة ملاعين، جورة متكبرين، لا يحكمون بكتاب الله، ولا يقيمون شيئاً من شرائع دين الله، قد قتلوا الإسلام والمسلمين، وأضاعوا الأيتام والمساكين، واستأثروا عليهم بأموالهم، فمات الخلق هزلا في دولتهم. لا في أمور المسلمين ينظرون، ولا إلى الله يرغبون، ولا عذابه يخافون، ولا ثوابه يرجون. معتكفين على اللهو والمزامير، والضرب بالمعازف والطنابير. هِمَمُهم هِمَمُ بهائمهم: ما واروه في بطونهم، أو باشروه بفروجهم، أو لبسوه على ظهورهم. بغيتهم إذلال الحق والمحقين، وشأنهم إظهار الفسق والفاسقين، ومعتمد أمرهم مكايدة رب العالمين.

فهؤلاء – يرحمك الله – ومِثْلهم وأعوانهم، وخدمهم وأصحابهم وشكلهم، أولى بالمجاهدة والقتال من نصارى تغلب الأنذال؛ لأن هؤلاء أضر بالإسلام وأهله وأنكى. ومن كان كذلك من العباد فهو أولى بالجهاد، لضرره على المسلمين والعباد. فافهم ما ذكرنا من تفسير خبرهم، واجتزينا بالقليل من ذكرهم، فإن لك في ذلك كفاية وشفاء، ودليلاً على ما سألت عنه وجزاء.

(832/1)

معراج النبي صلى الله عليه وآله

وسألت عما روي من صعود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء فقلت: أكان نائما أو

يقظان؟

وإذا صح ذلك وثبت، فلا يكون نائماً أبداً، ولا يكون إلا يقظان فهماً؛ لأنه، إن كان ذلك كذلك، فإنما أراد الله بإرقائه إلى السماء التعبير له والكرامة، وليريه من عجائب خلقه وعظيم فعله ما حجبه عن غيره ولم يكرم به سواه. فإذا كان نائماً في ذلك كله، فلم ينتفع بشيء مما صعد إلى السماء له، ولم يرى شيئا مما ينتفع به، فلذلك استحال أن يكون نائماً، كما قال من جهل.

(833/1)

معنى قوله تعالى: ؟فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى؟

وسألت عن قول الله سبحانه: ؟فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى؟[النجم: 9]؟

الجواب: أن الذي صار قاب قوسين أو أدنى هو جبريل صلى الله عليه، فكان في هذا الموقف قد دنى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صورته التي هو عليها مع الملائكة المقربين، حتى كان من الرسول قاب قوسين أو أدنى. ومعنى قاب قوسين: فهو مقياس رميتين بالقوس في الهواء. فدنا منه صلى الله عليهما حتى كان في الموضع الذي ذكره الله تبارك وتعالى فيه: ؟فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى؟[النجم: 10]، مما أرسله الله به من الأشياء، فهذا تفسير ما عنه سألت من قوله: ؟قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى؟[النجم:9].

(834/1)

الأعجمي لا يحسن إلا سورة أو سورتين

وسألت عن عجمي لا يحسن إلا سورة أو سورتين من القرآن، فقلت: هل يجزيه إذا عرف أصل التوحيد؟

فلعمري أن ذلك مجز كاف، إذا أقام بالسورتين أو الثلاث ما أمره الله به من الصلاة بحدودها، وأدى ما أوجب الله من ركوعها وسجودها، وكان في ذلك موحداً لربه، عارفاً مع ذلك لعدله، مصدقاً لوعده ووعيده، عارفاً بالحق وأهله، تاركاً لمعاصي ربه، مؤدياً لفرائض إلهه، فإذا كان كذلك، فهو من المسلمين، وعند الله – إن شاء الله من الناجين – ولم تضره عجمة لسانه إذا أقام له قلبه دعائم أديانه.

(835/1)

تعلم النساء

وسألت عن النساء: إذا عرفن الله وأدَّين الفرض، فقلت: هل يجزيهن ذلك عن تعليم القرآن وفرائض الله الرحمن؟

الجواب: في ذلك أنه لا بد للنساء والرجال من معرفة ما أوجب الله فرضه من الأعمال وأوجب على الخلق القيام به من الأفعال، إلا ما طرحه الله عن النساء من الجهاد والسعي إلى الجمعة، وما أشبه ذلك من الأشياء، وأنه لا يجوز لهن التقصير عن معرفة ما أوجب الله عليهن معرفته، والعمل بما أوجب الله عليهن العمل به، وعليهن أن يتعلمن ويتفقهن، ولا يجوز لهن أن يتعلقن بالجهل المنهي عنه، ولا يتمادين في شيء منه.

تمت المسائل وجوابها، والحمدلله حمداً كثيراً، وصلواته على سيدنا محمد وآله الذين طهرهم من الرجس تطهيراً.

(836/1)

من مسائل محمد بن عبيدالله

موالاة الظالمين

قال محمد بن عبيدالله رحمة الله عليه:

سألت الهادي إلى الحق صلوات الله عليه عن موالاة الظالمين؛ فقال:

لا تجوز موالاة الظالمين لأحد من المؤمنين. وموالاتهم فهي مودتهم ومحبتهم؛ لأن الله سبحانه يقول: ؟لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟[المجادلة: 22] الآية، فحرم الله تعالى موالاتهم ومحبتهم، ولم يطلق للمؤمنين الانطواء على شيء من إضمار المودة لهم، وفي ذلك يقول عز وجل: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ؟[الممتحنة: 1] الآية، فمن انطوى وأضمر محبة ظالم فقد خرج من دين الله، وليس من المؤمنين بالله، ولا تجتمع معرفة الله ومحبته وموالاته مع مودة أعداء الله ومحبتهم؛ لأن الله عدو للظالمين، والظالمون أعداء لرب العالمين، ولن يجتمع ضدان معاً في قلب مسلم.

(837/1)

فأما المداراة للظالمين باللسان، والهبة والعطية، ورفع المجلس، والإقبال بالوجه عليهم، فلا بأس بذلك؛ لأن الله قد فعل في أمرهم وهم أعداؤه ما فعل، من جعله لهم جزءاً من الصدقات يتألفهم به على الحق، ويكسر به بعض بلائهم وظلمهم عن الإسلام، وذلك قوله عزوجل: ؟إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ؟[التوبة:60] الآية، فجعل للمؤلفة جزأً وهم أعداء الله وأعداء الإسلام؛ يكسر حدهم عن المؤمنين، ويصليهم به نار جهنم وبئس المصير، ويجعله عليهم وبالاً في الآخرة، ولهم عذاب أليم. وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل بالمنافقين الظالمين، يؤثرهم على من معه من إخوانه المؤمنين، ويكِلُ إخوانه على إيمانهم، من ذلك ما فعل في غنائم حنين فرقها كلها على المؤلفة قلوبهم – ولم يعط المؤمنين منها درهما واحداً، ولا شاة واحدة، ولا بعيراً – يتألّفهم بذلك ويكسر عن المؤمنين شر حدهم، وكذلك كان يفعل بكبراء المشركين إذا كاتبوه وأتوه، يكاتبهم أحسن المكاتبة، ويفرش لهم ثوبه إذا أتوه يجلسهم عليه، نظراً منه للإسلام، ومداراة لهؤلاء الطغام، عن غير موالاة ولا محبة.

(838/1)

الاستعانة بالظالمين

وقال محمد بن عبيدالله: وسألت الهادي صلوات الله عليه: هل تجوز الإستعانة بالظالمين، وقلت ما معنى قول الله سبحانه: ؟وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا؟[الكهف: 51]؟

فقال: أما ما سألت عنه من قول الله تبارك وتعالى، فإنما أراد بالعضد: الود المشاور في المبثوث من جميع الأسرار الظاهرة والباطنة، والمحبوب في السر والعلانية، المعتقدة ولايته، الجائزة عند الله مناكحته، وأكل ذبيحته، وقبول شهادته، والاعتماد على قوله، والركون إلى مصافاته، فهذا العضد، فمن لم يكن عند صاحبه على هذه الحال، على حقيقة الفعل والمقال، فليس له بعضد ولا كرامة له، ولا ينتظمه هذا الاسم أبداً، ولا يجوز له أصلاً. فأما ما استعنت به في مهماتك، وتقويت به واستعنت به في ساعات حاجاتك في إصلاح الإسلام والمسلمين، وهاييت به من كان مثله من الظالمين، واستعنت به على من هو أفجر منه وأنت له شاني، ومنه متبري، وبه غير واثق، تكتمه أسرارك، وتجمل لديه أخبارك، لاتستحل له مناكحة، ولا تأكل له ذبيحة، ولا تقبل له شهادة، ولا تأتم به في صلاة، فكيف تكون له متخذاً عضداً، أوتكون له ولياً مرشداً!! هذا ما لا يغلط فيه إلا الجهّال، وإلا من أعمى الله قلبه من الرجال، فهو يتكمه في عمايات الضلال، يدعوا الليل نهاراً، والنهار ليلاً، والولي عدواً، والعدو ولياً، ينحل كل واحد منهما نحلة ضده، ويدعو كلاً بغير اسمه.

وأما ما سألت عنه من استعانة المحقين بالظالمين في طاعة رب العالمين، لمحاربة المحاربين فإنا لا نستحل غيره في مذهبنا؛ لأن الاستعانة بالظالمين على من حارب الحق والمحقين واجب على

المسلمين، لا يسع أحداً تركُه، ولا يجوز رفضه، إذا صار الإسلام إلى ذلك محتاجاً، وكان الحق إليه مضطراً، إذا جرت عليهم أحكام الإمام، ومن في عصره من خدم الظالمين وأعوانهم الذين استعان بهم في وقت حاجته لهم.

ونقول: إن فرض ذلك يجب من وجهين:

(839/1)

فأما أحدهما: فإنه لا يحل للإمام أن يقتل الإسلام ويضيعه، ويمكن عدوه منه وهو يجد إلى غيره سبيلاً، وعلى إجابته معيناً، يجري أحكامه عليه؛ لأنه إن امتنع من الاستعانة بهم في وقت ضرورته، ظهر مَن هو شر ممن كره الاستعانة به على الإسلام فأهلكه.

والمعنى الآخر: فبيّن بحمد الله عند من عقل، وهو أن يقال لمن أنكر الاستعانة بالظالمين: أيها الجاهل هل عذر الله أحداً، وأطلق له ترك فرض من فرائضه، أو أطلق له ترك إقامة طاعة من طاعته، فاسقاً كان المتعبد، أو مؤمناً، أو ظالماً أو محسناً.

فإن قال: نعم! قد عذرهم الله في ترك فروضه، وأطلق لهم في وقت فسقهم وظلمهم رفض شيء من حدوده.

فقد كفر القائل بذلك، واجتزي بكفره عن مناظرته في شيء من دينه؛ لأنه يزعم أن الله سوغ للظالمين شيئاً من معاصيه، وأجاز لهم ترك فرائضه التي فرض، وهذا تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله.

وإن قال: لا لم يجز الله لظالم في وقت ظلمه، ولا لفاسق في وقت فسقه ترك شيء من أداء فرائضه، والفرض لازم لهم، واجب عليهم.

قيل له: فأي فرض أكبر من الجهاد في سبيل الله، والقيام بمحاربه من عَنَدَ عن أمر الله، والمعاونة لأولياء الله؟

فإذا قال: لا فرض أكبر من ذلك.

(840/1)

قيل له: فمن أين أجزت لهم القعود عن نصره؟ ومن أين أجزت للإمام أن يدعهم من أداء هذا الفرض؟ ولم يجز له أن يكرههم عليه في حال فسقهم فضلاً عن أن يأتوه طائعين، ولحكمه مسلمين.

فإن أجزت للإمام أن يدع إلزامهم فرض الجهاد الأكبر وقد أتوه طائعين، ولفرض الله في الجهاد معه مسلمين، أو أجزت له أن يترك الاستعانة بهم من طريق القهر لهم إن قدر على ذلك، أو قلت لا

يجوز أن يقهرهم على ذلك إن أطاق قهرهم، فضلاً عن أن يسلموا أو يطيعوا، فيجب عليك أن تقول: إنه لا يجب على الإمام أن يقهرهم على طاعة الله كلها أو فرائضه من الصلاة، والصيام، وغير ذلك مما هو دون الجهاد. وقد أغنى الله من عقل بما كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك، من الاستعانة بغير أهل الملة من اليهود، وغيرهم من مشركي الحبش، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يستعين باليهود في حربه، وبالمنافقين الكافرين به المستهزين بحقه، وكتاب الله يبين ذلك له من أمرهم، وينزل عليه بكرة وعشياً، وأمر صلى الله عليه وآله أصحابه الذين آمنوا به، وهم اثنان وسبعون رجلاً، أن يمضوا ويهاجروا إلى بلاد الحبش، وأمرهم أن يستعينوا به، وبطعامه وشرابه على من يريدهم بسوء، فجهزت قريش لما جاءوا إليه البُرد في أمرهم، وبذلوا الأموال في تسليمه إياهم إليهم، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه يسأله المعونة على قريش لأصحابه وله، وسأله أن لا يسلمهم وأن يعينهم على أمرهم، ففعل ذلك وأهدى إليه حراباً وبغلتين وشيئاً من الذهب، فقبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكانت الحراب تحمل قدامه وتركز بين يديه إذا صلى.

(841/1)

وكذلك أهدى إليه ملك قبط مصر جاريتين وبغلة وحللاً من حلل مصر؛ فقبل ذلك كله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من القبطي. والقبطي مشرك بالله، جاحد لرسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فاتخذ إحدى الجاريتين - ويقال إنهما كانتا أختين - فدعاهما إلى الإسلام فأسلمت واحدة، فوطيها فولدت له إبراهيم صلى الله عليه، ووهب الأخرى لحسان بن ثابت الأنصاري، فأي استعانة أكبر من هذا أو حجة أبين مما ذكرنا، والحمد لله، وهذا يجزي لمن عقل عن التطويل، إن شاء الله والقوة بالله.

وكذلك استعان صلى الله عليه وعلى آله في فتح مكة من أعراب فزاره، وغير ذلك من أعراب البوادي وجفاتهم، ممن هو مسلم لحكمه، غير عارف بحدود ربه.

تَمَّ ذلك والحمد لله حمداً كثيراً كما هو أهله ومستحقه، وصلواته على محمد وآله.

(842/1)

مسألة من مسائل النَّباعي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين وعلى آبائهم الطاهرين:
سألتَ عن قول الله عز ذكره وجلت أسماؤه: ؟أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا؟، فقلتَ: ما الطيبات في هذه الدنيا؟ أهو ما يتنعم به الناس ويلبسونه من صالحيهم وطالحيهم؟ وأن من لبس الثياب السرية، وأكل الطعام الفايق، وركب الخيول حلالاً كان أو حراماً فقد أذهب طيبات الآخرة بما أطلق لنفسه من استعمال طيبات الدنيا؟

(843/1)

فأما الكافر وأسبابه فقد استغنينا عن الفتش عن أمره بما قد قر عندنا في حاله، كثرت دنياه أو قلّت، فمصيره إلى النار. وأما المومن به، والعامل بطاعة خالقه، المتحري في أمره لما أمره به خالقه، فكيف تكون تلك حاله وإنما جعل الله الطيبات للمؤمنين خالصة دون الفاسقين، فقال في كتابه عز وجل لأنبيائه عليهم السلام: ؟يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا؟[المؤمنون: 51]، وقال في كتابه: ؟قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟[الأعراف: 32] ومعناها: ويوم القيمة، وقال في كتابه: ؟لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ؟[المائدة: 93]، فلم يجعل الله سبحانه على المؤمنين حرجاً في شيء مما رزقهم، إذا أخذوه على ما جعل لهم وأمرهم به؛ فساروا فيه بطاعة الله، ولم يتعدوا إلى شيء مما يسخط الله؛ لأن الله عز وجل – أيها السائل – لم يجعل ما في هذه الدنيا من خيرها ومراكبها التي خلقها لشرار أهلها، ولا لمن عَنَدَ عن طاعة خالقها، وإنما جعلها الله للصالحين ولعباده المتقين، يأمرون فيها بأمره، وينهون فيها عن نهيه، ويقيمون أحكامه فيها، منفذون لأمره عليها، فللطاعة والمطيعين خلقها رب العالمين، ثم أمرهم ونهاهم، وبصرهم غيهم وهداهم، وجعل لهم الاستطاعة إلى طاعة مولاهم، ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟.

(844/1)

وأما معنى الآية وقول الله: ؟أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا؟، فتبكيت منه سبحانه لأهل النار، وتوقيف على تفريطهم في طاعة ربهم، ومعنى: ؟أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ؟، أي تركتم ومحقتم وعطلتم ما

جعل الله لكم بالطاعة من النعيم المقيم والخلد مع المتقين في الثواب الكريم بارتكابكم للمعاصي، وتركم للطاعة؛ حتى خرجتم مما جعل الله للمطيعين، وصرتم إلى حكم الفسقة الكافرين في عذاب مهين، فهذا معنى: ؟أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ؟.

تمَّ والحمد لله حمداً كثيراً، وصلواته على محمد وآله الذين طهرهم من الرجس تطهيراً.

(845/1)

مسألة لأبي القاسم محمد بن يحيى عليهما السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال يحيى بن الحسين عليه السلام:

سألتَ يا بني، أرشدك الله وهداك، عمن قذف مملوكاً أو مملوكة مسلمة، فقلت: هل يجب عليه حد كما يجب على من قذف حرة مسلمة؟

وقد اختلف في ذلك، فقال قوم: يجب عليه الحد إذ قذف حرة مسلمة كانت أو أمة، وكانت حجتهم في ذلك، يزعمون، قول الله تبارك وتعالى: ؟وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً؟[النور: 4]، فقالوا: المحصنات هن العفايف المسلمات حرائر كن أو مملوكات، واحتجوا في ذلك بقول الله تعالى: ؟وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا؟[التحريم:12]، وبقوله سبحانه: ؟مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ؟[النساء:25]، فقالوا: هن العفايف الصالحات.

وقال قوم: لا يجب الحد إلا على من قذف حرة مسلمة.

(846/1)

والحجة في ذلك، يا بني، فنيرة عند أهل العلم واضحة ظاهرة، وفي كتاب الله ساطعة، قال الله سبحانه: ؟وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً؟[النور: 4]، فنظرنا في الإحصان ما هو، فوجدناه على أربعة معان: إحصان الإيمان، وإحصان التزويج، وإحصان الحرية، وإحصان العفة. فلما كان ذلك كذلك اختلف الناس في التي يجب الحد في قذفها أهي المحصنة بالإيمان، أم المحصنة بالحرية، أم المحصنة بالعفة والحرية معاً؟ فلم يكن عند القوم في ذلك حجة قاطعة تجمعهم فيه على مقاله واحدة، فافترقوا في ذلك على

ثلاثة أقاويل، إذ لم يعرفوا لقول الله وحكمه في ذلك تأويلاً، فقال قوم: لاحد إلا على من قذف حرة محصنة بالإيمان. وقال قوم: بل الحد أيضاً على من قذف أمة محصنة بالعفة والإحسان. وقال قوم: بل الحد أيضاً على من قذف ذمية محصنة بالعفة، والحد يقع بإحصان العفة، فكل عفيفة عن الزنى مجنبة عن هذا المعنى، كائنة من كانت من حرة أو أمة أو ذمية معاهدة فعلى قاذفها الحد الذي جعله الله في قذفها.

(847/1)

فلما أن اختلفوا كذلك ولم يهتدوا إلى الرشد من ذلك علمنا أن في كتاب الله سبحانه بيان ما فيه اختلف أولئك، فرجعنا إلى الكتاب نبتغي فيه بيان ذلك، فوجدنا الله سبحانه يقول: ؟إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟[النور: 23]، يقول سبحانه: عذاب في الدنيا، والعذاب في الدنيا فهو الضرب الذي حكم الله به عليهم في الدنيا، فأما عذاب الآخرة فهي النار وبئس المصير. فبين سبحانه في هذه الآية على من يقع عذابه الذي حكم به على القاذفين، فذكر على أنه من رمى المحصنات الغافلات المؤمنات. فنظرنا إحصان العفة، فإذا به لا يكون ولا يصح ولا يثبت إلا بالإيمان؛ لأن من لم يصح له الإيمان بالله وبرسوله، والعفة عن إنكارهما وجحدهما وجحد ما جاء به محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لم يصح له اسم العفة عما هو دون ذلك من زنى ولا غيره، ولم يكن من أنكر الله ولم يعرفه بمعنى من معاني الإنكار من إنكار فطرة فطرها، أو جحدان آية أنزلها، أو نفي حجة له احتج بها، أو دفع رسول من رسله، أو إنكار فعل من الله في بعثته بداخل في محض العفة، ولا مشهود له بها عمن غفل من الأمة؛ لأن من لم يغفل عن كبائر الجحدان، ودخل في عظايم فوادح العصيان والبهتان كان جديراً حرياً بالوقوع فيما دون ذلك من العصيان. والزنى فلا يكون علانية جهاراً، وإنما يفعله أهل هذه الدار في الخفية والاستتار، ومن حكم عليه بالكفر بالبينة الظاهرة، فكيف يحكم له مؤمن بالعفة الباطنة، والعفة فإنما هي مدحة من أكرم مدح المسلمين، وبها تثبت حقائق الإيمان، فكيف يحكم بها لمن كان من الكافرين، وينسب إليها من جحد الدين، وناصب رب العالمين، وأنكر فرض طاعة خاتم النبيئين، هذا من القول ما لايقول به عاقل، ولا يتعلق بعلائقه إلا عمٍ عن التمييز جاهل. فقد أزاح ولله الحمد كل مسلم من الأمة عمن كان كذلك اسم

(848/1)

العفة، فبطل بذلك قول من أوجب الحد على مؤمن أو مؤمنة إن كان منه خطأ أو جهلاً في قذف كافر أو كافرة.

ثم نظرنا في القول الثاني، قول من قال إن الحد يجب في قذف الأمة المسلمة بإحصان العفة دون إحصان الحرية، فإذا بإحصان العفة والإحسان داخل في إحصان الإيمان، إذ لا يصح عفة إنسان حتى يصح له الإيمان والتقوى؛ لأن من بان وظهر فساد ظاهره الذي يحكم به عليه لم يشهد له صادق أبداً بصلاح سريرته التي تنسب إليه، فكان قوله سبحانه الغافلات المؤمنات يجزي عن ذكر العفيفات الصالحات؛ لأن العفة داخلة في الإيمان، فكذلك ولذلك أجزى ذكر إحصان الإيمان عن ذكر إحصان العفة والإحسان، فرجع أصل الإحسان إلى ثلاثة معان في القول والبيان: إلى التزويج، والحرية، والإيمان.

(849/1)

ثم نظرنا في معنى إحصان التزويج هل له معنى فيما جعل الله سبحانه من الحد للمقذوفين على القاذفين، فلم نجد لإحصان التزويج في ذكر حد القذف معنى؛ لأن الحد للمقذوف على القاذف لازم أبداً كان المقذوف متزوجاً أو عزباً، فزاح بذلك أيضاً إحصان ذكر التزويج من الآية التي أوجب الله فيها على القاذفين العقوبة والنكاية، فلم يبق في حكم الآية وقصصها من الإحصان إلا إحصان الحرية والإيمان، فكان ذكر الإيمان في الآية قايماً بنفسه، معروفاً بعينه، مستغن بذكر ظاهره عن ذكر باطنة، وذلك قول الله سبحانه: ؟الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ؟، فاكتفى سبحانه بذكره الإيمان في المؤمنات، ونسبته إليهن عن ذكرهن بالإحصان؛ إذ كان الإيمان هو رأس الإحصان، وبه يكمل للمحصن اسم الإحصان، فلم يبق في الآية ذكر من ذكر محصناً في الكتاب، أو مدعي بالإحصان في سبب من الأسباب إلا وقد خرج منها، وبان بما احتججنا به من الحجة عنها، ما خلا إحصان الحرية وحده، فعلمنا أنما جاء في الآية من ذكر الإحصان هو إحصان الحرية دون غيره، وذلك قوله سبحانه: ؟إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟[النور : 23]، فكانت هذه الآية مفسرة لقوله سبحانه: ؟وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً؟[النور : 4]، فبين قوله: ؟إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ؟ ذكر الحد على من يجب من القاذفين، وأخبر أنه يجب في قذف المحصنات بالحرية الغافلات المؤمنات من الحر ائر العفيفات. ولو لم يرد سبحانه إحصان الحرية هاهنا لما كان لقوله: ؟الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ؟ معنى؛ لأن الإحصان هو من ذكر الإيمان ونعته، وإنما تكون محصنة بالإحصان من بعد إيمانها، فإذا آمنت فقد أحصنها الإيمان، وإذا ذكر الإيمان

(850/1)

استغنى عن ذكر الإحصان؛ لأن الشيء الظاهر أدل على نفسه في حال ظهوره مما يكون من نعته. ألا ترى أنه إذا قيل: وما هذا الإحصان، والإحصان يخرج على معان شتى؛ فيقال: محصنة إيمان؛ فيكون ذكر الإحصان دليلاً على علامة الإيمان، وإذا قيل مؤمنة فقد استغنى عن ذكر الإحصان، إحصان الإيمان، وذلك بظهور المسمى بنفسه، فإذا ظهر الاسم واستوى لم يحتج إلى ذكر ما يدل عليه في المعنى؛ لأن قولك هذه مؤمنة يجزي عن أن تقول محصنة بالإيمان؛ لأنك قد أثبت لها أصل الإحصان وفرعه حين دعوتها بالإيمان؛ إذ لايكون مؤمن أبداً إلا وهو محصن بالتقوى، والمحصن فقد يكون هذا الاسم ويخرج على معان. فدل الله سبحانه بما ذكر في هذه الآية على ما قلنا من أنه لا يجب على قاذف حد حتى يقذف حرة مؤمنة، أو حراً مؤمناً، فحينئذ يجب الحد على من قذف من كان كذلك في الحرية والإيمان، فافهم هديت معنى ما ذكرنا، وميز بعقلك تقف على ما فسرناه، وتدبره يثبت قلبك بحول الله ما شرحناه، فإنه قول بين ظاهر لمن تدبر، دقيق غامض على من جهله، فنسأل الله إيزاع ما يلزمنا من شكره، والتوفيق لما أوجب علينا من طاعته وفرضه.

وسألت: عن قول الله سبحانه: ؟مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ؟[المائدة: 103].

القول في ذلك أن قصي بن كلاب سنَّ هذه الأسماء وجعلها لقريش فاستنت العرب بقريش في ذلك.

والبحيرة: فهي شيء كان إذا أبحر الرجل – ومعنى أبحر: كثر ماله – أخذ من إبله شيئاً كثيراً أو قليلاً فوسم في خدودها بحيرة، ثمَّ خلاها يزعم أن ذلك شكر لله.

والسائبة: فكان إذا لهم غائب أو مريض نذروا ان يسيبوا من إبلهم إن قدم الغائب، أوصح المريض، فإذا كان ذلك سيبوا شيئاً منها، ووسموا في خدودها سائبة.

(851/1)

والوصيلة: فهي من الغنم، كانت الشاة عندهم إذا ولدت خمسة بطون نظروا البطن الخامس فإن كان ذكراً أسمنوه، حتى إذا انتهى في السمن أهدوه إلى القائم لهم على الأصنام، وإن كانت أنثى ربوها في غنمهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى في ذلك البطن قالوا قد وصلته أخته، فلا نذبحه ولا نهديه إلى خادم الأصنام، فهذه الوصيلة.

والحام: فهو الجمل الفحل الذي ضرب في الإبل، فإذا ضرب عشر سنين في الإبل، ولحقه أولاده فضربت معه قالوا هذا قد حما ظهره لا يحل لنا أن نحمل عليه، ولا أن نملكه، فيسِمون في خده حام

ويخلونه.

فكانت هذه الأشياء قد كثرت في البلاد، وأتعبت الناس؛ لأنهم لم يكونوا يحمونها شجراً ولا يمنعونها ماء، وكانوا يقولون هذه إبل الله، فلما أن بعث الله رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، أمرهم أن يأخذوها، وينتفعوا بها، ويرثوها فيما يرثون من آبائهم وأجدادهم، فقالوا: هذا لا يحل لنا ولا نفعله، هذا شيء قضى الله به علينا واختاره لنا، ولولا أن الله قضى به واختاره وجعله لم نفعله. فأنزل الله سبحانه في ذلك إكذاب قولهم: ؟مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ؟[المائدة: 103] فهذا ما سألت عنه.

تم والحمد لله على ما أولى وأنعم

وصلى الله على محمد وآله وسلم

وله عليه السلام:

(852/1)

مسألة في الذبائح

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

سألت عن الذبائح ما يحل منها وما يحرم، والجواب: أنه يحرم من الذبائح ست ذبائح:

ذبيحة اليهودي؛ لأن الله عز وجل قال: ؟وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ؟[التوبة: 30].

وذبيحة النصراني؛ لقول الله عز وجل: ؟وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ؟[التوبة: 30].

وذبيحة المجوسي؛ لأنه يقول: إن الله قضى عليه بركوب أمه وابنته وأخته.

وذبيحة المجبر؛ لأنه يقول: إن الله يجبر خلقه على المعاصي.

وذبيحة المشبه؛ لأنه يقول: إنه يعبد الذي يقع عليه بصره يوم القيامة.

وذبيحة المرجي، لأنه يقول: الإيمان قول بلا عمل.

قال الله تبارك وتعالى لجميع عباده: ؟فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ؟[الأنعام: 118]، ؟وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ؟[الأنعام: 121]، فجميع هؤلاء الستة الأصناف، ما ذكروا اسم الله تبارك وتعالى على شيء من ذبائحهم، إذ لم يعرفوه تبارك وتعالى حق معرفته، ولم يقروا له بتوحيده وعدله، ولم يصدقوه في وعده ووعيده، وكذبوا قوله في وليه وعدوه.

تمت المسألة وجوابها، والحمدلله حتى يرضى وله الحمد بعد الرضى وصلواته على محمد المصطفى وعلى من طاب من عترته وزكى.

(853/1)

من مسائل علي بن محمد العلوي مما سأل عنها الهادي إلى الحق صلوات الله عليه

وسألته عن أطفال المشركين هل يحل سبيهم؟

فقال: نعم.

قلت: ومن أين؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: ((كل طفل يولد فإنما يولد على فطرة الإسلام، حتى يكون أبواه اللذان يهودانه أوينصرانه.))

فقال: إنما هذا في الأطفال الذين يولدون في دار الإسلام، فأما من يولد في دار الكفر فقد حكم الله عليه بالسبي، وحكم على ما فيها من مال أو نفس، وأبانها وأحل ما فيها، وصيّرها ملكاً وغنيمة للمؤمنين، فما جاز من سبي الكبير جاز في سبي الصغير؛ لأن الدار دار كفر، فافهم الفرق بين دار الكفر ودار الإسلام.

وسألته عن نساء اليهود والنصارى هل يجب عليهنّ الجزية؟

قال: لا.

فقلت: ومن أين لم تجب عليهن الجزية؟

قال: لأن الله تبارك وتعالى حكم على الرجال بالقتل، وأوجب عليهم الجزية فداء من القتل، فمن وجب عليه القتل من الرجال وجبت عليه الجزية.

قلت: فهل يجب دعوة النساء؟

قال: نعم.

قلت: فإن لم يفعلن؟

قال: يستخدمن ويهنَّ.

قلت: وهل تحل خدمتهنَّ؟

قال: نعم، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بصفية ابنة حيي بن أخطب حتى أسلمت، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قال بعض علماء أهل البيت: إنهن يدعين، فإن لم يسلمن قتلن.

قلت: فما قولك أنت يا أمير المؤمنين؟

قال: حتى نبلغ إن شاء الله، ثم أعلمك برأيي فيهنَّ.

(854/1)